جائزة خليفة التربوية
Khalifa Award for Education

جدّتي كرْمة

رواية لليافعين

جدّتي كرْمة

رواية لليافعين

27

د. سهيلة سامي

2017

جائــزة خليفــة التربــويـة
Khalifa Award for Education

جَدَّتِي كَرْمَة

رواية

موجَّهة إلى اليافعين

إعـــداد
د. سهيلة سامي

فاز هذا العمل في مجال التأليف التربوي للطفل الدورة العاشرة
٢٠١٦-٢٠١٧

جائزة خليفة التربوية
Khalifa Award for Education

مطبوعات جائزة خليفة التربوية

الكتاب رقم (27)

موافقة المجلس الوطني للإعلام رقم: 204748-2017
رقم التصنيف الدولي: ISBN-978-9948-23-986-4

جميع الحقوق محفوظة, ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل كان, بما في ذلك نسخ الصور أو استخدام الوسائل الإلكترونية, دون موافقة كتابية من أصحاب حقوق الطبع والنشر , وكل من يتصرف بما يخالف ذلك, سيكون عرضة للمساءلة القانونية.

جميع الحقوق محفوظة للأمانة العامة لجائزة خليفة التربوية .

مدينة أبوظبي – دولة الامارات العربية المتحدة
هاتف: 0097124459442
فاكس: 0097124454995
ص ب: 33088
الموقع الإلكتروني : www.khaward.com

كلمة

إسهاماً من الأمانة العامة لجائزة خليفة التربوية في تفعيل الميدان التربوي، وتعميق ونشر الوعي التربوي في نفوس العاملين فيه، ونشر المعارف التربوية الصحيحة في مجتمع دولة الامارات، بما يؤدي الي نهضة تعليمية واعدة، تقوم الأمانة العامة في كل دورة بنشر أبحاث الفائزين في مجالات الأبحاث التربوية العامة، والأبحاث التربوية الإجرائية، والتأليف التربوي للطفل، بشقيه الإبداعي والوصفي، علي مستوي الدولة والوطن العربي، لتكون مادة تربوية رصينة، تضعها بين ايدي التربوين، والمهتمين بالتربية، آملين أن تكون لبنة في صرح الجهود التربوية المتواصلة في الدولة، لبناء دولة العلم والمعرفة، في سبيل الوصول إلي مكانة مميزة بين الأمم المتحضرة في عالم اليوم.

أمين عام جائزة خليفة التربوية
أمل عبدالقادر العفيفي

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
قائمة المحتويات	5
مشروعُ كتابٍ	7
كرسي خشبي قديم	11
كَرْمَتَان	13
شجرةٌ استوائية!	17
بَيْنَ المَعْمَلِ والمُصَلى	24
أفروديت	27
مُعلّمَتي الأولى	34
شمسُ الملوك	43
موزاييك	49
رمضانيات	56
الحذاءُ العجيبُ	64
القرَّاص	68
قرار مدهش!	86
الوليمة القاتلة	93
الفونوغراف	102
المندولين	106
الوروار	112
واكرمتاه!	117

العودة	125
قطط تحت شرفة	128
ذات ليلة صافية	132
دواء.. دواء!	133
حقنةالإنسولين	137
بارالمبياد	141
طبيبة الجدات	144
كنز إيسوب	148
بعيون جدتي	156
كرمة الوفاء	159
في الأوبرا	167
الاحتفال	171
استراحة قصيرة	173

مشروعُ كتابٍ

أنا الدكتورة سهيلة سامي.. مهنتي طبيبة.. مُتخصِّصة في علاج المسنين، وحاصلة على درجة الدكتوراه في هذا الفرع من الطب.

ابنتي اسمُها كرمة، وشهرتها بين أفرادِ العائلةِ: كرمة الصغيرة.. يُذكر اسمها كثيرًا مقرونًا بصفةِ الصغيرة.. السرُّ في ذلك أنها سَمِيَّة لجدتي السيدةِ كرمة رامي، طيَّبَ اللهُ ثراها؛ أي تحمل نفسَ اسمِهَا.. قد لا تكون هناك حاجة كبيرة إلى التمييز بينهما؛ لمفارقةِ جدتي الحياةَ منذ ما يزيد عن عشر سنواتٍ، وعلى الرغم من ذلك، فستظل كرمة الصغيرة كذلك، ولو بحكم الاعتيادِ، وستبقى جدتي حية؛ تعيشُ في ذاكرتنا وقلوبنا.

نجحتْ ابنتي هذا العامَ بامتيازٍ، وستلتحق بالمدرسةِ الثانويةِ.. تريدُ أن تصبحَ طبيبة في المستقبل، وتحذوَ حذوي، فتتخصَّص في المجالِ نفسِهِ الذي تخصصتُ فيه: طب كبار السن.

ويرجعُ السببُ في اختياري هذا التخصصَ، بل واتجاهي لدراسة الطب، إلى جدتي كرمة.. وإليها يعود الفضلُ في إقامةِ مجمع للخدماتِ.. هي صاحبة الفكرةِ، وأوصتنا بتنفيذها، ولم يمهلها القدرُ لتشهدَ افتتاحَهُ؛ لذلك أطلقتُ عليه "كرمة الوفاء".

في الشهرِ الماضي حلتِ الذكرى العاشرةُ لرحيلِها، أسكنها ربي جنة الفردوسِ الأعلى، والعيدُ الخامسُ لميلادِ "كرمة الوفاء" لأعمالِ الخيرِ، وافتتاح المبنى الجديد للرجال المسنين.. وقد قصدتُ أن تكون المناسباتُ الثلاثُ متزامناتٍ، كأنها مناسبة واحدة، احتفلنا بها، وكانت خيرَ إحياءٍ لذكراها.

لاحظتْ كرمة الصغيرة أنني كثيرة الحديثِ عن جدتي، والذكر لها، والاستشهاد على آرائي بأقوالها وأمثالها، والتأسِّي بأعمالها.. قالت لي: كم تحبينها! لم لا تكتبين عنها يا أمي؟

وعدتها أني سأكتبُ عنها، أسجِّل شيئًا من ذكرياتي معها، و أستعرض لمحاتٍ من حياتِها، وأحلامِها، كنوعٍ من التوثيق لأحداث الماضي؛ كيلا تنمحيَ مع مرورِ الأيامِ، ويطويَها النسيان.

وجدتُ المهمَّة صعبة؛ فلم يسبقْ لي أن خضتُ هذا النوعَ من الكتابةِ الأدبيةِ التسجيليَّةِ، وقد تعودتُ على الأسلوبِ العلميِّ الخالصِ فيما أكتب.
كنتُ أرجئُ الأمرَ؛ لضيق الوقتِ، وانشغالي معظمَ ساعاتِ اليومِ بعملي في مجمع الخدماتِ، ولخوفي من الإقدامِ على هذه التجربةِ الخطيرةِ، والدخول بقدميَّ إلى معمعةِ الكتابةِ.
ويبدو أن جدتي قد أورثتني - وما أكثرَ ما ورثتُ عنها - جيناتِ الكتابةِ، فقد كانت تؤلف وتترجم قصصًا للأطفال على سبيل الهواية.. أتصوَّرُ أنها فعلتْ ذلك لتمتعَ نفسها أولاً، أو تلك الطفلة الجميلة التي ظلت تعيش في داخلِها حتى آخرِ لحظاتِ حياتِها، وكي تحكيَ لنا وتمتعنا وتسعدنا بعد ذلك.
بدأتُ أكتبُ على استحياءٍ ووجلٍ.. وشيئًا فشيئًا استهوتني الكتابة، واستعذبتُ معاناتها، وأخذني تيَّارُها الجارفُ.. وما كدتُ أقتربُ من الختام، حتى قررت الاستمرارَ، فأضفت بضعَ صفحاتٍ، وصفتُ فيها وقائعَ الاحتفاليةِ الصغيرةِ المتواضعةِ في كلفتها، الكبيرةِ الباذخةِ في معانيها، وأشرت إلى نماذجَ من نزيلاتِ الدارِ بحديثٍ موجزٍ.. والحقيقة أن كلَّ جدةٍ منهن تستحقُّ كتابًا مستقلًّا، يصوِّرُ كفاحَها المضني وتضحياتِها.. كم أفكر بالكتابة عنهن - بموافقتهن - بالتفصيل قريبًا.
أتممتُ ما سيلي من صفحاتٍ في أثناءِ أوقاتِ فراغي القليلةِ.. أنجزتها جميعًا بين جنباتِ "كرمة الوفاء".. انتقيتُ ذلك المكان لأنه موطن ذكرياتنا معًا.. استغرق التدوين بضعة أشهرٍ.. كنت كلما خطر لي موقف أو ذكرى، بادرتُ بتسجيله بكلِّ عفويةٍ، وبلا ترتيبٍ مسبقٍ.
وتطوَّر الأمرُ معي في أثناءِ الكتابةِ، حين جعلتُ أسأل نفسي: وماذا بعد أن أكتبَ؟ ما الهدفُ من جهدي هذا؟! سيصبح بلا معنى إذا لم يصلْ إلى الناسِ، ويفيد ولو بعضًا منهم.
أخذت تراودني فكرةُ إصدارِ كتابٍ عن جدتي كرمة، وتلحّ عليَّ.. كتابٍ أستهله بإهداءٍ إلى ابنتي التي أوحتْ لي بالفكرة، أو في الحقيقة جدَّدت لديَّ فكرة قديمة بالكتابةِ عن جدتي، وأشعلتْ جذوتَها، وكان لها الفضلُ في إنجاز تلك الصفحات، بالتذكرة، والتحفيز، والتشجيع.. وعندما بحتُ لها بذلك، فرحتْ

و أيَّدتني على الفور.
حاولتُ ما وسعني أن أنتهيَ من الكتابةِ قبل موعدِ الاحتفالِ بمدةٍ كافيةٍ، تسمح لي بالمراجعةِ المتأنيَّةِ لها، ثم طباعةِ الكتابِ بعد ذلكَ؛ لتوزيعه على الحاضرين ككتاب تذكاري يومَ الحفلِ.. لكن ضغوط المسؤوليات، والإشراف على سيرِ العملِ في إنشاءِ المبنى الجديدِ، و الإعداد للحفل، حال دون ذلك.
سأسعى في الأيامِ القادمةِ إلى الاتفاق مع إحدى دور النشرِ على إصدارِ الكتابِ؛ ليكونَ في متناول الحضورِ، في مناسبةٍ قريبةٍ قادمةٍ، للاحتفالِ بإنجازٍ خيري جديدٍ، يجري التخطيطُ له.
أحلم بكتابي في أكشاكِ الجرائدِ، وفي المكتباتِ، وعند باعةِ الصحفِ على الأرصفةِ.. سأعمل على أن يُباعَ بسعرٍ يناسبُ الجمهورَ.. كم يسعدني أن يلقى رواجًا حسنًا وانتشارًا، و يصل إلى أكبرِ عددٍ ممكنٍ من القرَّاءِ صغارًا وكبارًا.. لا أبتغي من وراءِ ذلكَ أيَّ شهرةٍ.. غاية أملي أن يستمتعوا به، و يجدوا فيه فائدة وأسوة.
لا يزال في الوقت متسعٌ.. يهمني قبل شروعي في النشرِ، إشراك بعض الأقاربِ والأصدقاءِ في الأمر، من محبي القراءةِ، الموثوق بتذوقهم للأدبِ؛ لذا بعثتُ إليهم نسخًا إلكترونية ممَّا كتبتُ؛ ليطلعوا عليه، ويبدوا رأيهم فيه.. أذنتُ لهم أيضًا بأن يرسلوها إلى كلِّ من يتوسَّمون فيهم الجديَّة و سدادَ الرأي.
والآن مع ما سطّرتُ من صفحاتٍ.. أو مشروع الكتاب!

جَدَّتِي كَرْمَة

إهداء: إلى كرمتي الصغيرة.. ابنتي الجميلة التي شجَّعتني على الكتابة.

كرسي خشبي قديم

انتهيتُ من جولتي المسائيةِ اليوميةِ المعتادةِ في "كرمة الوفاء"، واطمأن قلبي إلى أن نزيلاتِ الدارِ جميعهن بخيرٍ.. أوَتْ كل منهن إلى فراشها راضية مطمئنة، وسكنتِ الكرمة إلا من تسبيحاتِ كروان، ساهرٍ في حديقةِ الدارِ، سابحٍ في نورِ البدرِ، يَسكبُهُ على البيوتِ الغافيةِ والشجرِ.

مضيتُ إلى الشرفةِ المطلةِ على الحديقة.. اتخذتُ كعادتي جلستي المفضلة على مقعدِ جدتي نفسِهِ.. مقعد أصيل من خشب أشجار "البلوط"، لونه بني مشوبٌ بحُمرَةٍ؛ أقرب إلى قشرِ البندق، له "شلتة" ناعمة من "القطيفةِ" الخضراءِ، مَحشوَّةٌ بالقطن.. أشعرُ حين يضمّني هذا المقعدُ الوثيرُ بالراحةِ والاسترخاءِ.. بالأمانِ والرضا والسعادةِ.. نفس مشاعري القديمة التي كانت تسري في داخلي عندما أكون في حضن "كرمة"؛ جدتي الحبيبة لأمي.. لهذا المكانِ عبقٌ خاصٌ، ربما لا يحسُّه أحدٌ آخرُ سواي.. أشمّه على الرغم من الروائحِ النفاذةِ لمطهرِ "الديتول"، والأدوية المنبعثة من عياداتِ الدارِ ومستشفاه، وحجراتِ المقيماتِ.. ما أتنفسُ الآن هو رائحة الزمن.. السنين.. أزاهير ليمون ونارنج.. قنينة عطرٍ كمثرية الشكل، تنفث عبيرَ البنفسج الذي كانت تؤثره جدتي.. الغائبة الحاضرة.. باختصارٍ: أريج كرمتي.. كأنها تجالسني.. روحُها دائمًا معي، تؤنسني، وتشدُّ من أزري في المصاعبِ و المحنِ.

كلُّ سيدةٍ من سيداتِ الدارِ تذكرني بها.. أدعوهن جميعاً جداتي.. أداعبهن كما كنتُ أداعبُها.. الجدة ناجية.. الجدة جاكلين.. والجدة ماجدة.. كلهن جدتي الحبيبة.. كأن السنين تعيدُ تشكيلَ الملامحِ والوجوهِ والقدودِ في صبرٍ وأناةٍ؛ لتقاربَ ما بين جميعِ البشرِ.

أحدث النزيلات وأصغرهن سنا؛ الآنسة ولاء جلال، البطلة التي شرفنا جميعًا بوجودها بيننا، وتم التغاضي عن شرط السن، و إعفاؤها منه؛ إكرامًا لها.

أحدِّق إلى زهورِ الحديقةِ، وأترحَّمُ على عاشقةِ الشعرِ والزهرِ، المعَلِّمَةِ السابقةِ، التي أحبَّتِ الطفولة ممثلة فيَّ وصديقاتي ونحن صغارٌ، و كتبتْ وترجمتْ لنا القصص

كهاويةٍ، وكانت راوية متمكنة للحواديتِ، وقصائدِ الشعراءِ.. أقرأ فاتحة الكتابِ على روحِها الطاهرةِ.

ما أروعَ هذا المكانَ.. روضة طفولتي المبكرة، ومَدْرَسَتِي الأولى.. كم كنتُ محظوظة بكلِّ ما فيهِ.. وبجدتي!

كلما جلستُ على هذا الكرسي تركتُ نفسي لفيضِ الذكرياتِ.. إنه حقًّا كرسي الذكرياتِ!

كَرْمَتَان

جدتي ساحرة المقالِ، غزيرة العلمِ.. حميدةُ الخصالِ، حلوةُ الاسمِ.. تحكي باعتزازٍ عن سرِّ تسميتها بهذا الاسم الملفِتِ.. الكَرْمَة هي شجرةُ العنبِ.. ذكرتْ لي أن كان في حديقةِ بيتِ أسرتِها ـ أيَّامَ كان لكلِّ بيتٍ حديقة ـ شجرةُ عنبٍ، تتسلقُ إلى السطح، وتبسط فروعَهَا عليه، تتدلى منها العناقيدُ اليانعة في فصلِ الصيفِ، و كان يطيبُ لأفرادِ الأسرةِ الجلوسُ والسمرُ في كنفِ هذه " التكعيبةِ ".

أخبرتني أن أميرَ الشعراءِ أحمد بك شوقي كان من جيرانهم، إذ كان يقطن بيتا في حيِّ " المطرية " القاهري العتيق، المجاورِ لمنطقةِ "عين شمس"، التي كانت تُسمى مدينة " أون " في العصور الفرعونية القديمة، أو " هليوبوليس" باليونانية، وتعني: مدينة الشمس.. وكان بها جامعة شهيرة، تعدُّ أقدمَ جامعاتِ العالمِ على عهدِ قدماءِ المصريين، تُعلِّمُ الفلك والطبَّ والهندسة ، ولا تزالُ مسلة الملكِ الفرعوني "سنوسرت الأول"، المنحوتة من الجرانيتِ الأحمرِ، قائمة فيها.

ظلَّ هذا الحيُّ حتى وقتٍ ليسَ ببعيدٍ موطنًا لعليةِ القوم والأثرياءِ؛ لهدوئِهِ، وطابعِه الذي كان أقربَ إلى الريفِ، وكان مقصدًا لطالبي السكينةِ والاستجمام.. وَرَدَ ذكرُه في قصيدةِ شوقي السينيةِ المشهورةِ، التي صاغها في منفاه بإسبانيا، وقال فيها:

وهفا بالفؤادِ في سلسبيلٍ[1] ظَمَأ للسوادِ من عينِ شمسِ

ويقصدُ بالسوادِ في هذا البيتِ الشعري؛ ضواحيَ منطقةِ "عين شمس"، حيث سكناه، ويعبِّرُ عن أشواقِهِ وحنينِهِ في غربتِهِ إليها، وإلى ساكنيها.

لا أزال أسمعُ صوت جدتي ينسابُ كهمساتِ شمعةٍ في سكونِ السحرِ.. تحكي وتحكي.. كان أبوها محبًّا للشعر، أيَّامَ كانتِ الصفحاتُ الأولى للجرائدِ مسرحًا يتبارى عليه كبارُ الشعراءِ، وكانت تزدهي بأروعِ القصائدِ.. كان هناك أناسٌ كثيرون يعشقون الأشعارَ، والفنون الراقية، ويجدون وقتًا لتذوقها، والاستمتاعِ بجمالياتِها،

1 السَلسَبيل: الشرابُ السهلُ العذبُ، وسلسبيل: عينٌ في الجنةِ، أو وصفٌ لكل عين عذبةٍ سريعةِ الجريان.

كما كانوا يطربون للموسيقى الهادئةِ والغناءِ الرصينِ[2].. كان جدي الكبيرُ رامي كامل مولعًا بالشاعر شوقي، ومن عشاق نظمه الدريِّ البديع.. بنى الشاعرُ بيتًا جديدًا على النيل في الجيزة بعد عودته من المنفى، أسماه "كَرْمَة بن هانئ "، انتقل إليه في نهايةِ العقد الثاني من القرن العشرين .. وحدث أن وُلدت جدتي في ذلك الوقت؛ فأسماها أبوها "كَرْمَة " إعجاباً بذوق الشاعر شوقي في الاختيارِ واقتداءً به!

كنت أنصت لجدتي، وكنت أعجب لنفسي؛ كيف أنسى في كلَّ مرَّةٍ أن أسألها: من هو ابن هانئ؟! ربَّما كان ذلك يعودُ إلى سحرِ حديثها وانتشائي بحكاياها.. ذات يوم أتاني جوابُها: شوقي بك كان مولعاً بقصائدِ شاعرٍ من أشهرِ شعراءِ العصرِ العباسي، هو الحسن بن هانئ المعروف بـ " أبي نُوَاس ".

قلتُ لها يومًا إن اسمها لا بدَّ مأخوذ من الكَرَمِ والجُود والسخاءِ ونبلِ الصفاتِ.. فهو يشتملُ على ذلك كله.. جاوبتني باسمة:

ـ لغتنا العربية ثرية جدًّا بمفرداتها ومترادافاتها.. و قد يكون للكلمة الواحدة عدة معانٍ، أو تحمل الكلمة الواحدة المعنى وضده في آنٍ.. كَرْمَة .. بفتح الكاف، هي شجرة العنب، وهو ما قصده أبي عند تسميتي، وكان الجميع ينادونني به.. وبكسرها تصبحُ كما ذكرتِ.. وهكذا يتغير مدلول الكلمة بتغير تشكيلها، و ضبط حروفها.

ولقد كان لجدتي نصيبٌ كبيرٌ من اسمها؛ فهي كَرْمَة.. جميلة، سارَّة، حانية، دافئة، معطاء، كشجرةِ العنبِ، بالغة الجود والكرم والنبل والعزة.. فهي كِرْمة.. كريمة.. سخية، نبيلة.

أخذت جدتي عن والدِهَا رقة الحسِّ، و حبَّ الشعرِ والفنونَ الجميلة.. أخبرتني أنها فرحتْ كثيرًا عندما تحوَّل بيتُ الشاعرِ أحمد شوقي بالجيزةِ؛ "كرمة بن هانئ"، إلى مُتحفٍ، افتتح في صيف العام 1977م.. حرصتْ جدتي على زيارته.. أعجبتْ بتمثالٍ برونزي كبيرٍ لشوقي في حديقةِ المتحفِ.. طافت بحجراتِه، وشاهدتْ

---

٢ الرَصِينُ: المحْكَمُ المتعقلُ المتين. ويقصد بالغناء الرصين في هذا السياق : الغناء الراقي الهادئ الهادف، وينطبق ذلك على سائر الفنون.

مقتنياتِ الشاعرِ من كتبٍ، ومن مخطوطاتٍ، ومسوداتٍ لقصائدَ بخط يده، والجوائز والأوسمة وشهادات التقدير التي نالها .... إلى غير ذلك.

واستمعتْ إلى تسجيلاتٍ بصوتِ موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب للأغاني التي نظمها له شوقي.

كانت "كرمتي" تحزن وتنتابها الكآبة كلما قرأت أو سمعت عن تلفِ أثرٍ قديمٍ نتيجة الإهمال، أو اختفائِهِ في ظروفٍ مريبةٍ.. وتغضبُ وتأسى لهدم فيلا أو مبنى تاريخي، وتتحسَّر على ضياع آثارِ مشاهيرِ الأدباءِ والفنانين، على الرغم من وجود قوانين لحمايةِ الأماكنِ الأثريةِ!

التمعت بمقلتيها الدموع عندما هُدمتْ فيلا كوكب الشرق السيدة أم كلثوم في حي الزمالك بالقاهرة.. مرَّت بأنقاضها صدفة.. التقطت كسرة من بلاطة "قيشاني"، احتفظت بها، وكانت تعتز بها كثيرًا.

كانت تردِّد في مرارةٍ: في بلدانِ أوروبا، يجعلون بيوتَ أعلامهم ومشاهيرِهم متاحفَ تخليدًا لذكراهم، وتعدّها الدول المتحضرة من مزاراتِها السياحيةِ، ومصدرًا للفخر و للدخل أيضًا.. وقد يدهش الزائرُ عندما يجد المتحفَ المنشودَ ليس سوى حجرةٍ واحدةٍ متواضعةٍ، عاش فيها رسَّامٌ بارع، أو موسيقارٌ عبقري، أو أديبٌ مُبدع .. بينما في بلادِنا تُهدم قصورٌ تاريخية لعظماءَ، هي آية في الإبداع والفن والجمال، وتغيب عن ذاكرة الأمة، لتقام أبراجٌ سكنية شاهقة و "مولات" تجارية، بدلًا من تحويلها إلى متاحفَ!

كانت شديدة الإيمان بأفكارها تلك، مخلصة لها، وظلت كذلك حتى النفسِ الأخير في حياتها .

كانت كثيرة الترديد لبيتين من قصيدة أحمد شوقي التي كتبها في رثاءِ الزعيمِ الوطني مصطفى كامل:

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلة له ... إن الحياةَ دقائقٌ وثواني

فارفعْ لنفسِكَ بعدَ موتِكَ ذكرَها ... فالذكرُ للإنسانِ عمرٌ ثاني

كنتُ أحسّ أن فكرة الذكرِ الطيِّبِ والسيرةِ الحَسَنةِ تُؤرِّقها، والوفاءِ لكلَّ شيءٍ جميلٍ في حياتها تسيطرُ عليها.. يبرهن على ذلك إبقاؤها على سيارةِ زوجها

القديمةِ، على الرغم من تلقيها عروضًا لشرائها بمبالغَ مغريةٍ، كانت ترفضها جميعًا.. كذلك احتفاظها بتذكاراتٍ كثيرةٍ من الماضي.. وتفسِّرُ أيضًا سعيها إلى أعمالِ البرِّ، ومعاونةِ الآخرين.

لقد كانت هذه السيدة سببًا في تغييرِ مجرى حياتي.

لولاها ما كنتُ وما كنا هنا!

شجرةٌ استوائية!

ـ لا أتصوَّرُ إنسانًا لا يحبّ الشجر!
ـ لن تجدي شجرة دميمة أو نباتًا سمجًا يستثيرُ غضبكِ أو يستفزكِ أو يزعجكِ!
ـ إذا احتجتِ إلى هدوءِ الأعصاب فامسكي يا سهيلة خرطومًا واسقي الحديقة!
ـ ما الربيع إلا شجرة رُمَّان مُزهِرَة!
" من الأقوال المأثورةِ عن جدتي كرمة "

كانت جدتي من أسرةٍ كريمةٍ، وهبها الله سعة في الرزق والعلم.. والدُها الدكتور رامي كامل.. كان طبيبًا، ومن هواةِ الشعرِ.. كانت له محاولاتٌ قليلة في كتابته.. ربما عرضها على الدكتور إبراهيم ناجي ؛ صاحب " الأطلال " .. أشهر قصائده المغناة.. وقد شَدَتْ بها أمُّ كلثوم، وتعدُّ من روائعها كلماتٍ ولحنًا وغناءً.. ما يؤيد ذلك، تردّده إلى مجلة "أبوللو"، وقد كان لها مقرٌّ في شارع " الملك المعز " بضاحية المطرية، بالقرب من بيت أمير الشعراءِ أحمد شوقي.. وكان من أبرز كتابها: الطبيب إبرهيم ناجي، والمهندس على محمود طه شاعر " الجندول "، وشاعر تونس الخضراء: أبو القاسم الشابي.

وعلى الرغم من أن أمَّها كانت سيدة منزل أو ربة بيتٍ، مثل غالبيةِ الزوجاتِ في ذلك الزمن، فقد كانت امرأة عصامية، انكبت على تحصيل العلم، وتثقيف نفسها بنفسِها، فكانت مرجعاً في تفسيرِ القرآن، وروايةِ الحديثِ الشريفِ.. كما درست كتبَ التراثِ في الأدب.. وكان لها مجلسٌ أسبوعي، تجتمع فيه السيدات، فيما يشبه الصالونات الفكرية، حيث يتبادلن الحوارات الثقافية المثمرة.

وسط هذا الجوِّ المفعمِ بالشاعريةِ والجمالِ، وحبِّ العلم، نشأتْ ونمتْ الطفلة كرمة، والتحقتْ بالمدرسةِ، وانخرطت في التعليم.

وفيما يخصُّ مستقبلها المهني، كانت تتنازعها رغبتان: السيرُ في طريق يؤهلها لأن تصيرَ مُدَرِّسَة، أو تكون طبيبة.. كانت تستحضرُ صورة والدتِها في "الصالون الفكري"، والنسوة ينصتن إليها في شغفٍ وإعجابٍ، ويحاورْنها، فتراها أقربَ إلى نفسِها.. ربما كانت شاعريتها، و رهافة مشاعرها، وخشيتها من رؤية الدم، وسماع

أنين المتوجّعين، وآهات المتألمين، سببًا محتملاً في عزوفها عن دراسةِ الطبِّ.
صارت تحلم بأن تكون مُعَلمَة في مدرسةٍ، تدرِّسُ العلمَ للتلاميذِ، لا طبيبة في مستشفى، تعالج المرضى، كما كان يتمنى والدُها.
التحقتْ بمدرسةِ المعلماتِ، وتخرجت فيها، وإن صرَّحتْ لي بأن حنينها إلى دراسةِ الطبِّ ينتابُها أحيانًا.. قالت لي يوماً: الطبُّ مهنة سامية مقدَّسة، والطبيبُ النابغ القنوعِ ذو القلبِ الرحيمِ، يرقى درجاتٍ فوق البشر.
قلتُ لها: والمدرسُ أيضاً.. ألم يقلْ شوقي:
كادَ المعلمُ أن يكون رسولا
عملتْ جدتي معلمةٍ لسنواتٍ قليلةٍ، ثم استقالتْ، وابنتها مي لا تزال رضيعة تحبو.. عللت ذلك بأن ولدها الكبير " مكرم " كان كثيرَ المرضِ منذ مولدِهِ؛ لضعفِ مناعتِهِ وبِنيته، وقد هدَّد المرضُ حياته، وأمسى على شفا الموتِ ذات مرَّةٍ.. أدركت أنها لن تقوم بواجبات عملها بالقدْرِ الذي يرضي ضميرَها، لانشغال بالها بولديها، وقلقها وخوفها الدائم عليهما.. ارتأتِ الاستقالة من مهنةِ التدريسِ؛ كي تبقى بجوارهما، و ترعاهما رعاية كاملة.
سألتها يومًا إن كان لجدي الدكتور فهمي دورٌ في تركها العملَ.. أكَّدتْ لي أنها اتخذتْ قرارَها الصعب بإرادتها الحرَّةِ عن اقتناع تام، وما دامت قد قررتْ فلا سبيل إلى التراجع.. ولا دخل لزوجها في ذلكَ، فقد كان من المؤيِّدين لتعليمِ المرأةِ، و خروجها إلى ميدانِ العمل.
فضلتِ جدتي التفرغ الكاملَ لبيتها، وتوجيه كلِّ طاقتها للعناية بزوجها، وولديها مكرم، و مي.. أمي.. وقد أسمتها بهذا الاسم، ولعًا بالأديبةِ اللبنانيةِ الآنسةِ مي زيادة ، التي كان لها صالون أدبي، عُرف بصالون الثلاثاء، يقصده الجهابذة من الأدباءِ والعلماءِ والمفكرين ورجال السياسة.
و لم تضعْ تضحيتها بوظيفتها من أجل ولديها هباءً.. فقد قويتْ صحة خالي مكرم و صار فتى صحيحَ البدن، عاليَ الهمَّة، متوقدَ الذكاء.. تعلم وتفوَّقَ وتخرَّج في كلية الهندسة.. ومنذ ذلك الوقتِ وهو كالطائر المهاجر.. سافر إلى أوروبا لاستكمال دراسته في مجال الطاقةِ، والبحثِ عن وظيفةٍ ترضي طموحه للبحثِ

والابتكارِ.. استقرَّ به الحال في كندا.. يقيم الآن في مونتريال إقامة دائمة، ويشغل منصبًا محترمًا في مؤسسة تعمل في مجالاتِ الطاقةِ، و يزورنا على فتراتٍ متباعدةٍ.
أما والدتي مي فقد اختارتِ العلومِ الاجتماعية طريقا لها، وهي الآن أستاذ لعلم الاجتماع بكلية الآداب.
تزوجت جدتي من الدكتور فهمي الفرماوي، الذي صار أستاذاً للعقاقيرِ والنباتاتِ الطبيةِ، ورئيساً للقسم بكليةِ الصيدلةِ.
ولزواجها قصة طريفة روتها لي:
كان الدكتور فهمي شغوفا بالأشجارِ والنباتاتِ بحكم المهنة.. لم يكن غريبًا أن تراه ينعطف نحو نبتةٍ بريةٍ تنمو على جانب الطريق، أو تطلّ من سياجِ حديقةٍ، أو تنبثق من فجوةٍ في رصيفِ الشارع، فينحني عليها، يتفحَّصها بتأنٍ، وغالبًا يتعرَّفها، ويذكراسمها، ومحتواها من الموادِ الفعَّالة، ويعدِّدُ فوائدَها العلاجية.. وإن لم يكن صادفها من قبل، فسيأخذ عينة منها؛ ليبحث عن اسمها، وفصيلتها، وعائلتها النباتية، في المراجع العلمية، ويجري عليها تجاربَه، وقد يعودُ إليها المرَّة بعد المرَّة!
وحدث أن كان في زيارةٍ لقريبٍ له، ومرَّ ببيتِ أسرةِ جدتي في هدأةِ الأصيلِ.. استلفته شيءٌ، فتوقف عن المسير، وتسمَّر أمام البيتِ محدِّقا كالذاهلِ إلى شيءٍ ما.. كانت الفتاة كرمة جالسة في "الفراندة "المستترة وراءَ الغصون.. لمحته فاستغربتْ وانزعجتْ من وقفته المريبةِ.. أيكون لصًا يخطط لسرقةٍ ما؟ ولكن كيف؟! مظهره الأنيق يشي بأنه شابٌ محترمٌ، يوحي وجهه الوسيم بالطيبةِ والوداعةِ.. يبدو أنه أحسَّ بأن أحداً يراقبه، أو شكَّ في ذلكَ، فخجل، وعاود السير، واختفى عن الأنظار.
تناستْ كرمة ما حدث، ولم تبحْ به لأحدٍ من أسرتها؛ حتى لا تثيرَ مخاوفهم وتربكَهم على غير يقينٍ.
ولما تكرر ذلك في اليوم التالي، في الموعد عينه، أسرعت كرمة إلى أمِّها تخبرها بالأمرِ، فتعجبت من أمرِ هذا الشابِ.. أبلغتِ الأم زوجها بما حدث، فتوعَّده، وأمر زوجته بإعلان حالةِ الطورائِ في البيتِ، والترصّد لهذا الفضولي الجريء، الذي يتجسَّسُ على بيوتِ الناس، لغرضٍ في نفسِه!

قبيل غروب شمسِ ذلك اليوم، صلصل الجرسُ النحاسيّ الصغيرُ المعلقُ بالباب الخشبي الخارجي، معلنًا قدوم زائرٍ.. فوجئ الجميعُ بجارهم الأستاذ فايز الفرماوي المحامي، يدخل الحديقة بصحبةِ أحد الشبانِ.

لم يسبق للأستاذ فايز زيارة الدكتور رامي في البيت، وإن كان قد قصدَ عيادته مرتين أو ثلاث منذ وقتٍ بعيدٍ.. من يكون ذاك الشابُ الوسيمُ القريبُ الشبهِ به؟ وأي صلةٍ تربطهما؟ أيكون أحدَ أقربائه؟ وماذا يريدان؟

تطلعت نحوه العيون، تسترقُ إليه النظراتِ من وراءِ الحُجب.. ياللعجب! كان هو الشاب المقصود بالرصدِ والوعيد! هذا ما حرصت كرمة على تأكيده لأمها، وأسرَّتْ به الأمُّ بدورها إلى زوجها.

استقبل والدُ كرمة الضيفين بترحابٍ، وهو في حيرةٍ من أمرِه.. جلسوا على مقاعد الكوخ الخشبي الذي تنسدل عليه شجرةُ لبلابٍ، وتقفُ على مدخلِهِ حارستان أنيقتان من نخيلِ الزينةِ.

بعد لحظاتِ صمتٍ، ابتدره جارهم بالحديثِ، فقدَّم الشابَ المصاحبَ له:

ـ الدكتور فهمي ابن شقيقي فريد الفرماوي رحمه الله.. مدرس في كلية الصيدلة!

رحَّب به الوالدُ وهو متوجس من هذه الزيارةِ غير المنتظرة.. وزاد من دهشته أن الضيفَ الشابَ كان قلقًا، كثيرَ التلفتِ، و اختلاس النظراتِ عبرَ فتحاتِ الكوخ إلى شيءٍ ما يثيرُ اهتمامه!

قال الأستاذ فايز:

ـ لن أضيع وقتك يا جاري العزيز.. بدون مقدماتٍ... ابن أخي الدكتور فهمي يقصدكَ في شيءٍ.. فهل تسمح به؟

تعجب الوالدُ.. ذهب تفكيره مذاهب شتى.. كان أقربَ الاحتمالاتِ أن الموضوعَ يتعلقُ بطلب زواج، لأن لديه بنتًا في سن الزواج.. استعد لردٍّ محايدٍ يتفادى به حرجَ الموقف، ويخرجه مما ظنه ورطة، حتى تنجليَ له الأمورُ و تستبينَ.

أشار الجار إلى ابن أخيه بالحديث.. قال فهمي في أدبٍ جمٍّ:

ـ عمي الأستاذ فايز شجَّعني على المجيءِ إلى حضرتكَ وأزال عن نفسي أي تردُّدٍ بحديثِه الطيِّبِ عنكم!

حثَّه عمُّه على التصريح بما يريد قائلاً:
ـ الدكتور رامي رجل كريم مفضال مثل أبيكَ تمامًا ولن يرفض لك طلبًا!
قال فهمي في شيءٍ من الاستحياءِ:
ـ أرجو أن تسمح لي يا دكتور بزيارة حديقتكم عدة مرات.. في الوقت الذي يناسبكم!
وجم الدكتور رامي من دهشته لهذا المطلب الغريب.. أسرع فهمي بإيضاح السبب.. لقد شاهد من خلف سياج الحديقة نباتًا مهمًا لا ينمو إلا في المناطق الاستوائية من قارة أفريقيا، واكتشف وجودَ أشجار أخرى نادرة في أثناء جلسته بالكوخ، تغريه بإجراء أبحاثٍ شاملةٍ عليها.. لا يكفي أخذ عيناتٍ منها.. يريد أن يتابع نموَّها، وتكوُّنَ أزهارها وثمارها، ويدرسها على الطبيعة.. لذا قد يستوجبُ الأمرُ بضعَ زياراتٍ!
أخيرًا تنفَّس الدكتور رامي في ارتياح، ووافق على طلبه لعدَّةِ أسبابٍ؛ فلم يكن ليردَّ أحدًا وسيطه جارٌ محترمٌ حسنُ الخلق كفايز المحامي.. كما أن فهمي صيدلي، ينتمي إلى المهن الطبية، ويعدُّ زميلاً صغيرًا له، توجبُ عليه الزمالة مساعدته، وقد يكتشفُ علاجًا لمرض خطيرٍ في شجرةٍ من أشجار الحديقة، فينال في الحالتين شيئًا من ثواب الله بصفته صاحبَ الحديقة.. إلى جانب أنه كان يؤمن بالعلم، ويتحمَّس لطلابه، وقد أعجب إعجابًا شخصيًا بفهمي، وتوقع له مستقبلاً مشرقا؛ لجدِّيتِهِ وسعيه الدؤوب في طلبِ العلمِ، ولو في حديقةِ جيرانِ عمِّه!
انطلق الدكتور رامي يفضفض معه في الكلام.. أخبره أنه اشترى هذا البيت بحديقته وأشجاره العجيبة من صيدلي أرمني، كان من هواة استجلاب النباتات، بخاصةٍ الطبية، من أصقاعٍ و بيئاتٍ مختلفةٍ، وزراعتها في الحديقة؛ ليحضَّرَ منها الخلاصاتِ، ويستخدمَها في تركيب الأدوية لعملاءِ صيدليته.
رتب أحمدُ الشقيقُ الكبير لكرمة مواعيدَ الزيارة مع فهمي؛ ليكون في استقباله عند مجيئهِ، وأداءِ واجبِ الضيافةِ له.
نشأت صداقة بين الشابين أحمد و فهمي، وشاءَ اللهُ أن يصيرَ الدكتورُ الباحثُ زوجًا لأخته كرمة.. يسَّر الله لهما الظروف، إذ رآها مصادفة وهي عائدة من

عملها إلى البيت، فأعجبته، وتقدم لخطبتها.. رحَّب أبوها وقبل مسرورًا.. عُقد القِرانُ وزُفت العروسُ الحسناءُ إلى زوجِها في حفلٍ بهيجٍ.
كانت زيجة مباركة.. فتح الله على الزوج، فترقى في عمله، واتسعَ رزقه.. اشترى مساحة رحيبة من الأرض في الضاحية الراقية الحديثة في ذلك الوقت: مصر الجديدة.. شيد عليها " فيلا " كالقصر من ثلاثة طوابق، وترك فراغًا واسعًا من حولها ليكون حديقة.. خصَّص قسمًا كبيرًا منها لمزرعةٍ تجريبيةٍ، جلب إليها النباتات النادرة من حديقة صهره، واستنبت البذور من مختلف أرجاء الدنيا.. ومن الطريف أن جدتي الخفيفة الظل كانت تتندرُ قائلة: "زادت الكَرْمَاتُ واحدة بـ "كرمة الصيدلاني".. تقصد طبعًا فيلا زوجها الدكتور فهمي الفرماوي.
تلك كانت قصة زواج كرمة بالدكتور فهمي.. أستاذ العقاقير والنباتات الطبية.. أذكِّر جدتي بها، فيعروها الحياءُ، وتعبر بوجهها تلك الابتسامة المتخفية الخجلة، وتهمس:
ـ أحيانًا يُخيَّل لي أن الدكتور فهمي رحمه الله ما تزوجني إلا من أجل تلكَ الشجرةِ الأفريقيةِ الاستوائيةِ!
أضحت حديقة جدتي في مصر الجديدة مرتعًا لأحلامي، ومَرقصًا لتصوَّراتِ خيالي، وملتقى أترابي.. أتاحت رحابتها تنوعًا مدهشًا في مزروعاتها، وحُسنًا في توزيعها وتنسيقها.. يمكن القول بإنها حديقة عالمية.. غابة مصغرة بحقٍّ.. تحوى نباتاتٍ تنتمي إلى مختلف الأقاليمِ المناخيةِ في العالم: من صحراويةٍ واستوائيةٍ ومداريةٍ.. معتدلة وحارة وباردة... اجتهد جدي في استجلابها، وثابر على رعايتها والعناية بها، وتهيئة الظروف الملائمة لنموها باستخدام الصوبات.. كنت ترى فيها نباتاتِ الصبار بأنواعها، و نخيل الدوم وجوز الهند، وشجر الخروب، واللوز، والبندق... وغيرها الكثير.
كان لا بدَّ لهذه الخمائل من أن تستهويَ الطيورَ من شتى الأنواع والأشكال.. الآبدة؛ أي المقيمة، والمهاجرة.. عصافير مختلفة وبلابل وهداهد.. يمام و أبو قردان وأبو فصادة وغربان.. إوز بري وببغاوات.. تهدلُ و تغرِّدُ وتصدحُ وتتصايحُ، لتصنعَ "سيمفونية " عجيبة الأنغامِ.
كان يطيبُ لي مشاهدةَ الطيور تهبط على حواف البركة الاصطناعية، أو تسبح في

مائها، أو تنفض ريشها المبلل المنتفش تحت أشعة الشمس على شاطئها.. لا يملك كل من تقع عيناهُ على هذه المناظرِ الخلابةِ، ويسمع أغاريدَ الطيورِ، غير الهمس في خشوع: سبحان الله! تبارك الله أحسن الخالقين!

كانت أشجارُ تلك الحديقةِ يبصرها السائرُ من مسافةٍ بعيدةٍ.. لم تكن العماراتُ العالية، والأبراجُ الخرسانية قد ظهرت بعد، لتحجبَ جمالَ الطبيعةِ، وتحبسَ الهواءَ.. كان يميزها صبارُ "السجوار" العملاقُ المعمَّرُ، الذي يصل لارتفاع يناهز العشرين متراً، و يتفرع عندما يبلغ عمره خمسين عاماً أو يزيد.. فيخالُ الناظر إليه أنه يمشي في صحارى المكسيك، أو ولاية أريزونا بالجنوب الغربي لأمريكا!

وبوفاة جدي فهمي، وتقاعد عم " خضير " البستاني؛ لكبر سنه، وتكالب أمراض الشيخوخة عليه، ومع تدهور صحة جدتي كرمة، وقلة خبرة من جيء بهم للعناية بالأشجار ـ وبخاصة أنها تحتاج إلى عنايةٍ معينةٍ ـ ساءَتْ حالُ الحديقةِ، وبدا عليها الإهمال جليًّا.. جفت غالبية الأشجار النادرة بمرور الأيام ويبست وماتت وصارت هشيمًا.. وهناك من فسَّروا الموضوع تفسيراً " ميتافيزيقيًّا "[3]متعلقاً بالغيبيات.. فقالوا: " ماتت الأشجار حزناً على فراق أصحابها ".. وذكروا حالاتٍ مشابهةٍ عديدةٍ!

أمَّا الطيورُ والفراشاتُ فتناقصت أعدادُها، وأوشك بعضها على الانقراض؛ لندرةِ الشجر، واندثار المساحاتِ الخضراءِ، واستعمال المبيداتِ الحشريةِ السامةِ في رشِّ الحقول، وتلوث البيئة بالدخان وعودام السيارات والمصانع.

أهمِلَتِ البِرْكَة كذلك حتى جفَّ ماؤها.. لم يبقَ في "غابة" جدتي غير العصافير، وأبي قردان، والغربان، وقد تجد هدهداً عابرًا، أو بلبلاً شاردًا يصفّر وحيدًا، أو كروانًا سهرانَ يؤنس السمَّار بتسابيحه السماوية.

3 الميتافيزيقيا: علم ما وراء الطبيعة، ويتناول دراسة الأشياء و الظواهر الغريبة والخارقة التي لا تخضع لقوانين الطبيعة. ومن أمثلةِ ذلك: أن يفكر شخصٌ بصديقٍ له لم يره منذ زمن طويل، فيجده أمامه في الطريق.

بَيْنَ المَعْمَلِ والمُصَلى

رزق الله أبويَّ بسهيلة.. أنا.. الابنة الوحيدة لهما.. أمي الدكتورة مي فهمي الأستاذ بكلية الآداب.. والدي المستشار سامي سعد الدين.. يعمل في السلك القضائي.. تدرَّج فيه من وكيل نيابة، فقاضٍ، ثمَّ رئيس محكمة.

تعلقتُ بجدتي منذ وعيتُ على الدنيا.. هي كذلك أحبتني كثيرًا، وكانت تتمسك ببقائي معها.. وقد هيَّأ لي انشغالُ والدتي بالعملِ الجامعي فرصة كبيرة للإقامةِ مع جدتي فتراتٍ طويلةٍ.. هكذا قضيت طفولتي متنقلة ما بين فيلا مصر الجديدة، و شقة والدي في حي منيل الروضةِ العريق.

استهواني مُقَامُ جدتي في مصر الجديدة.. بهرني المكان بكلِّ ما فيهِ، وما حوله.. مرَّتِ السنون وتبدلت معظم معالمه القديمة.. لا تزال تحتفظ ذاكرتي بالمعالِمِ المندثرةِ، ومواقعها وهندستها، فهي قائمة عامرة بناسها وأشيائها في خاطري.. كم يستحضرها خيالي: مساحة واسعة.. تتجاوزُ ستة آلاف من الأمتارِ المربعةِ، أي نحو الفدان ونصف الفدان، اختارها جدي على أطراف مصر الجديدة، المنطقة الحديثة النشأة في ذلك الزمن.. اشتراها بسعرٍ زهيدٍ، لا يتجاوز جنيهاتٍ قليلةٍ للمتر المربع الواحد.. تطل على شوارعَ من الجهاتِ الأربع.. مقسَّمة إلى ثلاثة أقسام متساوية تقريبًا.. الثلث الأول تتوسطه الفيلا تحيطها الحديقة، ويشمل إلى جانب ذلك الجراج وبعض الملحقات.. الثلث الثاني امتدادٌ لحديقة البيت، ويحتل مُصلَّى جدي فهمي مستطيلاً صغيرًا منه، يشرف على البركة الاصطناعية الصغيرة.. أما الثلث الأخير فمنفصلٌ بسورٍ، ويكاد يكون منعزلاً، و قد خصصه جدي لمزرعةِ النباتاتِ الطبيةِ.. ولهذا المكان أربعة منافذ؛ واحد على كلِّ شارعٍ.. تقع حجرة عم شبيب البواب إلى جوار البوابة الرئيسة المشرفة على الشارع العمومي، وهو أكثرُ الشوارع الأربعة اتساعًا وضوضاءً، و هذه البوابة مخصصة لدخول الضيوف، و للزيارات الرسمية، أما نحن فاعتدنا استعمالَ البابِ المطل على الشارع الخلفي الصغير، الواقع في الجهة الغربيةِ، وكنا نؤثرُه على الأبواب الأخرى؛ لاستغراقِهِ في السكونِ، ووقوعِ سكنِ مدام أفروديت قبالته.

كنتُ عندما أطوفُ بحجراتِ الفيلا الواسعة الكثيرة، أخالني في "قصر التيه" الذي يتوه سالكُه بين ممرَّاته وغرفه.. صعدتُ يومًا في درجها الخشبي، يسوقني حبُّ استطلاع بنتٍ تخطتِ السادسة من عمرها بقليلٍ.. استقبلتني رائحة عاطرة خافتة عند بلوغي الطابق الأخير، وكان مهجورًا تقريبًا، كأن هناك اتفاقًا خفيًّا بين سكان البيت على حظرِ الصعود إليه!

استثارت تلك الرائحة ذاكرتي الشميَّة، فتذكرتُ رائحة أخلاط المساحيق التي تضعها "قشطة" الطباخة في المأكولاتِ.. كانت رائحة التوابل والبهار.. وجدتُ بضع خزانات خشبية على جانبِ الطرقة، تلوح من وراءِ زجاجها أوانٍ زجاجية، فيها بذورُ نباتاتٍ، و أوراقُ شجرٍ، وأزهارٌ، و شظايا صغيرة من أخشاب.. كان لكلٍّ "برطمان" منها بطاقة، عليها كتاباتٌ غريبة، بدت لي طلاسمَ مبهمة.. واصلتُ السيرَ.. دخلت إحدى الحجرات.. أبصرتُ أشياءَ زجاجية فوق منضدةٍ طويلة، لم أعرف أسماءها إلا بعد أن كبرت ودرستُ مادة العلومِ.. كانت أدوات معملية: أنابيب اختبار.. دوارق مختلفة الأشكال والأحجام منها المخروطي والكروي.. أنابيق وسَحَّاحَات وأقماع.... أجهزة مختلفة كالميزانِ الحسَّاسِ والميكروسكوب.

أدركتُ فيما بعد أن هذه الأدوات تستعمل في العملياتِ الكيميائيةِ من تقطير، وتكثيفٍ، واستخلاصٍ للمركبات وفصلها، و معايرتها أي تحليلها لمعرفة تركيزاتها.. ويستخدم الميكرسكوبُ في فحص العينات، ومعرفة التركيبِ الدقيق لأنسجةِ النباتِ. شاهدتُ ايضًا عشراتٍ من الأوعية الزجاجية والقوارير مصفوفة فوق الرفوف.. لا يزال في داخل بعضها بقايا مساحيق شبه متحجِّرة، أوقليلٌ من سوائل ملونة توشكُ على الجفافِ، أو تحتوي على شيءٍ من آثارِها.

رأيتُ على الجانبِ الآخر مكتبًا أبنوسي اللون، عن يمينه وشماله مكتبة، تمتلئُ بالكتب والمجلدات والأوراق المخطوطة ودساتير الأدوية.

افتقدتني جدتي كرمة.. فزعتْ وانطلقتْ تبحثُ عني بمشاركة " قشدة" أو كما نناديها " قشطة "؛ الطاهية السمراء البدينة، وأم جيهان خادمة البيت.. عثرْن عليَّ في المعمل.. عاتبتني جدتي لأنني لم أستأذنها قبل الصعود، ثمَّ قالت في صوتٍ حزينٍ:

ـ هذا معمل الدكتور فهمي.. جدكِ يا سهيلة!
علمتُ منها أن هذه الحجرة كانت مختبرًا لزوجها، يجري فيها أبحاثه على النباتات الطبية والأعشاب، التي يغرسها في مزرعةِ البيتِ.. تضمُّ كذلك مراجعَ علمية، وموسوعاتٍ، وروياتٍ أدبية، ودواوين شعر، وكتبًا دينية، تدل على تنوع قراءاتِ جدي، واتساع ثقافته.. بالإضافة إلى مؤلفاتِهِ الخاصةِ في علم العقاقير والنباتات الطبية، ومخطوطات علمية بخط يده، تحتوي رسوماتٍ لأجزاءَ نباتيةٍ.
وفي اثناءِ عودتنا استوقفتها أمام الخزانات، واستفسرتُ منها عن محتوياتِها.. كانت جدتي تلمُّ بمعلوماتٍ وافرةٍ عن النباتاتِ الطبيةِ، اكتسبتها من معايشتها لجدي وعِشرَتِهِ.. أخبرتني أن تلك الأواني تحوي عقاقيرَ أصلها نباتي، مصدرُها مختلف أجزاء النباتات.. من جذورٍ وأوراق وأزهار وثمارٍ و بذورٍ، ومن خشب الشجر ولحائه.. ورقة البلادونا أو ست الحسن.. زهرة البيرثروم االقاتلة للحشرات.. لحاء أو قشور شجرتي الكينا والقرفة.. ثمار الحنظل والشمر والكراوية.. جذور نبات العرقسوس... وهكذا.
وعن حياة جدي بعد إحالته إلى المعاش، قالت جدتي: إنه كان يقضي معظم يومه بين مزرعته، ومصلاه الذي أقامه في الحديقة، وكان يذهب إلى كليةِ الصيدلةِ مراتٍ قليلة كل شهر؛ ليلقي محاضراتٍ على طلابِ الدراساتِ العليا، أو في أثناءِ الامتحاناتِ الشفويَّةِ لطلبة الكلية.
كان جدي يعشق قريته ومسقط رأسه، وصرَّح بأنه جعل مُصلى الفيلا صورة مطابقة لمصلى القريةِ على شط الترعة، لأنه كان يشعر فيه براحة النفس والخشوع والسكينة، حين يجلس متأملاً أسرابَ البط والإوز السابحة على صفحة الماء.
كان يبدأ عمله في الضحى، و بعد قضاء بضع ساعاتٍ في المزرعة، يحمل العينات النباتية التي جمعها، و يصعد إلى معمله ومكتبته.. يبقى ساهراً بين أنابيقه وقواريره حتى أذان الفجر.. فيصلي ويمضي إلى الفراش.
كان يدعو الله سبحانه وتعالى على الدوام أن يلهمَه علمًا ينفعُ به الناس، ويهديَه إلى اكتشاف ما يشفيهم، ويخفف من مواجعهم.. لم يكنْ ميالاً إلى الشهرة، ولا متكالبًا على الاستزادة من مالٍ أو جاهٍ.. ظل طالبَ علمٍ حتى الرمق الأخير،

لا يبتغي من عمله إلا وجه ربه ذي الجلال والإكرام.. ألهمه الله عديدًا من الاكتشافات العلاجية المهمة.. فاستخلص من نباتٍ مادة تحمي الكبد من تأثير الفيروساتِ الكبديةِ، ومن بذور شجيرة دواءً يمنع الجلطاتِ الخطيرة.. ومن مجموعة أعشابٍ علاجًا لحصى الكلى، واهتدى إلى عقارٍ يقتل بعض الديدان الطفيلية الخطيرة كالبلهارسيا.

اعتكف في أواخر أيامه، ولزم بيته، وقد تملكه الحزن،وسكنته الكآبة؛ فأبحاثه الجادة الممتدة على مدى السنين، واكتشافاته المهمَّة تضيع سدى.. كم تواصل مع شركاتِ الدواءِ المحلية للاستفادة من الأدويةِ التي اكتشفها، وثبت بالتجارب التي أجريت وفقَ الخطوات العلمية المعترف بها، وبمشاركة أساتذة الطب، فاعلية تلك الأدوية، وعظيم نفعها، لكنه لم يشهد في أثناء حياته خروج واحدٍ منها إلى سوق الدواءِ.. رفض الدكتور فهمي عروضا انهالت عليه من شركاتِ دواءٍ ألمانيةٍ وإيطاليةٍ وسويسريةٍ وأمريكيةٍ، تعرض عليه الأموال الطائلة، مقابل إنتاج مكتشفاتِهِ الدوائيةِ فى مصانعِها.. كان دائماً يردد: " وطني أولى بها من الأجانبِ".

استشعرتْ جدتي تباطؤَ المسؤولين في بلدنا وتراخيهم، بل واصطناع العقباتِ من بعض أعداءِ النجاح ووضعها في طريق زوجها.. أحستْ بتدهور الحالة النفسية له، كأن حبلاً من الإحباطِ يسحبُه في صمتٍ نحو حافةِ القنوطِ[4].. أشفقتْ عليه.. و كانت ذاتَ عواطفَ إنسانيَّةٍ نبيلةٍ تجاه البشر جميعًا؛ فاقترحت عليه السماح لإحدى الشركات العالمية باستخدام اكتشافاته، وإعطائها حق إنتاج أدويته ولو بدون مقابل؛ لتفيدَ منها البشرية قاطبة.

ثبتَ جدي على مبادئِه.. كان يرى أن الأمراضَ التي تعالجُها العقاقيرُ المكتشفَة أوسع انتشاراً في بلادنا، تصيبُ أعدادًا كبيرة من الناسِ بخاصةٍ الطبقاتُ الفقيرةُ.. وتكاد أن تكون " متوطنة " فيها؛ ولذا ركز اهتمامه في البحثِ عن علاجاتٍ لها.. كان يخشى أن تحتكرَ الشركاتُ الأجنبية الكبيرة تصنيعَ تلك الأدويةِ، ونصبح تحت سيطرتها، تمنعها عنا وقتما تشاء، أو تبيعُها لنا بأسعارٍ باهظةٍ، لا يقدر على شرائها المرضى الفقراء، وتجني من ورائها المكاسب الهائلة.. كان يمقت المتاجرة

---

4 القنوط: اليأس الشديد

بآلام المرضى والتلاعب بهم.. قال إنه يرحِّب بانتفاع كل بلادِ العالِم بدوائه، بشرط أن تتولى إنتاجه أوَّلاً شركة وطنية، توفره في السوق المحلي بسعرٍ رخيصٍ، وتعطي تصريحًا بصنعه للشركاتِ الخارجيةِ.

لم يعشْ جدي ليرى ثمرة جهوده، وبعد أن لقي ربَّهُ، انتجت إحدى الشركاتِ الأجنبيةِ واحدًا من اكتشافاته العلاجية، ولكن منسوبًا لأستاذٍ جامعي من معاونيه، يجيدُ السير في الطرقِ الملتويةِ، سبق أن شاركهُ في إحدى مراحلِ الدواءِ التجريبيةِ.

ملأتْ صورُ ذلك الأستاذِ المدَّعِي الذي استباحَ جهودَ غيره الجرائدَ والمجلاتِ.. وظهرَ على شاشاتِ التلفزيون، متحدثا بكل جرأةٍ عن اكتشافِهِ المزعومِ.. لم يشرْ من قريبٍ أو بعيدٍ إلى أستاذه.. ثارتْ جدتي على هذا الزيف والجحود.. صمَّمتْ أن تستردَّ حقوقَ زوجها المغتصبةِ.. لم تهدأ إلا بعد أن[5] أثبتت أن الدكتور فهمي الفرماوي هو المكتشفُ الحقيقيُّ للعقار.

كانت جدتي تؤمن ببيت شاعر النيل حافظ إبراهيم:

لا تحسبن العلمَ ينفعُ وحدَهُ ما لم يُتوَّجْ ربّه بخَلَاقِ

وترى أن العَالِم الحق نفسه مليئة بالخير والنزاهةِ والاستقامة وحبِّ الناس.. العلمُ بلا أخلاق تدفعه نحو القيمِ النبيلةِ، وتحدُّ من جموحه وميله عن سبيل الرشاد، يصبح شرًّا وبيلاً على الناس، و على صاحبه، في الدنيا والآخرةِ.. ولسوف يسألُه اللهُ يوم القيامة عن علمه.. فِيمَ استخدمه؟ فينالُ عنه الجزاءَ العادلَ.

كانت تعجب من سطو بعض الباحثين على أعمال غيرهم، وتقديمها لنيل الرسائل العلمية، أو اقتباس صفحاتٍ كاملةٍ من مؤلفاتِ الآخرين، دون إشارةٍ الى ذلك.. كانت ترى أن العَالِمَ أو الباحث لا بدَّ أن يتحلى بالأمانةِ العلميةِ، والشفافيةِ، ويقظةِ الضمير، وإلا ما استحق أن يبقى لحظة في محرابِ العلمِ.

---

5 الخَلَاقُ: الحظ والنصيب من الخير.

أفروديت

أغمِضُ عينيَّ.. أعودُ بذاكرتي سنين كثيرة.. أستكمل جولتي في موطن الجمال الذي تفتحت عليه عيناي.. في ركنٍ قريبٍ من البوَّابةِ الخلفيةِ يقعُ "الجراج" أو المِرْأب، حيث تقبع سيارة جدي التي يعود طرازها إلى الثلاثينيات من القرن العشرين.. تذكرني بالسيارات في الأفلامِ القديمةِ.. تلك السيارة كان جدي يستخدمها في انتقالاته، يقودها الأسطى " بطريق " السائق.. يجاورُ الجراج حجرتان؛ إحداهما استراحة السائق، الذي قد تضطره الظروفُ لانتظار جدي لتوصيله إلى ندوةٍ علميةٍ مسائيةٍ، أو اجتماع طارئ في الكلية.. كان بها سريرٌ سِفَري، ودولاب صغير، وشمَّاعة عليها بنطالٌ "كحلي "، وقميصٌ أزرقُ سماويٌّ، وكابٌ أسود.. أما الحجرة الثانية فكانت مخزنًا، يضع فيه عم خضير الجنايني عدته من فؤوسٍ ومقاطفَ ومقصَّاتٍ، ويحفظ فيها شكائرَ السمادِ، ومختلفَ لوازمِ الحديقةِ.

29

نادراً ما كانت تستخدم جدتي السيارة في مشاويرها داخل مدينة القاهرة.. كانت تفضل قطعَ المسافاتِ القصارِ سيراً على الأقدام، وكنت أفرحُ كثيراً عندما نركبُ مترو مصر الجديدة القديم.. كانت جدتي تحبُّ كل ما يسير على خطوطٍ حديديةٍ كالترام والمترو والقطار.. تطربُ لإيقاع عجلاتِه فوق القضبان.

كنا عندما نمرُّ بقصرِ البارون إمبان، وهو تحفة معمارية هندسية بديعة، تستوقفني أمامه؛ لتحدثني عن ذلك الرجل البلجيكي بإعجابٍ وحماسةٍ.. كانت تتحمس لكل صاحب حلم أو مشروع، يسعى إلى تحقيقِهِ بالطرق الشريفةِ المشروعةِ، بغير استغلالٍ، أوعَسَفٍ، أو جَوْرٍ على حقوق الآخرين، بصرفِ النظرِ عن جنسيته.. كانت تقول: هذا الرجل، حوَّل قطعة من الصحراءِ، إلى بقعةٍ عامرةٍ بالجمال، بتأسيسه حي مصر الجديدة في بدايات القرن العشرين، ومدَّ خطوط المترو فيه؛ ليربطه بمناطق العاصمة الأخرى، وبدأ تشغيله في نهاية العام 1910م .

أمَّا السيارة فلي ذكرياتٌ مبهجة معها؛ فقد كانت جدتي تسمح لي بركوبها في المناسبات السعيدة والأعياد مع صديقاتي: بشيرة حفيدة قشطة الطاهية، و جيهان بنت فواكه خادمة البيت.. وميلندا نجلة جارتنا اليونانية مدام أفروديت.. يأخذنا

الأسطى بطريق الصموتُ الرزين للنزهةِ، بعد أن أثقلتْ جدتي كرمة جيوبَنا بنقودِ "العيدية "، وقطع الملبس والطوفي.

أتذكر كيف أصيب الأسطى بطريق بمرضٍ في عينيه، أضعف بصرَه، و انتهى به إلى فقدان الإبصار تمامًا، بعد تدخلاتٍ طبيةٍ لم يُكتَبُ لها النجاح.. تكفلت جدتي بنفقات علاجه، وأعطته مكافأة مجزية، وظلت ترسل له راتبه الشهري في بيته؛ لتجنبَهُ المشقة، يحمله إليه عم شبيب البواب، حتى آخر عمره، و لزوجته من بعده.

أمشي في ظل الخمائل إلى "المصَلى" الذي يقع على الطريق ما بين مبنى الفيلا والبوابة الكبرى، وتليه مزرعة النباتاتِ الطبيةِ.. اختار جدي فهمي هذا المكان المكشوف، الذي تحفه الرياحين والأقاحي، المشرف على البِرْكَةِ، حيث مهبط الطيور للشرب والاستحمام، وفرش أرضه ببُسُطٍ وثيرةٍ، وحدَّدهُ بسورٍ واطئ من الخشب، يجتازه من يريد الدخول إليه بسهولةٍ تامةٍ، مع أنه ترك جزءًا غير مُسَوَّرٍ يمثل بابًا.

كان جدي يقول إنه انتقى هذا المكان للمصلى ليكون وسط الطبيعةِ الجميلةِ، بلا حواجز أو سقف أو جدران، حيث الماء والخضرة والنسيم والسماء والغمام.. ليتوفر الهدوء لمن يصلي، و يتيح له الجلوس بعد الصلاةِ لقراءةِ القرآن، والتفكر في خلق السموات والأرض، وتأمل إبداع الخالق في مخلوقاته جلت قدرته.

أتجاوز المصَلى إلى سور مزرعة جدي، و أسير بمحاذاته.. لم تكن كرمتي لتتركها دون أن تطلق عليها اسمًا، فهي "أيكة الدواء".. وهي فعلاً أيكة لكثرةِ أشجارها والتفافها.. أنعطف.. أتوجه إلى البوابة الرئيسة، تلاصقها حجرة عم شبيب البواب.. أسلم عليه، وأجلس على أريكته الخشبية.. يقص علي ذكرياته، وأيام طفولته في الصحراء الشرقية المطلة على سواحل البحر الأحمر، و كنوز الجبال، والباحثين عن الذهب في الصخور.. أعاود الرجوع.. تغريني الآرائك الخشبية وكراسي البامبو.. أتمدد على أريكة تحت مظلة شجرة الجميز.. تداعبني نسائم العصاري.. يغلبني النعاس.. أصحو على يدٍ صغيرةٍ حذرةٍ، توقظني.. أصحو.. أفرك عينيَّ، أجد أمامي وجهًا أسمرَ باسمًا.. هو نسخة مطابقة لوجه قشطة.. البنتُ بشيرة أتت لتبلغني بصوتها الرفيع أن جدتي تنتظرني لنتناول الغداء معًا.. أسرع إليها.. تجمعنا مائدة طعامٍ واحدة.. أنا وبشيرة وجدتي.

كان لجدتي قلة من الصديقاتِ الأثيراتُ لديها، المقرَّبات إلى نفسها.. لستُ أنسى مدام "أفروديت".. كانت في الأربعين، بادية الحسنِ والأناقةِ.. كانت جدتي تداعبها وتقول لها:

ـ أنت نسخة حديثة من "أفروديت" إلهة الحبِّ والجمالِ في معتقداتِ أجدادِكِ اليونانيين القدماء.. أنت " أفروديت " القرن العشرين!

كانت حفيدة الإغريق[6] متزوجة من مصري اسمه "مينا".. ميلندا بنتهما الوحيدة.. يقيمان في فيلا صغيرة مُستأجَرَة من دورين تقع خلف بيتنا، لا يفصلنا إلا عرض الشارع.. جعلا الدور الأول منها مصنعًا لحياكة ملابس الأطفال، وبيعها بالجملة إلى المتاجر.

كان لقشطة طريقة خاصة في نطق اسم مدام أفروديت.. يبدو أنه ثقيلٌ على لسانها.. كانت تنطقه هكذا:" عفريتيتة ".. كنتُ أستحثها بعبثٍ طفولي، لا يخلو من المكرِ، على ترديدِ الاسمِ الصحيح.. أعيده عليها مرة بعد مرة.. تظل تحاولُ و تتلعثم.. أخيرًا تشيح بوجهها ضَجِرَة وتصيح: ما لي أنا بعفريتيتة؟!.. و تنصرف مهرولة، فتتعالى ضحكاتنا!

كانت مدامُ أفروديت كثيرة التردَّدِ إلى بيتنا بصحبة ميلندا، وكنت أذهبُ لزيارتهما مع جدتي.. كم تبادلتْ وجدتي كرمة التهاني و الهدايا في المناسبات الدينية كشهر رمضان المبارك، و عيدي الفطر والأضحى، والمولد النبوي الشريف، وعيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

كانت جدتي تعدّ قبيل عيد الفطر علبة كرتونية كبيرة تملؤها بالكعك والبسكويت والبتي فور، تغلفها بالورق الفضي، وتلف من حولها شريطا أحمرَ من قماش "الستان" اللامع.. أتقدم " فواكه" وهي تحمل العلبة إلى بيت ميلندا، فتردّ جارتنا الهدية ببضعة فساتين فاتنة من إنتاج مصنعهم، من أجلي و بشيرة وجيهان.

كانت جدتي ترسل إليها ملءَ سلةٍ كبيرةٍ من فاكهة الحديقة في مواسم نضجها؛ مثل التفاح والمانجو، واليوسفي والبرتقال، والجوافة.. وكانت تهدي إليها الورد البلدي الأحمر، لأنها مغرمة به، فعلى الرغم من وجود حديقةٍ في مسكن أفروديت،

---

6 الإغريق: اسم أطلقه العربُ على سكان اليونان القدماء.

إلا أنها صغيرة المساحة، لا تتعدي شريطا عرضه نحو المترين حول المبنى، تحوي شجيراتِ الزينة، وشجرتي نارنج وبونسيانا[7].

ما كان أبرع مدام أفروديت في صنع التورتة والجاتوه والحلوى الأفرنجية.. أخبرتنا أن والدها كان يمتلك مخبزًا و محلاً لبيع الحلوى في مصر الجديدة.

كانت تعد "تورتة" وحلوى أعياد ميلادي.. كانت شموعُ التورتة تزيد واحدة كل عام.. أذكر تورتة الشيكولاتة المزدانة بست شمعات، وفي السنة التالية أطفأنا سبعًا منها تعلو التورتة المتوَّجة بحباتُ الكريز.. وهكذا.. حتى جاء عيد ميلادي الثاني عشر.. ووافق ذاك اليوم بالمصادفة موعد السفر، وكانت أمي قد حجزت تذاكر الطيران، للحاق بأبي في عُمان.

كانت حفة وداع، التورتة فيها على شكل فراشة جميلة، يحمل جناحاها عبارتي: عيد ميلاد سعيد و"هابي بيرث داي تو سهيلة".

تأملت تورتة الفراشة، وسألت نفسي: هل صنعتها مدام أفروديت هكذا لأن الفراشة تطير؟!

بمجرد إطفاء الشموع، تذكرت أن لحظة الفراق تقترب، وأنني سأترك كرمتي.. حبيبتي.. انفجرت باكية، وسالت دموعي.. أسرعت جدتي تحتويني بين ذراعيها وتهدئني.. وتهمس لي: أهذا ما اتفقنا عليه؟ كوني شجاعة!

نزلتُ درجاتِ السلمِ و أنا أعدّ في سرِّي: واحد.. اثنان.. ثلاثة....سبعة.. عشرة... كما كانت جدتي تعدُّ أثناء هبوطها أو صعودها في السلم؛ كي تعلمَني الحسابَ.. أحسُّ أن كل درجة سلم أنزلها تباعدني سنة كاملة عن جدتي.. تذكرتُ أيضًا أني سأفارق صاحباتي: بشيرة وجيهان وميلندا.. ومدرستي.. وزميلاتِ الفصل.. بكيتُ مرة أخرى.. كدتُ أتراجع أمام عربةِ الفراق وأفرّ منها، لولا ابتسامة جدتي، وإشارتها لي بقبضة يدها أن تماسكي، و تشجَّعي!

وجدتني أركب السيارة إلى جوار جدتي في المقعدِ الخلفى، بينما تقودُها مدام أفروديت، وبجانبها أمي .. لحقت بنا ميلندا وفي يدها المندولين.. كانت أوَّلَ مرَّةٍ

7 البونسيانا: شجرة جميلة ظليلة من أشجار الزينة، تزرع في الحدائق والشوارع، تتميز بأزهارها الشديدة الحُمْرَة.

أبتعدُ فيها عن جدتي وأمضي إلى بلدٍ بعيدٍ.. ستفصلنا بحارٌ وصحارى وجبالٌ ومدنٌ عن الوطن، بكلِّ ما تعنيه كلمة وطن!

وكما كانت مدام أفروديت تفرح لأفراحنا، كانت تشاطرُنا الأحزان.. كنت لا أزال صغيرة في الخامسة أو أقل عندما ماتَ جدي فهمي.. لا أزال أجهل أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون، واقتضت حكمته أن يقومَ على ثنائيات من الأضدادِ.. الليل والنهار.. الورد والشوك.. الفرح والحزن.. تلوح في خيالي صورة بعيدة.. بعيدة.. باهتة.. مهتزة لمدام أفروديت وهي متشحة بالسواد.. تمسح دموعها بمنديل صغيرٍ في يدها، وسط جمع من السيداتِ، كلهن في ملابس سود.. كانت السيادة كلها في ذلك المساءِ الحزين للون الأسود.. جئن لتعزية جدتي في وفاة زوجها الدكتور فهمي.. انصرف الجميعُ، واحدة بعد أخرى، وبقيت الجارة اليونانية الحنون مع جدتي وأمي حتى اقتراب الفجر، تواسيهما وتخفف عنهما.. وظلت مدام أفروديت ترتدي الحدادَ فترة طويلة.

تمضي الأيام، ويتبدَّلُ اللون الأسود، بألوان الفرحة.. تُعلق المصابيحُ في الحديقةِ، وتنطلقُ الزغاريدُ، وتصدحُ الموسيقى.. يقبل المدعوون بهداياهم.. بينهم مدام أفروديت و ملينداً.. يهنئني الجميع بحصولي على بكالوريوس الطب بتقدير عالٍ.. ثم يأتون ثانية، وأنا في ثوب الزفاف الأبيض، لتقديم التهاني للعروسين: الدكتور سامر حسين وعروسه الدكتورة سهيلة سامي، ومرة أخرى يفدون مسرورين للاحتفال بسبوع مولودتي "كرمة " الصغيرة.. وفي كلِّ مناسبةٍ يبتهج قلبُ جدتي وينشرحُ.. فما أرحمكَ ربي وما أكرمكَ!

مُعلّمَتي الأولى

ظلت علاقة أبي المستشار سامي سعد الدين بجدتي كرمة ـ حماته ـ قائمة على الود والاحترام المتبادَليْنِ، حتى وافاها الأجل.. كانت أقرب إلى علاقة الابن البار بالأم الحانية.. نشأ يتيمَ الأمِ، فكان يناديها: أمي.. عوَّضَهُ اللهُ بها عن حرمانه من أمه الحقيقية.. مازال يذكرها بالخير ويدعو لها بالرحمةِ والغفرانِ والجنةِ.

كان يحلو له ممازحتها، ومناوشتها بالكلام، عندما يراها ساهمة أو مهمومة.. كان يقول لها: " أنت مُدرِّسة بلا مَدرَسةٍ!" أو " مُعَلّمَة من منازلهم"، و بالتعبير القانوني: " معلمة مع إيقاف التنفيذ! "، يقصد أنها لم تستمرَّ في العمل بالتعليم.. كانت تقول وهي تشيرُ إلى قلبها: "أنا مدرستي قلبي".. صدقتْ جدتي فقد كان لها قلبٌ يحتوي الدنيا بأسْرِها.. وكان يقول جادًّا: " لقد خسرَ التعليمُ معلمة مثالية".. تجيب: " أحيانًا تعبرُ بفكري سحبُ الندم.. العمل مهم جدًّا خاصة للمرأة، وإن كانت ميسورة الحال، وغير محتاجةٍ إليه؛ لأن العملَ قيمة عظيمة، يعطي الإنسان الثقة في نفسه، والإحساس بأهمِّيتِهِ في الحياةِ.. ولو كانت صحتي تسمح لفتحتُ دارَ حضانةٍ، أشرفُ عليها بنفسي".. تحتوينا بنظراتها، ونحن متحلقون من حولها . بشيرة وجيهان وميلندا وأنا ـ تقول " الحمد لله على تربية ابني مكرم وبنتي مي.. وهأنذا أجتهدُ مع تلميذاتي النجيبات".

كان لجدتي نظامٌ دقيقٌ في حياتها، بالغُ الرتابةِ والانضباطِ، لا ينكسر إلا لضرورةٍ قصوى.. كانت كساعةِ الحائطِ العتيقةِ ذاتِ البندول، التي هي أول ما يواجه الداخل إلى صالةِ البيتِ.. دائمًا مضبوطة.. لا تقدِّم ولا تؤخر.. كأنها وجدتي على اتفاق.. أحسب أن جدتي اختارت هذا الموضع عن وعي؛ لتنبيهِ الجميع ـ مقيمين و زائرين ـ إلى قيمةِ الوقتِ.

لم يتغيرِّ الحال كثيرًا بعد أن صارتْ أرملة.. كانت تحمل عبئًا كبيرًا في تسيير شؤون المنزل في حياة زوجها؛ ليتفرغ لتلامذته، وأبحاثِهِ، ولكن زادتْ أعباؤها، وتضاعفتْ مسؤولياتها عقب رحيله.

كانت تحرص على القيام في الفجر للصلاةِ.. وفي الصباح الباكر تنزل إلى الحديقة

لتمارسَ رياضة المشي، وتؤدي بعضَ التمريناتِ الخفيفةِ، ومن ضمنها التقاط أوراق الشجر اليابسة، والثمرات المتساقطة من ممرَّات الحديقةِ.. تفعل ذلك لفترةٍ تمتدُّ نحو نصف الساعة؛ استجابة لنصائحِ الأطباءِ، وقد بدأت تشكو من بعض السِّمْنَةِ.. تتخذ بعدها مجلسها المعتاد إلى جوار شجرة الليمون.. تستريح قليلاً.. تأخذ قبل الأكل علاجي السكر، وارتفاع ضغط الدم.. تأتي لها قشطة أو أم جيهان بالفطور: نصف رغيف مع بيضةٍ أو خِرطة من الجبن القَرِيش، وكوب من الشاي الخفيف المحلى بقليلٍ من السكر.. كانت مريضة مطيعة، تمتثل لتعليماتِ الأطباء، وتبتسمُ في رضا قائلة: سمح لي الدكتورُ بكوب شاي خفيف يوميًّا، و بيضتين في الأسبوع!

ولم يتمالك طبيبها نفسه من الضحك، عندما قالت له ذاتَ مرَّة: الحمدُ للهِ الذي ابتلاني بمرضٍ غير مؤلمٍ، اسمه حلو كطعمه.. السكر!!

كم كانت جدتي عطوفًا.. في أثناء تناولها فطورَها، تتوافد إليها جماعة القططِ، التي تتخذ من الحديقة ملاذًا لها.. تطلق عليها جدتي تندُّرًا: قبيلة القطط.. تجتمع كأنها على موعدٍ معها لا تخلفه.. كانت تعرف كل قط أو قطة بصفةٍ بارزةٍ فيه.. تتفقدهم بنظراتها.. فإذا افتقدتْ واحدًا منها سألت: أين "الرزين"، أو لم تحضرِ " الباسمة" أو " ذات الجبهةِ البيضاءِ "... وهكذا.. ومن المدهش أنني كنت عندما أمعن النظر إليها، فأجد الأوصافَ مطابقة لأصحابها تمامًا.. فالقطة " الباسمة "، بالفعل ذات وجهٍ وادع، تظهر وكأنها تبتسم!

كانت تلك القطط متفاوتة الألوان و الأعمار، تنتمي إلى أجيالٍ مختلفة.. تقف في هدوءٍ ورجاءٍ، مشرئبة الأعناق، مرهفة الحواس، تنتظر رزقها من الطعام.. تفتح جدتي اللفافة التي جهزتها قشطة خصيصًا للقطط.. توزع الأطعمة الشهية عليها.. كانت تسعد بذلك وتقول: " من يعلم.. ربما يرزقنا الله من وراءِ هذه القطط".. و كانت تضع لها وعاءً كبيرًا مليئًا باللبن في الحديقة لتشربَ منه.. ومن عجائبِ تلك القططِ أنها كانت تقف في انتظارِ الطعام في أدبٍ شديدٍ، وصمتٍ، فلايصدر عنها صيحة غضب، ولا تتسابقُ على قطعة لحم ألقيت لإحداها.. ولا تخمش إحداها الأخرى زجرًا أو طمعًا في نصيبها من الطعام.. كأنها تدرك بإلهام من الله،

أن ذلك قد يضايقُ صاحبة الدار، وربما يزعجها، فتكف عن تقديم الطعامِ لها، وينقطع الرزق، وتكون العاقبة حرمان الجميع!
تضعُ نظارة القراءة وتتصفحُ الجرائد.. تعيد قراءة جملةٍ أثارت اهتمامها أمامي بصوتٍ عالٍ.. تشيد بمقالة وتذكر اسم كاتبها وتمدحه.. أقرأ تعابير وجهها.. تعبس أو تمتعض لخبرٍ سيِّئٍ.. تمسك بالقلم لتحل الكلماتِ المتقاطعة.. تقول: " إنها رياضة ذهنية مفيدة خاصة لكبار السن، تنشط الذاكرة وتنبه العقل".. أسمعها تكرِّر كأنها تسألني: "كلمة من ثلاثة حروف بمعنى منزل، تبدأ بحرف الباء.. ما هي؟" أجيب:" بيت".. تعود تحدِّث نفسَها بصوتٍ مسموعٍ: "عاصمة عربية.. تنتهي بحرف القاف".. تتظاهر قليلاً بالحيرة.. تكتب وتُسْمِعُني: دمشق.
كانت معلوماتها غزيرة متنوعة، لأنها واسعة الاطلاع، و في اعتقادي أنها كانت تتعمَّدُ رفعَ صوتها عند قراءةِ الصحيفةِ، أو في أثناءِ حل الكلمات المتقاطعة، مع أنها لم تكن في حاجة إلى مساعدةِ من أحدٍ؛ لتستلفت انتباهي، وتشركني في التفكيرِ، وتمدني ببعض المعلوماتِ العامةِ المناسبةِ لسني.
وشبيه بذلك أنها كانت تعطيني النقودَ و تطلب إليَّ قطعَ تذاكرِ المترو، أو محاسبة أحدِ الباعةِ، كبائع الجرائد.. وتسألني كم كان معكِ؟.. وماذا اشتريتِ؟ وكم تبقى معكِ؟.. كانت تريد تعليمي مبادئَ الحسابِ بطريقةٍ عمليةٍ، وإكسابي خبرات التعامل مع الناس، و الثقة بالنفس.
كانت تشجِّعني على قراءةِ اللافتاتِ التي تحمل أسماءَ محطاتِ المترو، ولافتات الدعاية، والإعلانات المختلفة في الشوارع، وتكافئني بقطع الحلوى، عندما أنجح في نطقِ الكلماتِ بطريقةٍ سليمةٍ.
يتواصل برنامجها اليومي.. تتطلعُ نحوَ السماءِ، و تتأمل الحديقة، وظلال الأشياء من حولِها.. تدرك بحدسها أن أذان الظهر يقترب.. تنظر في ساعتها على سبيل التأكد.. تبتسم وتومئ برأسها؛ فحساباتُها صحيحة.. تسوِّي طرحتها وتعيد خصلة من الشعر الأبيض تسللت إلى ناصيتها.. تأخذ عصاها، و تولي وجهها شطر المصلى.. لها هيئة الجدة في شكلها التقليدي النمطي الشائع.. بعكازها، ونظارتها الطبية، وآثار الزمن عليها.. من يرها سيحدث نفسه قائلاً: "جدة

عجوز!" وستتكفل نظراته المشفقة وتعبيرات وجهه الآسفة بتكملة ما لم يقلْهُ.. آه لو يدري بحجم الطاقةِ الرُوحيةِ الكامنةِ فيها، والأملِ المضيءِ المخزونِ في كل خليةٍ من خلاياها!

تبلغ المصلى.. تكنس أوراق الشجر اليابسة التي حملتها الرياح بـ "المقشة البلح "؛ وهي مقشة طبيعية تتخذ من العُرْجُون أي سُباطة النخل اليابسة الخالية من التمر، كانت تستخدم فيما مضى قبل ظهور المكانس البلاستيكية.. يرتفع الأذان من المذياع الصغير .. تصغي إليه وتردِّده خلف المؤذن.. تتوضأ من ماء الصنبور، وإن تكن " على وضوئها" لم تزلْ.. فقد كانت تتوضأ لكل صلاة.. وتقول: "الوضوءُ يزيل أدران الجسمِ و يُذهِبُ الكسل".. تصلي ـ كما تصلي دوماً ـ في خشوعٍ وأناةٍ واطمئنان، وتطيلُ السجود.

كانت تحرص على اصطحابي إلى المصَلى وقد أتمَّمت سنواتي الخمس.. كنت أقلد حركاتِها من ركوعٍ وسجودٍ، مجرد محاكاةٍ ظاهريةٍ، بينما عقلي سارحٌ في نحلة تتنقل بين زهور الأقحوان أو " الكاموميل ".. فإذا تصادفَ وجودُ بشيرة وجيهان، فسينقلب الأمرُ إلى هزلٍ وتهريج.. كانت بشيرة تأتي بحركاتٍ مثيرةٍ للضحكِ في أثناءِ صلاتها الشكليَّةِ.. نتكتم ضحكاتنا قدرَ استطاعتنا، حتى لا نغضب جدتي كرمة.. وفي لحظة تنفلت منا الضحكات المكتومة.. لم تكن جدتي تعاقبنا، أو تبالغ في لومِنا.. كانت توجِّه لنا عتابًا رقيقًا، ونصحًا رشيدًا.. تقول: "عندما نصلي فإننا نقف أمام الله سبحانه وتعالى.. ربِّ السموات والأرض، خالقنا، و خالق كل شيءٍ.. نتأهب لذلك بالنظافة والوضوء.. وعندما نبدأ الصلاة يرِّحب بنا اللهُ، وتسرُّ ملائكته، وننال الثواب.. فأقل واجبٍ علينا أن نقفَ في أدبٍ يليق بمالكِ الملكِ العظيم المتعال.. نستشعر عظمة الخالق، ونسأله العفو والرضاء والقبول".. تسأل جيهان في رهبةٍ: "أسمع أن من يفعل شيئًا يغضب الله، فسيعاقبه عليه، ويدخله النار".. تبتسمُ جدتي: " الله يعلم أنكن صغيراتٌ، والصغيرُ غير مكلفٍ بأداءِ الفروضِ كالصلاةِ والصوم.. وإذا حدث وأتى المسلمُ بذنبٍ، واستغفر ربه، وندم على ما فعل، وعزم على التوبة الصادقة، فرح الله به، وغفر له وتاب عليه ومتعه بنعيم الجنة ".. كنا نستغفرُ اللهَ ونشعرُ بالراحةِ.. وتطمئن قلوبُنا.

بعد صلاة الظهر، تفتح جدتي المصحف وتشرع في قراءةِ قصارِ السورِ من "جزء عم"، وهو الجزءُ الثلاثون والأخير من القرآن الكريم:
اقرأ باسم ربك الذي خلق.. خلق الإنسان من علق.. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم.. علم الإنسان ما لم يعلم..... سورة العلق.
والتين والزيتون وطور سينين.. وهذا البلدِ الأمين.... سورة التين.
نستشعر حلاوة الكلمات، وننسجم مع الموسيقي الربانية المعجزة، على الرغم من سننا الصغيرة.. نردِّد وراءها الآياتِ الكريمة.. نحفظها سريعًا، ونتبارى في تسميعها. تتداعى الصورُ في ذاكرتي.. أرى ميلندا في المصلى تردد معنا القرآن! هل وقع ذلك بالفعل أم أنني أتوَّهم وقوعه؟.. سألت جدتي ذات مرة.. أجابتني بأنها حقيقة.. حكت لي ما حدث.. قالت:
"كنت معكن في المصلى أحفظكن القرآن.. وإذا بمدام أفروديت أمامي، وابنتها ميلندا في يدها.. كانت تسمعنا في سكونٍ منذ لحظاتٍ، ولم أنتبهْ لوجودِها؛ لاستغراقي في التلاوة.. قلتُ: صدق الله العظيم، وطويتُ المصحفَ، وهممتُ بالنهوضِ لاستقبالها خارج المصلى، بدا عليها الحرج.. اعتذرت لمقاطعتنا.. ألحَّت عليَّ لإكمال الدرس.. عاودتُ الجلوسَ.. دعوتها لتقعد معنا حتى انتهي من درسي.. سألتني دَهِشَة:
ـ هل يسمح دينكم لغير المسلمين بدخول أماكنِ العبادةِ الخاصةِ بكم؟
أجبت:
ـ نعم.. لا شيء في ذلك.
خلعت حذاءها، وأحكمت ربط "لإشارب"على رأسها، وجلست إلى جواري في سكونٍ.. أشارت لميلندا بالانضمام إلى الجالسات الثلاث: أنت يا سهيلة وبشيرة بنت قشطة.. و.. و.. والبنت جيهان.. واصلتُ التلاوة والبناتُ الثلاث يكررن خلفي الآيات البينات.. فوجئت بميلندا تتجاوب معهن، وتردد الآياتِ مثلهن.. لم تبدِ والدتها اعتراضًا، أو ظهرَ عليها الضيق.. على العكس تمامًا.. كانت سعيدة.. تشجع ميلندا بإيماءاتها.. وقالت لي بعد فراغي من الدرس:
ـ أنا يونانية الأصل لكنني مصرية المولدِ والنشأةِ.. زوجي أيضًا مسيحي من

صعيد مصر.. أنا أعشق بلدكم ولغتكم العربية.. أتمنى أن تندمج ابنتي أكثر وأكثر في المجتمع، وتتحدث العربية بطلاقةٍ.. سمعت أبي يقول: خيرُ ما يقوِّم اللسان، ويساعدُ على النطق السليم، قراءةُ القرآن.. فهل تقبلين بميلندا تلميذة من تلميذاتكِ الحسان؟

رحبتُ كثيرًا، واشترطتُ موافقة أبيها.. وافق الأستاذ مينا من فوره كما أخبرتني أفروديت بعد ذلك.. وهكذا حضرت ميلندا بضعة دروس في المصلى، وانقطعت عن الحضور، عندما بدأت الدراسة، فقد كانت ميلندا تكبركِ بنحو العامين".

انتهتْ جدتي من سرد الواقعة، وتيقنتُ مما حدث.

كانت جدتي تهيئني لدخول المدرسة عند بلوغي سن السادسة، وتعوِّدني على أداءِ الصلاةِ منذ صغري.

هي حكَّاءة ماهرة.. حباها ربها موهبة الحكي.. تعضدها ثقافتها الكبيرة، ودراستها في مدرسة المعلمات؛ وهي تضاهي "كلية التربية" في الوقت الحاضر، واشتغالها معلمة بضع سنواتٍ من حياتها.. تعرفُ كيف تجذبُ انتباهَ السامع، منذ العبارةِ الأولى.. وشيئًا فشيئًا تهيمن على مشاعره، و وتحرِّك انفعالاتِهِ؛ صعودًا وهبوطًا.. فيصغي إليها بكل حواسه، ولا يستطيع منها فكاكًا قبل سماع الجملة الشهيرة التي تنبهه إلى نهاية الحكاية : توتة توتة.. فرغتِ الحدوتة!

كانت تحكي لنا سِيَرَ الأنبياءِ، والقصص القرآني، بطريقةٍ شائقةٍ جذابةٍ.. سيدنا نوح وسفينته.. سيدنا يوسف وأخوته.. ناقة نبي الله صالح.... عليهم جميعًا السلام.. قصة أهل الكهف وكلبهم... كنت أطلب إليها أن تقصَّ عليَّ المواجهة بين نبي الله موسى، والسحرة الذين جمعهم فرعون في يوم الزينة.. كانت جدتي تلوِّن صوتها وتغير من نبراته، وتعبر بقسمات وجهها، ويديها، وأحاسيسها مع تنامي الأحداث.. كانت تجيد " فن الإلقاء"، وما يسمى" لغة الجسد"، وهي مهارات مهمَّة للكثيرين بخاصةٍ الممثلون والخطباءُ ورجالُ السياسةِ.. كنتُ أستحضر مشهدَ التحدي المصيري بين سيدنا موسى من جهةٍ، وفرعون وسحرته في الجهة المقابلة.. بين الحق والباطل.. وأتفاعل مع الحكي، وكأني أشاهد مباراة مثيرة بين القوة المتغطرسة الباطشة المغرورة لفرعون، وقوة الإيمان بالله والثقة في نصره لدى النبي

موسى.. أقشعر خوفًا وإشفاقا على سيدنا موسى في مواجهة هذا الحشدِ المتربَّص به.. أحسُّ بالرهبة والسحرة يلقون بحبالهم وعصيهم.. سحروا عيون الناس فبدتْ لهم كأنها تتحرّك وتسعى.. ألقى موسى بعصاه، فصارت حية حقيقية بإذن الله.. راحت تلقف وتبتلع تلك الحياتِ المتخيَّلة.. أشعر بالسعادة لهزيمة فرعون، وانتصار الحق بهذه المعجزةِ الألهيةِ، وإيمان السحرة بالله، غير مبالين بتهديداتِ فرعون.

العجيب في الأمر أن مشاعري كانت تتقلب بين الخوف والشفقة والرهبة والسعادة، كلما سمعتُ الحكاية بلسان جدتي، مع أني أعلم مسبقًا سيرَ الأحداثِ تفصيلاً، ونتيجة هذا التحدي.. كنت ألح على جدتي أن ترويها لي، أو تعيدها على مسمعي، وقد فرغتْ منها لتوِّها.. تتعجب مني وتستجيب.. أصغي إليها بالاشتياق نفسه.. كل مرة كأنها أوَّل مرة! وهكذا في سيرةِ سائر الأنبياءِ.

كنت أحب سماع قصة سيدنا سليمان وحواره مع الهدهد، وكيف أحضر " الذي عنده علمٌ من الكتاب " عرشَ الملكةِ بلقيسَ من مملكة سبأ في اليمن إلى مدينة القدس في لمحة عينٍ.

ونأتي للسيرةِ العاطرةِ لخاتم المرسلين؛ رسولنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.. تروقني قصة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة المنوَّرة، وأحب سماعها من جدتي.. كنت أصغي في حالة من الترقب والصمت، خافقة القلب، والمشركون من قريش يقفون بمدخل غار ثور الذى أوى إليه النبي و أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه.. الصدِّيقُ يقول: " لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ".. فيجيبه الرسولُ: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما".. انبهر بالصدق والثبات، والثقة بالله، والاتكال عليه في الشدائدِ.

تعجبني أسماءُ بنت أبي بكر.. تحكي لي جدتي كيف أسماها النبي " ذات النطاقين "، أستدعي الموقف: أبو بكر يربط الأمتعة، ويعدِّها للسفر.. لا يجدُ حبلًا يربط به الزاد والطعام، تأخذ أسماءُ نطاقها أي حزامها، الذي تشد به وسطها، فتشقه نصفين، تربط به الزاد.. يراها الرسول، يقول: "أبدلكِ الله بنطاقكِ هذا نطاقين في الجنةِ".

كانت جدتي تبرهن على قدرة المرأة على العمل، وتحمل المشاق، بدور أسماء بنت

الصديق في الهجرة المباركة.. كانت تحمل الطعام للرسول وأبيها في الغار، مع في ذلك من عناءٍ كبيرٍ.

يتهلل وجهي وأفرح لنجاح الهجرة، واستقبال أهل المدينة من الأنصار لرسول الله بالغناء.. ما زالت تطربني تلك الأنشودة الخالدة.. كلما سمعتها تصوَّرتُ جدتي ترددها معي، كما كنا نفعل في الماضي:

طلعَ البدرُ علينا من ثنياتِ الوداع

وجبَ الشكرُ علينا ما دعا للهِ داع

الساعة تجاوزت الواحدة بعد الظهر بقليلٍ.. موعد وجبة الغداء لجدتي.. تتكوَّن من سمكٍ أو دجاجٍ مشويٍّ.. أو قطعة لحمٍ مسلوقة.. حساء.. وسلطة خضراوات طازجة.. وقليلٍ من الأرز.. تتناول بعده قرصاً من نوع آخرَ لعلاج السكر، وحبة من الأسبرين؛ لزيادة سيولة الدم والوقاية من الجلطات.

الوقت الباقي حتى أذان العصر مخصص للعب، وتبادل الفوازير والألغاز، والتباري في حلها..أحياناً تتوقف عند شجرةٍ مثمرةٍ.. برقوق مثلاً.. تسألنا كم برقوقة عليها.. تقطف ثلاث برقوقاتٍ.. تعطي ثمرة لكل واحدة منا.. تسألنا: كم ثمرة تتبقى على الشجرة.. تقطف ثمراتٍ اخرى وتكرِّرُ السؤال.. وهكذا.. كان لديها قدرة مدهشة على ابتكار ألعابٍ تعليميةٍ، تجمع بين التسليةِ والتعلم، من الأشياءِ البسيطةِ الموجودةِ حولنا.. تبهرني ابتكاراتُ جدتي.. أشياءُ عادية تتحوَّلُ علي يديها إلى لعبةٍ مفيدةٍ، أو وسيلةٍ تعليميةٍ لا تخطرُ على بال.. مثلًا: درجاتُ السلم لتعليم العد.

كانت سريعة البديهة، قادرة على ذكر مثل شعبي، أو أحد الأمثال العربية، يتوافق مع حدثٍ معينٍ، و تذكر قصة هذا المثل، و المناسبة التي قيل فيها.. وقد تشرع في سرد قصةٍ ما، و إذا بحكايةٍ أخرى تولد من الحكاية الأولى، وهكذا تتوالدُ الحكايات حكاية من حكاية.. لتعاود الرجوع للقصةِ الأولى في النهاية.

كانت تحفظ كثيرًا من نوادرِ جحا، وحكاياتِ الف ليلة ليلة، وكليلة ودمنة، وخرافات إيسوب الحكيم اليوناني، وقصصَ كاتب الأطفال الدنماركي هانز كريستيان أندرسون، وحكايات الفرنسي " لا فونتين"، والأخوَينِ " جريم "

الألمانيينِ، واشعار شوقي للصغار.
وإذا علمنا أنها كانت متابعة جيَّدة لكتاباتِ مؤلفي الأطفال المعاصرين لها، مثلما هي ملمَّة بالتراث، ومؤلفاتِ السابقين عليها، فسنجد أنفسنا حيالَ موسوعةِ حكاياتٍ.
ومن آرائها:
ـ إذا أردتَ أن تكون كاتبًا ناجحًا فاقرأ كثيرًا واكتبْ قليلاً.
ـ تنويعُ مجالاتِ القراءةِ ضرورةٌ لكلِّ كاتبٍ.
بعد صلاةِ العصرِ، تصعدُ إلى البيت.. تشاهد التلفزيون لفترةٍ قصيرةٍ .. يقتصرُ ما تشاهدُ على نشراتِ الأخبار، و البرامج التسجيليةِ والوثائقيَّةِ، خاصة التي تصوِّرُ حياة الحيواناتِ في الغابات والبراري، والكائناتِ البحرية في بيئاتها الطبيعيةِ.. أحيانًا تسمع أغنية قديمة لأم كلثوم أو محمد عبد الوهاب.
كانت تصلي المغرب في صالة البيت، ثم تصعد بصحبتي إلى حجرة النوم في الطابق الثاني.. تصلي العشاء، وتحكي لي حدودتة، ثم تأوي كل منا إلى فراشها.. تصحو جدتي لتصلي الفجر، وتقرأ شيئًا من القرآن.. ليبدأ يومٌ جديدٌ.. وهكذا كل يومٍ.

شمسُ الملوك

كانتِ الفيلا تحفل بأشجار الفاكهةِ المثمَّرةِ، والطيورِ، والقططِ.. ومع كثرةِ الأشياءِ تكثر المحاذيرُ والمحظوراتُ.. والأخطاءُ أيضًا.

ذاتَ يومٍ وأنا صغيرة أسقطتُ عشَّ عصافير من فوق شجرةٍ كافور بعصا طويلةٍ.. كان بالعشِّ فرخان يكسوهما الزغبُ.. أخذ العصفوران الأبوان يطيران إلى حيث كان عشهما، وينظران إليَّ، ويزقزقان فزِعَيْنِ، بصوتٍ كصرخاتِ الاستغاثةِ.. أو الاحتجاج!

نظرتُ إلى الفرخين.. كم هما ضعيفان! كانا يرتجفان من البرد، فزاد حزني وأسفي، وأحسستُ بقسوةِ تصرُّفي هذا.. وحرتُ كيف أعيدهما إلى العش المنكوش، وأعيد العش إلى الشجرة، والفرخين إلى حضن الأبوين الدافئ؟

انطلقت كالعادة إلى جدتي عندما أقعُ في مشكلة.. أبصرتْ جدتي الصغيرين معي، فاستاءت، وتألمت ونهرتني.. تأسفتُ وبكيتُ، واعتذرتُ بأني لم أتعمد إيذاءهما، إذ كان دافعي الفضول وحب الاستطلاع، و إظهار قدرتي على الإتيان بشيءٍ عجيبٍ صعبِ المنال! و وعدتها ألا أفعلَ ذلك مرَّة أخرى.

استدعتْ جدتي عم شبيب، وطلبتْ إليه أن يأتيَ بالسلمِ، و يسوِّي العش، ويودعه الفرخين، و يعيدَ العشَّ إلى مكانه فوق الشجرةِ، عسى أن يهتديَ إليه الأبوان، ويستمرا في إطعام فرخيهما، وتدفئتهما، حتى يكبرا، ويستطيعا الطيران.

أعاد عم شبيب العش إلى موضعه.. شاهدت الأبوين يطيران إليه، فاطمأن قلبي واستراح ضميري قليلاً!

كانت جدتي تمنعنا من قطفِ الثمارِ النيئةِ، والفاكهة التي لم تصل بعد إلى مرحلةِ الاستواءِ وكاملِ النضج، وتنصحنا بعدم تناول الثمار التي نجهلها، أو التي سقطت على الأرض، إلا بعد غسلها والتأكد من سلامتها.. تحذرنا كذلك من تسلق الأشجار مخافة اتساخ ملابسنا أو تمزقها، و الأخطر انزلاق أقدامِنا، والسقوط من فوقها، فيصيبنا مكروهٌ، وإن كانت لم تمانع قط في اقتطاف ما شئنا من الفواكه الناضجة باستخدام مخطافٍ خاصٍ؛ أي عصا مزودة بخطاف حديدي عند طرفها،

أو الاستعانة بالسلم للوصول إليها، وأكلها بعد تنظيفها جيدًا.
ومع بداياتِ الصيفِ أتى موسمُ التوت، وامتلأت شجرتنا بالثمار البنفسجيةِ اللذيذةِ الناضجة.. طلبتُ إلى بشيرة أن تأتي لنا ببعض التوت؛ لمهارتها في تسلق الأشجار، ولخوفي على فستاني الجديد من الاتساخ والقطع.. الحقيقة أني أمرتها أمرًا.. رفضت بشيرة الانصياع لأمري، معتذرة في هدوءٍ بتورم قدمِها.. وكانت صادقة في ذلك.
غضبتُ منها.. أمسكتُ بشعرِها وشددته.. كيف لحفيدةِ طباخةِ البيتِ مخالفة كلام حفيدة سيدة البيت وعصيان أمرها؟!
بكتْ بشيرة، وذهبت إلى جدتها قشطة شاكية.. هدَّأتها قشطة، وتصادف مرور جدتي بالمطبخ، فدخلت تستطلعُ الأمرَ.

علمت جدتي بما جرى.. طيَّبتْ خاطرَ بشيرة وجدتها.. شعرت من نظراتها أنها مستاءة بشدَّةٍ مني، وعلى الرغم من غضبها الشديدِ لم تكلمني في شيءٍ!
في المساء، عندما ذهبت إلى فراشي، في انتظارِ " حدوتةِ قبل النوم ".. جاءت جدتي.. وقالت: " اخترت لكِ حكاية كتبتها منذ بضع سنواتٍ.. سأرويها لكِ، و آمل بعد سماعها أن تفكري بها جيدًا!
وشرعت تحكي حكاية " شمس الملوك ".. قالت:
"عاش في قديم الأزمان ملكٌ، كان شديدَ الزهوِ والغرورِ.. يسرفُ في الأناقةِ ولبسِ الثيابِ المزركشةِ الزاهيةِ الآلوان، ويُغالي في التزيّنِ بالنياشينِ والأزرارِ الذهبيةِ.. ويُلاقى أفرادَ حاشيتِهِ وضيوفِهِ عابسَ الوجهِ، ويمشي بينهم في خُيَلَاء[8]، ويُعرضُ بوجهه عن محدِّثيه تكبُّرا؛ حتى أشاع بعض المقربين منه أنه لم يبتسم قط طوال عمره.. لهذا كله كانت ألقابٌ من مثلِ: الملك الطاووس.. والملك العبوس، التي أطلقها الناسُ عليه، تمثلُ بعضَ الحقيقةِ!
ذات يوم اصاب ذلك الملك مرضٌ غريبٌ: كانت تنتابه ساعاتٌ من الحزن، والرغبة في البكاءِ، واعتزالِ الناس، وفقدانِ الشهيةِ للطعامِ والشرابِ.

---

8 الخيلاءُ: التكبّر والعُجْب.

صبر الملكُ على مرضِهِ، وتكتمه عمن حوله بضعة أسابيع؛ على أمل أن يعود إلى طبيعته.. عمد في أثنائها إلى شيءٍ من الترفيهِ عن نفسه.. أحضر المهرجين إلى قصره، والحُوَاة، ولاعبي السيرك، وممثلي خيال الظل.. لكنْ لا شقلبات المهرجين وفكاهاتهم، ولا ألعاب الحواة وثعابينهم، ولا سيرُ لاعبي السيركِ على الحبال، ولا تمثيليات خيال الظل المضحكة أتت جميعًا بنتيجةٍ تذكر!

في نهاية الأمر استدعى الملكُ طبيبه الخاص؛ ليشخص الداء، ويوصي بالدواء .. لكن ذاك الطبيب، حار في علة الملك.. وفشل الدواء الذي وصفه في شفائه!

جاء بجماعةٍ من كبارِ أطباءِ المملكةِ، تحلقوا حوله، وجعلوا يتشاورون، واتفقوا على دواءٍ.. لكن وصفاتِهم أخفقتْ في علاج ملكهم!

أشار عليه أحدُ رجال البلاط باستدعاءِ طبيبٍ شيخ، يسكن كوخًا على نهرٍ، إلى جوار سفح جبل، يعرفه الناس بألقابٍ مختلفةٍ: فهو حكيمُ الجبلِ، وناسكُ الكوخ، وطبيبُ الفقراءِ.

كان لهذا الشيخِ الطبيبِ شهرةٌ وصيتٌ كبيرٌ، ولبراعته الفائقة، وعزلته، وتأملاته، ظن بعضُ الناسِ أنه على علم بالسحرِ والتنجيمِ، وأن له قدرة على الاتصال بكائناتٍ خفيةٍ، تملي عليه وصفاته العلاجية!.

والحقيقة أن هذا الشيخَ كان عالمًا.. الكوخ معمله الصغير.. يقضي أوقاتِه في قراءةِ كتبِ الطبِّ والصيدلةِ، ويجمع الأعشابِ والزهورَ البرَّية، التي تنمو على شاطئِ النهر أو على الجبل، والتي يعرف خواصها العلاجية وأسرارها.. يجففها ويصحنها.. ينقع بعضًا منها، أو يغليها في الماء، ويمزجها، ويحضر منها دواءً، يمنحه للمرضى الفقراء بغير مقابلٍ.

قيل للملكِ هذا كله.. تردد كثيرًا في بداية الأمر؛ فكيف ينجحُ طبيبُ الفقراءِ، فيما فشل فيه مشاهيرُ الأطباءِ وأغلاهم أجورًا؟!

أخيرًا، وخوفًا من استفحالِ المرضِ، أرسل في استدعاء الشيخ الطبيب بغير ثقةٍ فيه.. كان يشك في كونه طبيبًا بحق.. ظنه يمارس الدجلَ؛ لذلك عزم على عقابه بالسجن ومنعه من ممارسة مهنة الطب، إن هو فشل في علاجه، وأبلغه رسولُ الملكِ بهذا الشرط المخيف: إما الدواء النافع أو الجزاء الرادع!

وصل الطبيبُ إلى قصرِ الملكِ، وأذن له بالدخول.. دخل الطبيبُ.. راح الملك ينظر في استهانةٍ إلى ملبسه، وحقيبته التي لم تكن إلا سلة من البوص.. كاد يطرده من الحجرة، لولا كبرُ سنه، ومبادرته بابتسامةٍ طيبةٍ ودودٍ.. طلب الشيخ في أدبٍ جم أن يفصحَ الملكُ عما يشكو منه.. أخبره الملك في ضيق عن شكواه، وراح يجيب عن أسئلته في ضجرٍ.. وسمح له على مضض أن يكشف عليه و يفحصه. فرغ الطبيبُ من عملِهِ، وأخرج من سلته بعضَ الزجاجاتِ والآنيةِ، وهاونًا من الصيني.. شرع يضع بعض المساحيق في الهاون، ويضيف إليها مقاديرَ محسوبةٍ من محتوياتِ الزجاجاتِ، ويخلطها جيدًا.. والملك يتابعه في تأففٍ واشمئزازٍ.. أهذا المزيج يمكن أن يشفي ملكًا؟!

لم يطقِ الملكُ صبرًا على ذلك الشيخ الممسك بيد الهون، المنهمك في المزج، فعاجله بسؤال:

ـ هل سبقَ أن عالجت بهذا الدواءِ أحدًا من عامةِ الناسِ؟

توقف الطبيب عن العمل تأدبًا منه وأجاب:

ـ نعم.. وصفته لبعض الحالاتِ المشابهةِ لحالة جلالةِ الملكِ، وكانت النتيجة رائعة والحمدُ لله.

تعجَّبَ الملكُ وسأل:

ـ كيف أيها الطبيبُ؟! هل يداوي الملوك ما يداوي العامة من الفقراء والرعاع؟

قال الطبيبُ مبتسمًا:

ـ الدواءُ يصلح للجميع على السواءِ.. مادام المرضُ المشكو منه واحدًا، فالدواءُ واحدٌ!

انتهي الطبيبُ من تحضيرِ دوائه، فأمسك الملكُ بزجاجةِ الدواءِ بأطرافِ أصابعه وقال ثائرًا:

ـ لا أريد هذا الدواءَ.. أريد دواءَ الملوكِ!

وجد الشيخ الطبيب نفسه في مازقٍ صعبٍ، فالملك غاضبٌ، وقد يبلغ به الغضب مداه، فيأمر بحبسه أو جلده.. فكر سريعًا ، وأسعفته سرعة بديهته بالحل.. وافق رأي الملك وقال له في هدوءٍ:

ـ الحق ما قلتَ يا مولاي.. دواء الملوك!
قال له الملك:
ـ ولم أنكرته قبلَ لحظاتٍ؟
أجاب الطبيبُ:
ـ من هيبة جلالتكم.. غاب عن بالي لرهبتي منكم.. عذرًا يا مولاي.. هذه أول مرةٍ أُستدعى فيها لمعالجة ملكٍ عظيمٍ مثل جلالتكم!
قال الملك في لهفةٍ:
ـ أين ذلك الدواءُ.. إليَّ بدواء الملوك!
أجاب:
ـ الشمسُ هي ذاك الدواءُ!
دهش الملك:
ـ الشمس؟!
أوضح الطبيب:
ـ عليك بالجلوسِ في الشمسِ عاريًا مدة لا تقلّ عن الساعتين.. مرتين يوميًّا.. مرة بعد الشروق مباشرة، ومرة قبل الغروب!
رأى الملكُ ملامحَ الجديَّةِ والوقارِ على وجهِ الطبيبِ، فقال:
ـ العلاجُ إذن يسيرٌ!
قال الطبيب بالجدِّيةِ نفسِهَا:
ـ طبعًا يا مولاي.. ولكن هناك مشكلة هيّنة.. مولاي يحتاجُ إلى شمسِ الملوكِ.. فهي دواءُ الملوكِ والعظماءِ!
سأل الملك:
ـ وما تلك الشمسُ؟
أجاب الطبيبُ وهو يُعيدُ أدواته إلى سلته:
ـ شمسُ الملوكِ لا تشرقُ إلا على قصورِ الملوكِ.. فابحثْ عنها.. وعند جلالتكم زجاجة الدواءِ.. خذ ملعقة كبيرة منها قبل النوم!
انصرف الطبيبُ وترك الملك غارقا في دهشته وحيرته.

وفي الصباح الباكر قام الملكُ من نومه، وتطلع من شرفة القصر، وتأمل الشمس، وجعل يفكر: " ها هي الشمس تشرق على قصري الكبير، وعلى كوخ الحارس الذي يحرسه.. ترسل أشعتها الدافئة إلى الأشجار الباسقة، وإلى العشب البرّي من تحتِها، والعُلّيْق [9]على أغصانها.

وعند الغروبِ يتابعُ الشمسَ وهي تغرب، ويحدِّثها: " أيتها الشمسُ الغاربة.. ها أنت توشكين أن تذهبي بضيائك الذهبي ليحلَّ الظلام.. أهناك شمسٌ سواكِ تضيءُ الأرضَ؟! أين يا شمسَ كل الناسِ شمسُ الملوكِ؟!

اضطر الملك إلى سؤال حاشيته وحكمائه عن مكان شمس الملوك، فتحيروا جميعًا ولم يظفر منهم بجواب!

اقتنع الملك أخيرًا أن الشمس واحدة، وكف عن التفكير بشمسِ الملوكِ.. هي شمس واحدة، خلقها الله للجميع، ومادام الأمر كذلك.. فالدواءُ واحدٌ.. والناسُ سواءٌ.

أقبل الملك على تناول دواءَ الشيخ الطبيب بانتظامٍ.. ومع مرور الأيام تغيرت طباع الملك إلى درجة أثارت دهشة المحيطين به.. زايله غرورُه وكبرياؤه الزائدُ، فصار متواضعًا، سَمْحًا، ومال إلى الاعتدال في اختيار ملابسه، وعرفت البسمة طريقها إلى وجهه، فهو يبتسم، وينظر إلى وجه من يحدثه، ويصغي إليه في اهتمامٍ.

تعددت التفاسير لما حدث.. فبعض أفراد الحاشية رأوا أن إقبال الملكِ على التعامل مع الناس ببساطةٍ، و بلا تكلفٍ قد حسَّن من نفسيته، وساعده على الشفاء من مرضه.. وبعضهم أرجعوا ذلك إلى براعةِ الطبيب، ودوائه العجيب.

وكانت المفاجأة أن رفض ذلك الطبيب منصبَ كبيرِ أطباءِ القصرِ الملكي الذى عرضه عليه الملك، قانعًا بكوخه، معتزًّا بألقابه: طبيب الجبل.. والفقراء.

المهم أن الناسَ نسوا أنهم أطلقوا على ملكهم يومًا: الملك الطاووس أو العبوس!.

9 العُلّيْقُ: نباتٌ يتعلق بالشجر ويلتفّ عليه.

موزاييك

تغيَّرتْ نظرتي الضيِّقة إلى بشيرة وجيهان بعد سماعي حكاية الملك الطاووس من جدتي، وإن كنت لا أوافق على تشبيهه بالطاووس؛ لأني أحبُّ الطوواويس.. الطاووسُ طائرٌ جميلٌ، يبهرني حين يستعرضُ ناشرًا ريشَه الكثيرَ الملوَّن الخلاب، على هيئة مروحةٍ كبيرةٍ، واختياله في مشيته.. الله أبدع خلقه، وأراده هكذا.

غدوتُ أنظر إليهما بروح الصداقةِ و الأخوَّةِ، فهما صديقتان.. بل أختان.. كانت جدتي تحبُّهما، وترحِّب بزيارتِهما، وتفرحُ بهما.. لم تفرِّق بيننا في المعاملةِ قط.. .. كنا جميعاً أمامها سواسية.. كانت تشجِّعنا على أن نلعب معًا، وتظلُّ تتابعنا، وأحيانًا تشاركنا اللعبَ؛ بقصد إيناسي، فلا أشعرُ بالوحدةِ والفراغ والملل.. كانت تروم لي تنشئة اجتماعية سليمة، فأتربَّى على حب الناس، واحترام الصداقة، والاعتزاز بالصديقات، والتآلف والتعاون معهن، فلا يكون بيننا إلا التراحمُ والتسامحُ والتوادُّ.

كانت تعامل من يشتغلون في المنزل معاملة ممتازة، تشعرهم بأنهم أصحابُ البيت، أو شركاءُ فيه.. كانت لا ترهقهم بالعمل، أو تكلفهم ما لا طاقة لهم به.. كانت تعملُ بحديث رسول الله:" للمملوكِ طعامُه وكسوته ولا يُكلف من العمل إلا ما يطيق".. كانت متواضعة تواضع ذوي النفوسِ الكبارِ والهممِ العالية.. متسامحة، هادئة، صبور.. فإذا أخطأ عاملٌ، حدثته بالحسنى، بغير عصبيةٍ أو انفعالٍ، أو تعنيفٍ قد يشعره بالإهانة.. وأبانت له خطأه.. وبقدرتها الكبيرةِ على الإقناع يمتثل للنصح راضيًا، ويستجيبُ عن قناعةٍ وصفاءِ نفس، ولا يكرِّر ما فعل.

وكانت تكره المختالين، والمتفاخرين.. وتذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم سُئِل: من أكرمُ الناس.. فأجاب: أتقاهم.. فلا فرق بين عربي أو أعجمي إلا بالتقوي.. وكانت تردد بيت الشاعر أبي العلاء المعري:

الناسُ للناس من بدوٍ و حاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

وكان أبغض الصفاتِ إلى نفسها الأنانية والأثرة.. كانت تحبِّبُ إلى قلوبنا الإيثارَ وإنكارَ الذات، والتضحيَّة من أجل الآخرين.

ذات يومٍ أهدتني جدتي لعبة " الموزاييك" أو " الموزايكو " وتعني الفسيفساء.. تتكون من مجموعة كبيرة من قطع البلاستيك الصغيرة الملونة، حمراء، وصفراء، وزرقاء... من كل الألوان، ذات أشكال هندسيةٍ متعدِّدة: مثلثة.. مربعة، أو مستطيلة، ومنها قطعٌ على شكل المعيَّن.. يضعها اللاعب إلى جوار بعضها بعضًا، لتكون شكلاً هندسيًّا، أو صورة، تمامًا مثل بلاط الفسيفساء ، المستخدم في الديكور ، وتزيين الأرضيات والجدران منذ عصور ما قبل الميلاد، في حضارات العراق القديمة، واليونان، والرومان.. فكانت تلصق المكعباتُ الصغيرةُ الملونة، جنبًا إلى جنبٍ، ليتشكل منها منظرٌ طبيعي جميل، أو تشكيلٌ هندسي بديع.

فرحتُ بلعبتي الجديدة.. ولكل جديد بهجة.. قررت أن ألعبَ بها وحدي، بعيدًا عن بشيرة وجيهان.... لن أسمحَ لأحدٍ باللعب معي.. حتى ميلندا.. كنت أردِّد في نفسي: أليست لعبتي.. وهدية جدتي؟.. فلماذا ألعبُ بها مع غيري؟ لستُ أدري كيف سوَّلت لي نفسي التفكيرَ بذلكَ!

كنت أختار أوقاتَ غيابَ صديقاتي عن بيتنا للعب الموزايكو.. وفي أثناء حضورهن، كنت أختبئ بين الشجرِ لألعب، أو ألزم حجرتي، وأغلق بابها، وأبعثر قطع الموزاييك على أرضيتها، و أرتبها وأرصها.. كنت أكوِّن منها أشكالاً جميلة كفراشةٍ مزركشةٍ الجناحين.. أو زهرة.. أو كوخٍ بجواره شجرة موز.. أحيانًا كنت أطلق لخيالي العَنان، فأصنع تكويناتٍ هندسيةٍ غريبةٍ، لو حاولت إعادة تشكيلها مرة ثانية لعجزتُ عن ذلك!

لاحظتُ بعد أيام قليلةٍ أن الملل يتسربُ إلى نفسي سريعًا، بعد وقتٍ قصيرٍ من اللعبِ، ولا أملك له دفعًا.. وسرعان ما يتحول إلى ضيق وضجر، لاأستطيعُ معه صبرًا، فأسرع إلى " فركشة " القطع في عصبيةٍ، وألقي بها في علبتها.

كدتُ أكره هذه اللعبة، وكانت تخطر لي أحيانًا أفكارٌ شريرة بتكسيرها، أو إلقائها خلف سورِ مزرعةِ جدي المهجورة، كي لا ينتفعَ بها أحدٌ!

ذات مرة افترشتُ بساطًا صغيرًا في ظل شجرةِ التوتِ، و شرعتُ ألعب، وإذا ببشيرة تداهمني ومن خلفها جيهان.. اقتحمتا عليَّ خلوتي، وضبطتاني متلبسة باللعب؛ (بحسب تعبيراتِ والدي القانونية).. هنأتاني باللعبة الجديدة، وتعجبتا

لأني لم أخبرهما عنها من قبل.. واصلتُ اللعب وأنا أكتمُ غيظي، وهما تتابعاني في شغفٍ.. استهوتهما اللعبة، وفهمتاها من فورهما، وتفاعلتا معها.. كانت بشيرة تشيرُ عليَّ بوضع قطعة موزايكو في موضع معين، و تقترحُ جيهانُ إبدال إحدى القطع بأخرى.. توجَّستُ منهما.. توقعت أن تطلب إليَّ إحداهما أو كلتاهما اللعبَ معي، وربمَّا تطمح لاستعارةِ لعبتي بعضَ الوقت، وقد تستسمحني لتأخذها معها إلى بيتهم!

ويتردَّدُ الصوتُ في داخلي: هي لعبتي.. هدية جدتي.. ولي حرية التصرِّفِ فيها!

واتقاءً لأي طلبٍ مفاجئ، جمعتُ القطعَ وأعدتها للعلبة، لأحرمهما حتى من مجرد التفكير معي، ومشاركتي اللعبَ ولو شفاهة.. وفي الواقع كنت أحرم نفسي أيضًا من الاستمتاع بها.. استاءتْ بشيرة واحتجَّتْ جيهانُ.. قلت لهما: هذه لعبتي .. لن ألعب بها إلا في حجرتي لتكون لي وحدي!

انطلقت جيهان وبشيرة تشكواني لجدتي: سهيلة تمنعُ عنا لعبتها، مع أننا نعطيها لعباتنا، ونشاركها اللعبَ!

صبرتْ جدتي حتى انفردتْ بي.. سألتني إن كنتُ قد أتيتُ بهذا التصرِّفِ الغريبِ ومنعتُ صديقتيَّ من اللعب معي.. أجبتها بنعم.

سألتني: لماذا؟

ارتبكت وسقت لها بعضَ الحجج الواهيةِ: كالحرص على سلامة لعبتي، والحفاظ على مكوناتها من الفقد والضياع.

ابتسمت جدتي وقالت:

ـ بعض الأشياء كالدمى واللعُب المختلفةِ جُعلتْ لنلعبَ بها ونستمتع.. وما تُشترى إلا لهذا الغرضِ.. لا مانع من المحافظة عليها لإطالةِ عمرِها، وإبقائِها في حالةٍ جيدةٍ أطولَ مدةٍ ممكنةٍ.. لكنها لن تبقى سليمة إلى الأبد!

جادلتها قائلة:

ـ لكنك يا جدتي كرمة مازلتِ تحتفظين بتذكاراتٍ من عهدِ طفولتكِ.. حتى فوانيس رمضان.. كلها في حالةٍ جيِّدةٍ؛ لأنك تصونيها ولا تدعين أحدًا يعبث بها!

قالت جدتي:

ـ هذه أشياءُ شخصية يا سهيلة.. كنت مثلاً أوقدُ شمعة الفانوس في شهرِ رمضان، وأنزل بعد صلاة العشاء لأنضمَّ إلى حاملاتِ الفوانيسِ.. كلُّ بنتٍ معها فانوسُها الخاصُ.. ومع ذلك لا يلذ لنا اللعبُ ولا يطيبُ إلا باجتماع شملنا، وغنائنا معًا: وحوي يا وحوي.. فمعظم الألعاب لا تحلو إلا بالمشاركة و أحيانًا بالمنافسةِ الشريفةِ.
لذتُ بالصمتِ وقد استشعرتُ ضعفَ حجتي أمام منطق جدتي.. وعادت تسألني:
ـ ألم تشعري بالملل وأنت تلعبين وحدكِ في حجرتكِ المغلقة؟
دهشت.. لكأنها كانت معي.. أومأتُ برأسي أن هذا قد حدث.. قالت جدتي:
ـ هذا أمرٌ متوقع.. جرِّبي أن تلعبي مع صديقاتكِ.. ستفرحين.. ستضيفين فرحتكِ إلى أفراحهن، وتضاف أفراحُهن لفرحتكِ، فتزيد الأفراحُ وتربو.. لا تكوني يا سهيلة يا حبيبتي مثل " التينة الحمقاء "، بل كوني مثل " النخلة القَـزْمَة ".
صدمتني جدتي بتشبيهي بشيءً له صفة الحماقة.. وتعجبت من أمر النخلةِ العجيبةِ التي لها صفة القصر والقزامة، ولم أتحمَّس كثيرًا لأن أكون مثلها، من قبل أن أعرف قصتها.. ولا أدري كيف تكون التينة حمقاء والنخلة قزمة؟!
لم تتركني جدتي فريسة لحيرتي طويلًا.. بدأت بحكي قصة "التينة الحمقاء" التي أبدعها خيال الشاعر اللبناني " إيليا أبو ماضي "، المنتمي إلى طائفةٍ من الشعراءِ يطلق عليهم شعراء المهجر.. أو المهاجر؛ لعيشهم خارج أوطانهم.. ومنهم هذا الشاعر الفيلسوف الذي عُرف عنه شعرُ الحكمة، والدعوة إلى التفاؤل و الابتسام، و الإقبال على الحياةِ.. وقد اختار أمريكا مهجرًا.
شجرة التين تلك، قالت لصديقاتها ذات يوم من أواخر الصيف، لماذا أشق على نفسي بحمل الثمار، ولست أنتفع بها بل يأكلها الطيرُ والبشرُ.. وكذلك ظلي.. يستظل به الناس بلا مقابل:

وتينةٍ غضةِ الأفنان باسقة قالت لأترابها والصيفُ يُحتضرُ
أني أكلف نفسي ما فوق طاقتها وليس لي بل لغيري الظل و الثمر

قررت أن تستأثر لنفسها بالخير كله، وبخلت على الآخرين بثمرها وظلها، وكانت مثالاً لصفةِ "الأنانية" و "الأثرة " المذمومتين، بخلاف صفة " الإيثار " الطيبة المحمودة.

جاء الربيع وظلت التينة عارية جرداء من الورق باختيارها الأحمق.. فكان مصير هذه التينة البخيلة معدومة الفائدة، أن قطعها صاحبُ البستان من جذورِها؛ ليستفيد من خشبها كوقودٍ.. وهكذا ساقها حمقها وجهلها إلى نهايتها المحتومة.. فكانت طعمة للنيران:

ولم يطقْ صاحبُ البستان رؤيتها فاجتثها فهوت في النار تستعرُ
من ليس يسخو بما تسخو الحياة به فإنه أحمقٌ بالحرص ينتحر

استغرقتني القصة، وانتبهت على صوت جدتي ووجهها المتبسم:

ـ انتهت الحكاية!

يا لها من حكاية! لا.. لن أكون أبدًا مثل تينة إيليا أبو ماضي.. لن أمنعَ شيئًا بعد الآن يمكن أن يفيدَ منه الآخرون.

ـ وماذا عن النخلةِ القزمةِ؟

أجابت جدتي:

ـ تلك النخلة رأيتها في الحقيقة.. كانت في حديقة بيتنا القديم.. كانت تثمر بلحًا أصفر اللون.. أوحتْ لي بقصةٍ، كتبتها وأنا تلميذة في الابتدائي، في موضوع التعبير، وكان عنوانه: " العطاءُ هو القيمة الحقيقية في الحياةِ ".. أثنى مدرسُ اللغةِ العربيةِ عليها، وكافأني، وكرَّمني أمام زملاءِ الفصل بحضور ناظر المدرسة، وقرأتُ قصتي عليهم.

سرحت بخيالها وكأنها تستدعي الماضي، وتقفُ أمام زملائها في الفصل بحضور ناظر المدرسة و أستاذ "العربي" وشرعت تروي:

"كان ياما كان وما يحلو الكلامُ إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام.. في أحد البساتين، تعيش نخلتان.. كانتا جارتين.. إحداهما طويلة.. سامقة.. مثل أغلب النخلات.. النخلة الأخرى كانت قصيرة.. قصيرة بشكلٍ ملفت للأنظار.. تبدو بالمقارنة بجارتها قصيرة جدًّا.. قزمة.

كانت النخلة الطويلة تنظر إلى جارتها القصيرة بازدراءٍ.. كانت دائمة السخرية منها.. تقول لها: كيف تحسبين علينا نخلة.. نحن أشجارَ النخيل الباسقات؟! لو كنت تحسين لتواريتِ خجلاً ولتمنيتِ أن تنشق الأرض و تبتلعكِ!

تحزن النخلة وتكتفي بالصمت.
ولا تكف النخلة الطويلة عن المباهاة بطولها الفارع:
ـ ما أروع الطول! إنه لأمرٌ رائعٌ ونعمة كبرى أن أكون طويلة.. عالية.. أطاول السماء.. أصاحبُ السحابَ.. أصادقُ النجومَ والقمرَ.. أرى ما لن تستطيعي أبدًا رؤيته.. أرى البط والإوز هناك.. يسبح في النهر.. أرى الحقول البعيدة.. ومئذنة الجامع.. وبيوت القرية!
تغالب النخلة القزمة أحزانها؛ فهي لا ترى شيئًا من تلك المناظرِ السارَّةِ، وستبقى مجهولة بالنسبة لها، محجوبة عنها طوال عمرها.
كان من يمر بالبستان من أهل القرية، يقارن بين النخلتين، فيدهش.. وتقول النخلة الطويلة لجارتها في غرور:
ـ انظري كيف أني عملاقة.. حتى أطولُ الناس يبدون من تحتي اقزامًا.. انظري كيف يتطلعون إليَّ بإعجابٍ واحترام بينما لا يحفلون كثيرًا بكِ.. ربما تثيرين في قلوبهم الشفقة!
مرَّتِ الأيام، وأثمرت النخلتان.. وإذا بالنخلة القزمة تزدحم بالسباطات المليئة بالبلح، بينما خلت النخلة الباسقة إلا من بعضِ البلح الرديء!
هكذا صارت النخلة القزمة حديثَ القرية، بل والقرى المجاورة.. الجميع دهشون.. يقولون: سبحان الله!.. تبارك الله!
نضج بلح النخلة القصيرة.. ذاقه بعض أهل القرية.. اتفقوا على حلاوته غير المسبوقة.. تناقل الناس الخبر.. احتشد أهل القرية من حولها، يريدون شيئًا من بلحها الطيب العجيب.. لم يضن مالك البستان عليهم بثمرها اللذيذ.. ونال كل فردٍ نصيبًا من البلح.
كان البلح وفيرًا جدًّا، دخل جميعَ بيوتِ القريةِ، وأكل منه الفقيرُ والغني.. الصغير والكبير، واستمتعوا بطيب مذاقه، وأعتقد بعضهم انه لن ينفد ببرَكةِ الله!
كانت النخلة القزمة تشكر الله أن حباها بهذه النعم، و تداري سعادتها الكبيرة؛ حتي لا تؤذيَ مشاعرَ جارتها النخلة الباسقة، التي بقيت تحمل تمرَها الرديءَ، دون ان يلتفت إليها أحدٌ، أو يفكر في الاقترابِ منها!

والسلام ختام!
انتهت جدتي من سرد قصتها، أو موضوع التعبير الذي نالت عنه " نصف فرنك" أي قرشي صاغ.. وكان مبلغًا كبيرًا في ذلك الوقت.. قالت وقد امتلأ صوتها بالشجن:
ـ كانت نخلتنا بالفعل كذلك.. كانت أمي في موسمِ البلح توزع منها على الجيران.. وكان الصغار يتقاطرون إلى بيتنا، فلا تزجرهم أمي.. لم تردهم قط خائبين.. كان كل واحدٍ يعود بحفنةٍ من البلح بين يديه، وجيوب ملأى به.
كم كانت نخلة كرمتي كريمة ونبيلة.. كم أعجبتُ بها، وتمنيتُ أن أكون مثلها في.... العطاء!
جعلتُ أعدُو إلى بشيرة و جيهان وميلندا بمجرد سماعي القصة.. جمعتهن.. لعبنا معًا، وتبارينا: من منا تُشكِّل من قطع الموزايكو أجملَ منظرٍ؟ من تكون الأسرع؟ وكانت جدتي لنا حكمًا عادلاً في جميع تلك المسابقاتِ.
لمستُ فرقًا كبيرًا بين اللعب بمفردي واللعب مع صديقاتي.. لم يعد الملل يتسلل إلى نفسي.. كنا نقضي ساعاتٍ نلعب ونفرح، فلا نشعر بالوقت، ولا نسأم أو نتعب.. كنتُ أتمنى أن يدوم اللعبُ طويلاً.. طويلاً!
بعد أيام قلائل اعترفت لجدتي بما حدث، وكيف صارت سعادتي أكبر وأكبر.
ابتسمت وقالت:
ـ ألم أقلْ لكِ إن سعادتنا تتضاعف أضعافًا كثيرة عندما يجعلنا الله سببًا لإسعادِ الآخرين.. وكلما ازداد عددهم، عظمت فرحتنا.. كأن فرحة الذين أسعدناهم تضاف إليها حتى تفيض!
عندما اشترت أمِّي دراجة من أجلي، حرصت أن تشاركني صديقاتي اللعبَ بها.. لقد علمتني هذه السيدة الرائعة؛ كرمة، ألا أقولَ: دراجتي.. أو لعبتي.. ولكن أقول: دراجتنا.. أو لعبتنا.. علمتني أن الأنانية والبخل يجردان النفس من البهجة، والنفس الخَرِبَة لا تسكنها سوى الكآبة والسأم.

رمضانيات

كان شهرُ رمضان يجمعنا، ويأتي أبي وأمي ليفطرا مع جدتي.
قبل موعدِ مدفع الإفطار بدقائقَ قليلةٍ، تفتقدني أسرتي!
في ذلك الوقت، أكون على سطح الفيلا، أشاهد الشمس في أثناءِ غروبها.. يروقني منظرُها، وقرصُها يهبط رويدًا رويدًا نحو الأفق، ويذوبُ بمزيج ألوانه: الأصفر الذهبي، والأحمر الوردي، والبرتقالي.
تنحدرُ الشمسُ بهدوءٍ لتختفيَ وراءَ البناياتِ والمآذن والأشجار.. أحسُّ بها فرحانة في مهرجان جمالها وبهائها.
ينطلق المدفع، وينساب أذان المغرب من الراديو، ومن المساجد البعيدة.. أطلّ على الشارع، فأراه خالياً إلا من رجلٍ يسرع الخطى ليتناول إفطاره وسطَ أسرته، وشابٍ في جلبابٍ كان يوزّع البلحَ على العابرين.
أبقى على السطح حتى انتبه على صوتِ أمي.. تشدّني نداءاتها من سحر الشمس الغاربة، وجلال تلك اللحظات الرائعة التي يتفرَّد بها الشهر الكريم.. أنزل.. تلقاني أمي على السلم عاتبة.. انضم إليهم.. تسألني:
ـ ما سرُّ صعودِكِ للسطح قبل كل مغربٍ؟!
أجيبها:
ـ أحبُّ أن أرى فرحة الشمس وهي تغرب فنفرح معاً!
يدهش الجالسون إلى مائدة الإفطار.
يقول أبي:
ـ مشهدُ الغروبِ يثير في النفس مشاعرَ الحزن والوحشة؛ لأنه يعلن رحيل النهار بضيائه وضجيجه، وحلول الليل بظلامه وسكونه.
توافقه أمي وتقول:
ـ ما أكثر ما كُتب عن أحزان الغروب في رواياتِ الأدباءِ وقصائدِ الشعراء.
أقول محتجة:
ـ للشمس في رمضان أحاسيسُ تختلف عنها في بقية الشهور الهجرية الأخرى!

يبتسم أبي ويسألني:
ـ كيف؟
أجيبه:
ـ الشمسُ الرمضانية تفرح بغروبها ليفطرَ الصائمون، ويرووا ظمأهم، وينالوا أجر الصيام وثوابه العظيم من الله سبحانه وتعالى.. تفرح لتشاركهم فرحهم بتمام صومهم.. وللصائم فرحتان.. فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاءِ ربِّه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.
تقول أمي:
ـ الشمسُ لاتحزن أو تفرحُ يا سهيلة.. نحن نرى الأشياءَ بعيون قلوبنا ومشاعرنا لا بأبصارنا فقط!

أخيرًا تتكلم جدتي:
ـ سهيلة تحسُّ بفرح الشمس لأنها فرحانة بشهر رمضان.
أقول في إصرارٍ:
ـ أنا فرحانة والشمس كذلك فرحانة!
وكدأبها.. تناصرني كرمتي، وتقول:
ـ دعوها لمشاعرها وخيالها ومشاركتها الشمسَ فرحتها!
كنت في السابعة من عمري.. وكانت تخطر لي بعضُ الأسئلة في حصة الدين.. معلمة الفصل تذكر لنا أركان الإسلام الخمسة، و تشرح لنا معنى الصيام، وأحكامه وفوائده، والأعذار التي تبيح الفطرَ، والمفطرات، والأفعال التي تبطل صوم الصائم، أو تنقص من أجره.. سألت المعلمة: لماذا يجب علينا أن نصوم؟
دهشت وأجابت: لأن الصيام فرضه الله على كل مسلم ومسلمة كالصلاة والزكاة.. والمفطر دون عذرٍ سيحاسبه الله ويعذبه يوم القيامة.
رجعت للبيت مهمومة لأني لا أقدر على الصوم، وخفت من عذابِ الله.. بحتُ لجدتي كرمة.. قالت:
ـ أمرنا الله بالفروض كالصوم والصلاةِ والحج؛ لأنه يحبنا، ويريد أن يحرِّرَنا من ذنوبنا، ويدخلنا الجنة، ولأنه لا أجر بلا عمل؛ فقد فرض علينا الصلاة، و كتبَ علينا

الصيام، وبقية العبادات؛ ليرى من سيطيع أمره ومن سيخالفه.. ولأننا نحب الله نجتهدُ في طاعته؛ والامتثال لأوامره، وتجنب ما نهى عنه؛ ليكافئنا بدخول الجنة.. أما أنت فغير مكلفة بالصوم؛ لأنك لا تزالين صغيرة السن.

عَرفت منها أن الصيام كُتب على الأمم السابقة على الإسلام.. وأن الحيواناتِ أيضًا تصوم بإلهامٍ من الله.. وضربتْ مثلاً بالأسود.. تعجبتُ عندما قالت إن الأسدَ يمتنع عن الأكل يوماً من كل أسبوع، لأن طعامه من اللحم فقط، ينتج عنه مادة ضارة بالجسم هي " حامض البوليك "، فيمنح بالصوم جسمَه الفرصة ليتخلصَ منها.

وذكرت جدتي أن الضفادع والزواحف لاتتناول أي غذاءٍ طوال فترة كمونها في فصل الشتاء، المسمَّى " البيات الشتوي "، وأن طيوراً كالبطريق تمتنع عن الطعام أثناء حضانة البيض، وكذلك العناكب.. الأسماك أيضًا تصوم، مثل سمكِ " السالمون " في موسم هجرته الطويل لوضع البيض.

بدأت جدتي تدرِّبني على الصوم في رمضان، وتحببه إلى نفسي، لأعتاد عليه، و لا يشق عليَّ صيامه عندما أكبر.. كانت تسمح لي بالصوم من الفجر حتى الظهر.. كانت تصفُ ذلك الصومَ بـ "صيام العصافير ".. وعندما بلغتُ العاشرة من العمر، بدأتُ في صيام اليوم كاملاً، من الفجر حتى المغرب.. وكم كنت سعيدة لتحوُّلي للمرة الأولى من صيام العصافير إلى صيامِ الأسُودِ!

كم لي من ذكرياتٍ رمضانيةٍ جميلةٍ مع مدام أفروديت وميلندا!

في رمضان تأبي مدامُ أفروديت أن تأكلَ أو تشربَ أمامنا؛ على الرغم من حرارةِ الطقسِ، مراعاة لمشاعرنا، واحترامًا لعقيدتنا، كذلك تفعل ميلندا، حتى ليُخيَّل إليَّ أحيانًا أنهما صائمتان.

وكانت مدام أفروديت تدعو جدتي للإفطار يومًا في بيتها.. وكانت تعدُّ لنا الحلوى كالكنافة والبسبوسة، فقد كانت بارعة في صنع الحلوى الشرقية أيضًا. وبسبب صينية بسبوسة من صنعتها، أفطرتُ بمجرد استيقاظي في الصباح، ولم أتمَّ صيامي، برغم أنني تناولتُ السحور على نية الصوم حتى الظهيرة فقط، كما وعدتُ جدتي؛ فقد كنت لا أزال في مرحلة " صيام العصافير ".

كنت وجدتي في الشرفة.
تطلعتْ جدتي إلى السماء، وقالت ووجهها يتلألأ بالسرور:
ـ أقبلت "روايح" رمضان!
سألت :
ـ أية روائح ؟!
أجابت :
ـ إنها سر من أسرار هذا الشهر الكريم.. دائماً تسبقه روائحُهُ الجميلة!
فكرتُ وقلتُ في نفسي: إذا كان لرمضان روائحُ، فلابدَّ أنها عَطِرَة زكيَّة لامثيل لها!
جعلتُ أتشمّم الهواءَ.. لم أجدْ للجوِّ رائحة غريبة!
أخبرتها بذلك.. ابتسمت وقالت:
ـ روائحُ رمضان هي علاماته التي تدلّ عليه وما أكثرها!
وطلبت إليَّ أن أتأمّل السماء و الحياة من حولي لأتعرَّفها!
رحتُ أتطلّع إلى السماء.. شعرت أن الكون ينعم بصفاءٍ وطمأنينةٍ، ويبعث في قلبي بهجة وسكينة.. لكأن الدنيا تتأهب لاستقبالِ حدثٍ عظيمٍ، وتهيئ من أجله النفوس.
أحسست أنني أتنفسُ النور، فجعلتُ آخذ أنفاسي بعمقٍ!
في مساء اليوم التالي جلسنا أمام التلفاز نشاهد احتفال دارِ الافتاءِ باستطلاع هلال الشهر الفضيل.. أعلن فضيلةُ المفتي ثبوت رؤية الهلال.. فتهلل وجه جدتي وقالت :
ـ أتانا رمضان بالغفران والبركاتِ.. أعاننا الله على حسن صيامه وقيامه وتقبَّل منا، وأعاده علينا وعلى أمة الإسلام باليُمْنِ والهناء!
انطلقت أغنياتُ زمن الفن الجميل: "رمضان جانا وفرحنا به بعد غيابه.. أهلاً رمضان" و " وحوي يا وحوي".. و "مرحب شهر الصوم".
قالت جدتي:
ـ هيا نخرج إلى الشوارع.. لنبحث عن رمضان وروائحه في الأحياءِ الشعبيةِ!

لم تكن جدتي تريد لي حياة العزلة في الفيلا الهادئة.. كانت تحرص في بعض المناسبات على اصطحابي إلى أماكن وأوساطٍ مختلفةٍ، وطبقات متباينة؛ لأتعرف أنماطًا جديدة من الحياة والناس.. كانت تسحبني برفقٍ وهوادةٍ إلى قلب المجتمع. خرجنا.. أخبرتني ونحن في الطريق أن قشطة وفواكه تسكنان في حي شعبي واحدٍ على أطراف مصر الجديدة، وأنها زارتهما في مناسباتٍ عديدةٍ.. شهدتْ زواج ابن قشطة من والدة بشيرة.. واحتفلت معهما بمولد شحاتة أول أبنائهما و كذلك بشيرة.. وذهبت إلى فواكه في مناسباتٍ مختلفةٍ.

كنا نمشي.. كنتُ أسبقها بخطوتين.. بأربع.. ثم بخطواتٍ كثيرةٍ.. أنتبه فجأة.. أفتقدها.. أكتشف أن مسافة طويلة صارت تفصلنا، فأتوقف لانتظارها.. نصحتني بتهدئة خطوي، والقصد في مشيي.. و أن يتوافق سيري مع من يسيرُ معي؛ خاصة إذا كان من كبار السن، فلا أتجاوزه و أسبقه، أو أسرح أو يشغلني شيءٌ فأتخلف عنه، وقالت:

ـ ربَّما يتوه أحدُنا عن الآخر.. فإذا حدث وافتقدتني، فقفي في مكانكِ و لا تبارحيه، حتى أعودَ إليكِ.. لا تكوني يا سهيلة مثل " رشيق الخطى" أو " خفيف الخطى"! سألتها من يكون؟ و هل هو شخصٌ أعرفه؟ أجابت:

ـ لا بدَّ أنكِ صادفتِه مرارًا من قبل في الطريق ولم تفطني إليه.. و لسوف ترينه كثيرًا في المستقبل.. وقد تشاهدينه اليوم وربَّما يكون معنا الآن!!

انتابتني الحيرة.. وأخذتُ اتلفت من حولي لعلني أراه فلم أجد أحدًا.. ضحكتْ جدتي وقالت:

ـ علام تبحثين.. لن تدركي رشيق الخطى قبل أن تعرفي قصته!

ـ أهو موجودٌ في الحقيقة أم في قصة من القصص؟

أجابت جدتي:

ـ فيهما معًا!

حدَّقتُ إلى جدتي حائرة.. وكعادتها لم تتركني لحيرتي.. أخبرتني أنه شخصية أبدعتها كاتبة أطفال إنجليزية رائعة، اسمها " إنيد بلايتون "، تعدُّ مؤلفاتها من أكثر الكتب مبيعًا منذ ثلاثينيات القرن العشرين.. بيع منها ملايين كثيرة من النسخ ، وتُرجمت

إلى معظم لغاتِ العالم.. وقد قرأتْ لها جدتي في طفولتها، وعلقت بذاكرتها قصة "الجني الصغير الرشيق الخطى، وحذاؤه العجيب "!

قلت في لهفةٍ:

ـ أسمعيني قصة رشيق الخطى يا جدتي!

قالت:

ـ اصطبري يا سهيلة.. سأرويها لك في البيت عندما نعود!

نبَّهتُ جدتي إلى أننا تجاوزنا محطة المترو.. ابتسمت وقالت:

ـ عارفة!

وأخبرتني أننا سنقطع المسافة سيرًا على الأقدام.. لأن في المشي فوائدَ عديدة!

رددت:

ـ عارفة!

وذكرتُ لها أن المشي يفيد القلب والرئتين والدورة الدموية، ويحافظ على رشاقة الجسم.

وافقتني وقالت:

ـ هذا من الناحية البدنية.. المشي مهم من الناحية النفسية أيضًا.. فهو يروِّح عن النفس، ويطرد الكدرَ والحزن.. وأنا لا أعني المشي المتعجل الأرعن، بل المشي المعتدل، الوسط بين الرعونة والبطءِ الشديد.. وأنا أحبّ المشي المطمَئِن المتمهل الذي يتيح للسائر التأمل والتبصر.. علمني أياه زوجي الدكتور فهمي.. وبسببه رأى الشجرة الاستوائية في حديقة أبي وتزوجني، واكتشف نباتًا بريًّا ينمو بجوار شريط القطار عندما كان مسافرًا ذات يومٍ، فأخذ بعضًا منه، واستخرج منه مادة زيتية عطرية تفيدُ الكلى!

مشينا نحو نصف الساعة.. بدأ هدوءُ الشوارع يتحوَّلُ تدريجًا إلى صخبٍ، واتساعها إلى ضيق.. كانت تموج بالناس كبارًا وصغارًا.. يتصافحون بمودةٍ بالغة.. يتبادلون التهاني بأطيب الكلام، ووجوهم تشرق بالفرحةِ الصادقةِ، ويقول بعضهم لبعض: "رمضان كريم".

كانت عقودُ الزيناتِ واللمباتِ الملونةِ تمتدُّ بعرض الشوارع والحارات، و تتدلى منها

مساجد صغيرة، أو فوانيس بديعة يشع منها النور .
مررت بالمتاجر الفوَّاحة برائحة البخور وقد عمرت بالبضائع.. التمرُ بأنواعه، واليراميش من بندقٍ ولوزٍ وعينِ جملٍ.. هاهو بائع الكنافة والقطايف يعدّ أدواته للعمل.. بعضُ الصغار واقفون عند شادر الفوانيس؛ ليكملوا فرحتهم بشراءِ فانوسِ رمضان.
انعطفنا في حارة.. توقفت جدتي أمام منزل صغير من طابقين.. أخبرتني أن قشطة تقطن في طابقه الأرضي.. طرقتُ البابَ.. فتحته بشيرة التي جاءت لتحتفلَ برمضان مع جدتها.. فرحتْ بنا، ونادتها.. جاءت قشطة واستقبلتنا بحفاوةٍ.. تبادلنا التهاني والدعوات الطيبة بالخير.. شربتْ معها جدتي الشاي، وأعطتها نقودًا لشراء احتياجاتِ رمضان.. كذلك زرنا فواكه في بيتها القريب، ومنحتها جدتي مبلغًا من المال بهذه المناسبةِ.
في طريق عودتنا، تمهّلتُ في سيري؛ لأستمعَ خاشعة لآياتٍ قرآنيةٍ تأتي من مذياعٍ قديمٍ عند بائعة فاكهة عجوزٍ على ناصية حارةٍ، وعلى مدخل حارةٍ مجاورةٍ، وقف بائع فول مدمس بعربته وحماره.. تلوح فوق العربة قدرتان، إحداهما للفول والأخرى للبليلة.. ينفخ في صافرته و ينادي طِرَبًا: فول.. بليلة!
حققتْ جدتي أمنيتي التي تراودني و لم أبحْ بها.. أعطتني نقودًا وكلفتني بشراء الفول والبليلة ليكونا على مائدةِ السحور.. اشتريتُ فولاً وبليلة من البائع، وكان لطيفًا معي.
كنت حريصة جدًّا على الجلوس مع جدتي على مائدتي السحور والإفطار على الرغم من أني كنت صغيرة لا أتحمَّل الصومَ .. وأؤكد على جدتي أن توقظني في السحور.
وبينما نحن نسير سمعت دقَّاتِ طبلة " المسحراتي "، وصوته الرخيم يدعو الناسِ للسحور، ويتوقف أمام البيوت ينادي على ساكنيها بأسمائهم اسمًا.. اسمًا.. السحور يا أم سيد .. السحور يا حاج جمعة.. السحور يا عبادَ اللهِ!
كانت رحلة ليلية ممتعة.. سألتني بعدها جدتي:
ـ هل وجدتِ شهر رمضان الحقيقي يا سهيلة؟!

أجبتها والنشوة تسري في كياني:
ـ نعم وجدته هناكَ.. في الشوارع الحارات.. وعند ناسها الطيبين!
يالروائح رمضان وروعتها في كلِّ مكانٍ!
تراها بعينيك، وتسمعها بأذنيك، وتشمُّها، وتلمسها، وتذوقها، وتسري في رُوحِك ووجدانك!
صدقت جدتي.. فما أكثرَ روائحَ رمضانَ!

الحذاءُ العجيبُ

لم أستطع النوم، بعد عودتنا من جولتنا وزيارتنا لقشطة وفواكه.. كنت أتوق إلى معرفة حكاية خفيف الخطى.

كان لجدتي طقوسٌ خاصة تؤديها قبل الحكي.. منها أن تعدَّ لنا كوبين من مشروب الينسون، أو الكاموميل (زهرة البابونج)، أو أوراق التيليو (الزيزفون)، المحَلَّى بعسل النحل من أجلى، وبالقليل منه لها.. أعتقد أنها كانت تختار تلك المشروباتِ اللطيفة المهدئة؛ لتساعدني على النوم بعد سماع الحدوتة.. لكنها استبدلت بها هذه المرَّة شرابَ " الخُشاف "[10] بمناسبة رمضان.

تُطرِقُ جدتي لحظاتٍ.. تغمض عينيها متخذة من راحة يدها متكأً لخدها، على طريقة الشاعر أحمد شوقي، كأنها تستحضر الحكاية وتستجمعها.. تنتبه وتبدأ في سردِها.

قالت جدتي بعد الصلاة على نبينا الهادي المختار:

" يحكى فيما مضى عن جنيٍّ صغيرٍ، نافد الصبر، يُدعى " خفيف الخطى ".. هذا الاسم كان مناسبًا له تمامًا.. فقد كان سريعًا جدًّا في مشيه، حتى أن أصدقاءه كانوا يضحكون من طريقتِه الغريبةِ في المشي، ويقولون: خفيف الخطى لا يمشي.. إنه دائمًا يقفز و يجري!

بالفعل كان خفيف الخطى يسرع في سيره، ويظن الآخرين سريعي الحركة مثله.. وأكثر ما يثير ضيقه أن يعترض طريقه أحدٌ أو أي شيءٍ بطيءٍ.. مهما يكن.. كان يكره السير خلف عربات اليد.. أو وراء أم تدفع عربة أطفال بصغيرها.. أو خلف السيدات العجائز.. لم يكن يتمهل قط، حين يمشي بجوار شيخ مسن، لا تكاد تقوى رجلاه الضعيفتان على حمله.. طبعًا لم يخطر بباله ولو مرة واحدة أن يأخذ بيدِ عجوز، ويسير معها واحدة واحدة، ويساعدها على عبورِ الطريق.

كان خفيف الخطى يعيش مع عمته اللطيفة التي لها شعر أبيض كالثلج..

10 الخُشَافُ: شراب يُعملُ من الزبيب والتين وغيرهما من الفواكه بعد نقعها أو إغلائها في الماء.

كانت تغضب منه وتلومه على نفاد صبره مع من هم أبطأ منه، وفي إحدى المرات قالت له:

ـ رفقًا بكبار السن.. إنهم لا يستطيعون أن يسرعوا في السير كما تفعل.. سوف تصير عجوزًا ذات يومٍ.. ولسوف تدرك عندئذٍ، كم هو شاق عليك الإسراع في السير!

رد عليها ساخرًا:

ـ أوه!.. عندما أصبح عجوزًا فسوف أبقى رشيقًا مثلما أنا الآن.. لن تريني أعرج في مشيتي، وأحتجز الماشين من خلفي على الرصيف.. لن يحدث ذلك أبدًا!

خرج خفيف الخطى وصفق الباب وراءه في عنفٍ، وهو الفعل الذي تستاءُ منه عمته كثيرًا.

انطلق إلى السوق.. و في الشارع، اصطدم بسيدة تدفع عربة يدٍ أمامها.. صاح:

ـ أف.. عرباتٌ مزعجة.. وسيدة بطيئة مملة.. أظن الناس يبطئون في مشيهم متعمدين، كم أضيق بهم!

كان الرصيفُ مزدحمًا بالمارة، وأمام خفيف الخطى سيدة عجوز طويلة القامة، ممتلئة الجسم، تمشي معتمدة على عصاها.. اندفع وسط الزحام، يحاول ان يشق طريقًا له، ويتخطاها، فدفعها بقوة، وكاد يوقعها على الرصيف.. صاحت غاضبة:

ـ من يكون هذا العَجول الطائش، النافد الصبر الذي كاد يسقطني؟ جني صغير.. أيصح أيها الجني أن تدفع عجوزًا لتتجاوزها، بكل هذه القسوة؟!

قال خفيف الخطى بفظاظةٍ:

ـ أنا مستعجل.. وانت بطيئة جدًّا بشكلٍ ممل!

قالت العجوز وهي تدق الأرض بعصاها:

ـ أنت وأمثالك تحتاجون إلى درسٍ قاسٍ يعلمكم كيف تترفقون بالعجائز!

لم يكن خفيفُ الخطى مستعدا لسماع كلمة توبيخ واحدةٍ.. ترك العجوز ومضى في طريقه بلا مبالاةٍ.

انتهى ذو الخطو الرشيق من التسوُّق.. مرَّ بحديقةٍ جميلةِ الزهور.. استهواه منظرها، فراح يمرح بين أشجارها في سرورٍ، ويشاهد الأرانبَ البريَّة وهي تقفز هنا وهناك، حتى شعر بالتعب.. استلقى تحت شجرة، وغاب في نومٍ عميقٍ.

لم يشعرْ بالعجوز البدينةِ الطويلةِ وهي تتسلل نحوه، ولم يسمعْها تهمس: هو ذا الجني القاسي القلب!

كذلك لم يشعر خفيف الخطى بها وهي تخلع حذاءه من قدميه، وتخفيه في حقيبتها.. وتضع إلى جواره حذاءً أحمرَ برَّاقا رائعَ المنظر.. لم ينتبه لكل هذا لأنه كان مستغرقًا في نومه.. وكم كانت دهشته عندما صحا ووجد قدميه بلا حذاءٍ.. رأى الحذاءَ الجميل، فدهش.. أعجبه الحذاءُ فنهض فرحًا وقال:

ـ ما أجمله من حذاءٍ! أظنه هدية من أحدٍ ما!

وفي الحال لبس الحذاءَ ووجده على مقاسه تمامًا!

مشى مسافة قصيرة، وكان كل شيءٍ على ما يُرام.. ابتسم خفيف الخطى وقال:

ـ حذاءٌ فاخرٌ بلا شك.. سيغبطني أصدقائي عليه!

واصل سيره، وشيئًا فشيئًا بدأ يحس بشيءٍ غريبٍ.. الحذاءُ ثقيل في قدميه.. ويزداد ثقلاً كلما سار.. صار ثقيلاً إلى حد مفزع لا يُطاق.. جعله يمشي بصعوبة بالغة!

قال في دهشةٍ شديدةٍ:

ـ ما لهذا الحذاء ثقيلاً جدًّا كما لو كان مصنوعًا من حديدٍ.. أنني لا أتحمله.. سأخلعه!

لكنه لم يستطعْ انتزاعَه من قدميه.. كان الحذاء يطبق عليهما بإحكامٍ شديدٍ جدًّا.. وامتلأ بالخوف عندما وجد أنه من المحال خلعه.. لم يكن في وسعه إلا أن يواصل سيره إلى البيت.

ظلَّ الحذاء يؤلمه؛ لأنه محكم جدًّا على قدميه ويضغطهما بشدة.. كان ثقيلاً مثل الرصاص.. كان شيئًا فظيعًا.

وجد خفيف الخطى نفسه يعرج ويمشي ببطءٍ شديدٍ جدًّا.. كأنه يجرُّ كيسين كبيرين من الرمل مربوطين إلى قدميه.. فقال وهو يئن من الألم:

ـ لو كان عندي عصا أتوكأ عليها!

وقطع فرعًا من شجرة وسار متوكئًا عليه.. وهو يعرج.. يعرج.. مثل عجوزٍ.. عجوزٍ!

كان الناسُ ينظرون إليه دهشين ويتساءلون: ماذا حدث لخفيف الخطى؟.. كان

دائمًا يجري.. لكنه الآن يعرج.. ويتحرَّك بطيئًا.. وبعصا.. ما الحكاية؟!.
أسرعوا إليه، وساعدوه في السير.. عامله الجميع بلطفٍ وصبرٍ، ما عدا شخصًا واحدًا.. السيدة البدينة الطويلة؛ العجوز التي وضعتْ له هذا الحذاءَ بعد أن اخذت حذاءه.. ابتسمت عندما رأته يعرج، وقالت له:
ـ يبدو أنك صرت عجوزًا فجأة.. ما رأيكَ الان؟.. أليس جميلاً أن تمشي بقدمين ثقيلتين و ببطءٍ على الرغم منك؟
احمرَّ وجهه خجلاً.. تذكر انه كان فظا وقاسيًا مع هذه السيدة.. لقد صدمها.. وهو الآن يمشي مثلها.. بل أبطأ منها!
عاد خفيف الخطى إلى البيت، ففزعتْ عمته لما رأته على هذه الحال، وأصغت إليه وهو يحكي لها ما حدث.. قالت له:
ـ هذا حذاءٌ مسحورٌ.. وُضع لك ليعطيك درسًا.. ولن يسقط عن قدميك قبل أن تتعلم الدرس جيدًا!
بقي خفيف الخطى يعرج ويتالم أسبوعًا كاملاً،وأصدقاؤه يعاملونه بعطفٍ ومودةٍ، ويساعدونه في المشي.. وفي نهاية الأسبوع كان قد تعلم الدرس جيدًا.. واعترف قائلاً: "كم كنت سيئًا ونافد الصبر مع كبار السن ومن يسيرون في بطءٍ.. عرفت الان كم يعانون.. وكان أصدقائي كرماءَ معي.. أنا خجل جدًّا من نفسي.. وآسف جدًّا!
وبمجرد ان قال ذلك سقط الحذاءُ عن قدميه من تلقاءِ نفسه، وتكسَّر إلى قطعٍ صغيرة.. واختفى تمامًا.
استطاع خفيفُ الخطى أن يمشيَ بسهولةٍ من جديدٍ.. لكنه صار لطيفًا مع العجائز وكبار السن.. يصبر عليهم ويرفق بهم ويساعدهم ويقول في نفسه:" أنا محظوظ؛ لأني صغيرُ السن وخفيفُ الحركةِ.. فلأساعدهم!
وهكذا صار الناس يحبونه ويفرحون حين يلقونه في الطريق.
بعد استماعي لقصة الجني عرفت من رشيق الخطى الذي كان معنا ونحن في الطريق!!

القرَّاص

لا أنسى حكاياتِ جدتي التي أطلق عليها: "حكايات من وحي المزرعة".
مزرعة جدي أو أيكة الدواءِ، تحتل مساحة واسعة من الأرض، وهي شبه معزولةٍ عن بقيةِ الحديقةِ.. محاطة بسور حديدي مرتفع، يقوم على قاعدة واطئة من الحجر الجيري، له بابٌ جانبي يغلق بسلسلةٍ متينةٍ وقفل كبير.. تكفلت بسدِّ الفراغاتِ ما بين قضبان السور غصونُ أشجار الياسمين، واللبلاب، وكأنها تزيدُ من غموضِ ما وراءه، وتصون أسراره.. سمعتُ فواكه بالمصادفة تحذر جيهان من الاقتراب من المزرعة؛ لأنها شاهدت فيها ثعلبًا، بينما كانت فوق سطح الفيلا تنشر الغسيل.
وقال عم خضير الجنايني العجوز، إن المزرعة مأوى للخفافيش.. تنام طيلة النهار، متعلقة بأرجلها في فروع الشجر ورؤوسها إلى أسفل، فإذا حل الليلُ وعمَّ الظلام، طارت بالعشرات لتبحث عن فريسةٍ لها.. و زعم أن الخفاش منها يلتصق بوجه الإنسان، ويمتص دمه، ولا يتركه إلا بقرع الطبول!
أما بشيرة فأقبلت ذات مساءٍ من المطبخ لاهثة.. قالت لي إنها شاهدت من الشباكِ أشباحًا وعفاريتَ تتقافز في الظلام كالقرود بين أشجار المزرعةِ!
انطلقتُ معها إلى المطبخ، ونظرتُ متوجسَّة، مقشعرة، فلم أشاهد شيئًا سوى ظلمةٍ مخيفةٍ تخيمُ على المزرعة.
حكيتُ لعم شبيب حارس الفيلا ما سمعتُ، وقد كان رجلاً ودودًا يعيشُ الحياة على سجيته.. سألته إن كان قد رأى شيئًا غريبًا في مزرعةِ جدي.. يضحك في استغرابٍ ويقول: لا شيء من ذلك.. لا ثعالب.. ولا عفاريت.. ولا وطاويط.. كيف تدخلها وعليها حارسٌ مخلصٌ أمين يسهر على حمايتها؟!
ظننتُ عم شبيب يقصد نفسَه؛ بحكم عمله في حراسةِ البوَّابةِ والبيت عامة.. وإذا به يقول بصوتٍ خفيضٍ، كمن يفضي إليَّ بسرٍّ خطير: كل مكان مهجورٍ له حارسٌ من الثعابين، وهذه المزرعة تحرسها حيَّة رقشاءُ بجناحين! لم يتلفظ عم شبيب بكلمةِ رقشاء بالطبع، لكنه وصف جلدها بأنه منقط بنقط سوداء.. أي رقشاء.

كانت جدتي كرمة هي ملاذي الأخير الحصين على الدوام.. ذات ليلةٍ شتويةٍ باردةٍ أرى حلمًا مزعجًا، تطاردني فيه الخفافيش.. أصحو فزعة.. أجري إلى جدتي، أرتمي في حضنها.. تحس بدقات قلبي المتواثبة.. تستشف أن شيئًا ما يريعني.. تمسحُ على شعري.. تسألني ما بي؟ أبوح لجدتي.. صديقتي الصريحة الصدوقة.. أحكي لها عن الخفافيش مصَّاصة الدماء التي تلتصق بالوجوه، ومطاردتها لي.. تعجبُ.. تضحكُ عندما أخبرها أن عم خضير هو القائل.. تقول:

ـ الخفافيشُ تسكن الأماكن المهجورة.. ومن الجائز أن تحلِّق ليلاً في المزرعة، وأن تطيرَ إلى حديقةِ الفيلا.. وليس هناك ما يدعو إلى الخوف.

أقول بقلبٍ وجلٍ يترجَّى الطمأنينة:

ـ منذ سماعي عن الخفافيش التي تمتص الدم وأنا خائفة من السير في الحديقةِ بالليل، وأغلق النوافذ بإحكامٍ، وأرى الكوابيس في نومي!

تقول جدتي:

ـ اطمئني يا سهيلة ونامي واهنئي.. الخفاش "مصَّاص الدماء" موجودٌ في الحقيقة، لكن تخلو منه بلادنا.. يستوطن دولاً بعيدة كالمكسيك و البرازيل والأرجنتين وشيلي.. يهاجم الأبقارَ والخيول والطيور، ويتغذى على دمها.. ونادرًا ما يكون ضحيته إنسان نائم ، أما الخفاش الذي يوجد هنا، فمن النوع "آكل الفاكهة"، يتغذى على ثمار مثل الجوافةِ والمانجو، ويتسبب في خسارة أصحابِ الحدائق.. وهو بخلاف نوع آخر يأكل الحشرات.

وقالت إن ما يشاع عن التصاق الخفاش بالوجوه خرافة، فلا حاجة لدقِّ أي نوع من الطبل لانتزاعه.

ـ وماذا عن الثعالبِ؟

أجابتني جدتي:

ـ الحيوانات كالثعالبِ والذئابِ تعيش في الحقول والزراعاتِ الواسعةِ، قريبًا من القرى، لتتسللَ إليها، وتفترسَ الدواجن والحملان.. توجد بقايا من الأراضي الزراعية في الضواحي من حولنا، فليس هناك ما يمنع من وجود ثعلب هارب، أو ذئب مُطارَد، ساقته ظروفه الصعبة إلى هنا، فاختبأ في المزرعةِ!

ـ بشيرة شافت عفاريتَ هناك!
ـ البنت بشيرة رقيقة وخيالية، وهي متأثرة بكلام جدتها عن الكائناتِ الخفيَّةِ.. والإنسان الذي يخاف من شيءٍ، ويتوقع ظهوره له في أيةِ لحظةٍ، يصبح لديه استعدادٌ ذهني لرؤيته متمثلاً في أي شيء آخر.. وبالتالي يتراءى له ويتوهم وجوده! لا بد أنها رأت طيورًا تتنقل ما بين الأشجار، حوَّلها خيالها إلى أشباح.. وصدقَ المثل القائل: من يخفْ من العفريت يطلعْ له!
ـ وأفعى عم شبيب.. الحارسة الرقطاء المجنحة؟
استغرقت في الضحك وقالت:
ـ وما وظيفة شبيب إذن؟ هل عيَّنها نائبة له؟!
قلت لها إن دورها هو حراسة المزرعة فقط!
قالت:
ـ شبيب رجلٌ شديدُ الطيبةِ والوداعةِ.. ما زال على فطرته.. هناك أقاويل تتوارثها الأجيال، تحكي عن كنوز تحرسها الثعابين الكبيرة.. شبيب يعتقد في صحَّتها بحسن نية.. بل ويأمل في الوصول إلى كنزٍ يومًا ما!
صرت نصف مقتنعة بآراء جدتي بشأن مزرعة الأسرار تلك.. كان الشك يساورني؛ فمادام الأمر ليس على درجةٍ كبيرةٍ من الخطورةِ، فلماذا السورُ الفاصل والبابُ المقفول؟!
قلت لجدتي:
ـ لم لا يُترك بابُ أيكةِ الدواءِ مفتوحًا على الدوام؟!
فكرت جدتي قليلاً ثم أجابت:
ـ كما ترين: الأيكة امتدادٌ لحديقة الفيلا.. والحديقة فسيحة غناء والحمد لله.. فلا حاجة لنا إلى المزيد.
ـ ولماذا يقتصرُ دخولُها على عم خضير؟!
ـ هذا عمله.. سقي الأشجار والاعتناء بها.
ـ لمَ لا تأخذيني في زيارةٍ قصيرةٍ لها؟
ردَّت جدتي في شيءٍ من الحدَّة لم اتعوَّدها منها:

ـ قلت لكِ يكفينا الحديقة!
أحسستُ أنها تريد أن تنهيَ الحوارَ حول هذا الموضوع.. يبدو أنني أكثرتُ من أسئلتي وأثقلتُ عليها.. عجبتُ لنفسي: كيف لم تراودني بجدِّية فكرة دخول تلك المزرعة من قبل، وهي على بعد خطواتٍ قليلةٍ مني، مع إقامتي شبه المستديمة مع جدتي بمصر الجديدة؟!
لماذا لا يدخلها غير عم خضير الجنايني وحده، حتى صار الأمر عُرْفا بيننا؟ لِمَ لَمْ تصحبني جدتي إليها ولو مرة واحدة، ولا أعرف إن كانت تزورها في غيابي أم لا؟ ومن الغريب أنني لم يخطر ببالي سؤالها يومًا : لماذا تنتهي جولاتنا في الحديقة عند حدودِ المزرعةِ؟
صرتُ أهفو في قرارة نفسي إلى مغامرة بين أدغالها، لاكتشاف أسرارها، و حَمِيَ الصراعُ في داخلي بين الرهبةِ والرغبةِ.. أتنقصني الشجاعة وعزيمة الإقدام أم أنني أنتظرُ فقط الفرصة؟!
و قُدِّرَ لي دخولُ " أيكة الدواء "، بلا ترتيب مني، ولكن بمحض الصدفة، وكان يومًا حافلاً بأحداثه التي لا تنسى!
كنتُ حينئذٍ تلميذة بالصف الخامس الابتدائي، وكانت مدرستي في منيل الروضة، على مقربةٍ من شقة والدي في الحي نفسه.
و كان لالتحاقي بهذه المدرسة بداياتٌ حزينة أذكرها جيِّدا.. حين بلغت سن المدرسة ، دارت مناقشاتٌ طويلة بين أبي وبين جدتي كرمة، وثار الخلافُ حول مكان المدرسة.. كان أبي راغبًا في إلحاقي بإحدى مدارس منيل الروضة حيث شقتنا، وكان مصرًّا على رأيه.. جدتي كانت موزعة بين حبها لي، و رغبة والدي.. أمي اتخذت موقفَ الحيادِ وتركت لي حرية الاختيار.. كنت أريد البقاءَ مع جدتي، ولم أتصوَّر انني يمكن أن أفارقها يومًا.. تمسَّكت برأيي وبكيت.. جدتي كرمة الصلبة العنيدة لم تبدِ مقاومة كبيرة.. وافقت على التخلي عني، واعتقدتُ بأنها خذلتني، فكانت صدمة كبيرة لي.. لازمني هذا الاعتقاد، حتى فسَّرت لي جدتي الأمرّ عندما صرتُ في سن أستطيع معها الرؤية البعيدة، والتقدير الصحيح للأمور، وعرفتُ أنها كانت محقة وبعيدة النظر.

كانت تحترم كلام والدي؛ وهو رجل قانون طلق اللسان مقنع الحجة واضح البرهان.. جدتي رأت أن مصلحتي في هذه السنِّ أن أعيش بين أمي وأبي، وأن احتياجي إلى رعايتهما ، وخاصة رعاية أمي، سيزداد مع مرور الوقت.. كانت تنشد لي نموًا نفسيًّا طبيعيا، فلا تنشأ بيني وبين أبويَّ فجوة تتسع مع الزمن، تصير جفوة، تنتهي إلى جمودٍ في مشاعري نحوهما، ويصبحان كأنهما غريبان عني.

حجة قوية ساقها والدي أضعفتْ موقفَ جدتي؛ هي قربُ مدرسة المنيل من سكننا هناك، على النقيض من مدرسة مصر الجديدة، التي يصعب الوصول إليها بغير وسيلةِ مواصلاتٍ، مع في ذلك من تعبٍ وتعرّضٍ للأخطار.

لمس أبي بذكائه نقطة ضعف جدتي ناحيتى؛ وهي حرصها الزائد على راحتي وسلامتي، فوافقته على رأيه.

أخذتُ ألين شيئًا فشيئًا مع وعودِ أبي وأمي وجدتي، بالسماح لي بقضاءِ العطلات وإجازة نصف السنة والإجازات الصيفية مع جدتي في مصر الجديدة؛ لوثوقي بهم جميعًا.

و بالفعل كانوا يوفون بوعودهم، فكانت أمي توصلني بالسيارة، واحيانًا أبي، إلى بيت جدتي أيام العطلات.

كان إلحاقي بمدرسة المنيل نقلة مفاجئة في حياتي وأنا لم أزلْ صغيرة.. وكان انتقالي للعيش مع أبويَّ في شقتنا هناك يمثل لي معنى الغربة و الافتقاد على الرغم من وجودي بينهما.. لم أفارق جدتي فحسب، ولكنني افترقت عن صديقاتي بشيرة وجيهان وميلندا.. وافتقدت كذلك مدام أفروديت وقشطة وفواكه، وعم خضير وشبيب البوَّاب.. وغابت عني أشياءُ كثيرة عزيزة على نفسي.. الفيلا بكل ما فيها.. شجرة الليمون.. القطط.. ساعة الحائط العتيقة ودقاتها، عصا جدتي.. نظارتها.. ابتسامتها حين تطلب مني إحضار العصا أو النظارة، عندما تنساهما في الحديقة أو المصلى.... و أشياء كثيرة لا نهاية لها.

وصدقت جدتي حين قالت: ارتباط الإنسان بمكان ما يشمل الأحياءَ والجماداتِ على السواءِ.

احتجتُ بضعة أسابيع لأخرج من أحزاني وكآبتي، وأتأقلم مع وضعي الجديد..

ساعدني في ذلك جهود أمي وأبي.. أمي أخذتِ الأمرَ بجديةٍ شديدةٍ، مرتكزة على خلفيتها العلمية كمدرسة لعلم الاجتماع بالجامعة، وإلمامها بعلم النفس.. شرحت حالتي لأبي ومعلماتِي، والاخصائية الاجتماعية للمدرسةِ، فعاملوني برفق وحببوا إليَّ المدرسةِ.. واصطحبني أبواي في نزهاتٍ على النيل؛ للترويح عني وإسعادي.. زرنا معا لمَ المنيل، كمقياس النيل بالروضة، ومتحف أم كلثوم، والقصور التاريخية، والأشجار المعَمَّرَةِ، التي تنتشر في الشوارع.. بدأتُ ارتبط أكثر و أكثر بشقتنا وبالحي الذي نسكنه، وعقدتُ صداقاتٍ جديدةٍ بيني وبين زميلات فصلي، وجاراتي، وكان فيما حدث تهيئة نفسية لي على تحمل عناء الافتراق والاغتراب عن الوطن، طوال سنوات إقامتي مع أبويَّ في سلطنة عُمَان الشقيقة.

وعن حكاية دخولي المزرعة أوَّل مرةٍ، فكانت البداية ذهابي لتمضيةِ إجازة نصف العام مع جدتي.. كنت ألعبُ مع صديقتيَّ بشيرة وجيهان فوق العشب النضير، و نتقاذفُ الكرة في مرحٍ وابتهاجٍ.. اكتفت جدتي بمتابعتنا، بعد أن شاركتنا اللعب كالمعتاد لفترةٍ قصيرةٍ.. كان يبدو عليها الإرهاق، وأحسستُ أنها ليست على ما يُرام.. وكعادتها أخفتْ عنا ما بها؛ كيلا تعكرَ صفوَنا.

قامت جدتي وقالت إنها ستصعد إلى حجرتها لتغفوَ قليلاً، و نصحتنا أن نواصل اللعبَ بهدوءٍ، وأمرتنا أن نلزم مكاننا الذي تعودنا أن نلعب فيه، وألا نغادره إلى موضع آخر.

بعد نحو خمس دقائق من ذهاب جدتي، همست لنا بشيرة بأنها تعرف مكانًا أجمل من ملعبنا المألوف، و اتفقنا أن نجرِّبَ اللعبَ هناك.

ذهبنا إلى المكان الجديد.. كان بالفعل جميلاً وظليلاً، يكسو أرضه النجيل الأخضرُ المشذبُ المستوي كالبساطِ الوثير.. استأنفنا اللعب.. لم يكن يشغلني سوى الاستمتاع واللهو، قبل أن أفارق جدتي وصاحباتي بعد بضعة أيامٍ، وأمضي إلى شقة المنيل.

وبينما نلعبُ، ونتخاطف الكرة، إذا بجيهان تقذفها قذفة قويَّة.. أخذنا نتابعُها بأنظارنا وهي تتجه طائرة كالقذيفة نحو سور المزرعةِ.. تمنت جيهان و بشيرة لحظتها لو أنهما ملكتا قوة سحرية لتغيير مسارها أو إيقافها.. ولكن هيهات! يا

لسوءِ الحظ! الكرة وقعت في المزرعة!!
حلت الكارثة ووقفنا مشدوهاتٍ .. الكرة الآن في المزرعة.. والكرة أحضرتها بشيرة لنلعب بها.. و بشيرة لا تملك الكرة.. الكرة لشقيقها الأكبر شحاتة.. وشحاته سافر في الصباح الباكرِ مع أبيه لزيارة عمَّه في الفيوم.. انتهزت بشيرة الفرصة.. تسللت بها من بيتهم في غفلةٍ من أخوتها، وادعت لنا أنها اشترت كرة جديدة.. اكتشفنا الآن فقط أن بشيرة أخفت عنا الحقيقة!
أبو بشيرة وأخوها شحاتة سيرجعان في المساءِ.. سيعاقبها والداها لأنها أخذت كرة أخيها دون علمه.. كل هذا اعترفت به بشيرة لنا، وقد احتدم النقاش بينها وبين جيهان التي رمت بالكرة دون قصد.. و ساعة الخلاف يشتدُّ الشجارُ و تنكشف الحقائق.. أستعير كلام جدتي عندما علمتْ فيما بعد بما حدث وتتالى من أحداث: "الموضوع خطأ من البداية.. من لحظة أخذ بشيرة الكرة دون استئذان صاحبها.. وما انبنى على خطأ لا بدَّ أن يؤدي إلى أخطاء.. ويختم بمصيبةٍ".. وهذا ما كان بالفعل.
جعلتْ بشيرة تعنف جيهان لأنها أضاعت الكرة بتهوِّرها، وتقول لها: أنت التي طوَّحتِ الكرة، ولا بد أن تحضريها لي بأيةِ طريقةٍ.. وجيهان تقف عاجزة كالمشلولة أمام سور المزرعة العالي، إلا من لسانها، تدافع به عن نفسها، وتبرِّرُ، وتعتذرُ دون جدوى.. فبشيرة لا شيءَ يرضيها ويسكتها إلا استعادة كرة أخيها الضائعة.. وما كادتا تشتبكان بالأيدي حتى تدخلتُ سريعًا لفضِّ الاشتباك.
لمتُ بشيرة.. لا يحق لإنسان أخذ شيءٍ دون أن يأذن له مالكه، ولو كان هذا الشيءُ لأقربِ الناس إليه.. هذا ما كانت جدتي توصيني دومًا به.. وقلتُ لها: ما كنتُ لألعبَ بهذه الكرة لو عرفت أنها"مسروقة ".
ثارت بشيرة واحتجت: أنا لست "حرامية ".. أنا لم أسرقها.. والله إنها لكرةِ أخي الكبير شحاته.. كنت أنوي أن أرجعها لبيتنا بعد أن نلعب بها قليلاً.. خفتُ أن يرفض أخي إعارتها لي فلم أقلْ له".
أقرَّت بشيرة بخطئها و قالت إنها نادمة جدًّا.. سيعود أخوها.. فإذا لم يجدِ الكرة فسيغضب منها كثيرًا.. وقد يضربها.. أخذت تبكي وتقول: يا ليتني ما

أخذت الكرة!
تأثرت جدًّا بدموع بشيرة.. كانت أول مشكلة حقيقية نواجهها، ولا بدَّ أن نبحث عن حل لها.. لن يأتي البكاء والندم بالكرة المفقودة.. استبعدنا في البداية فكرة دخول المزرعة؛ لأنها استدعتْ على الفور لأذهاننا ـ خاصة البنتين بشيرة وجيهان ـ صورًا لثعالبَ ماكرةٍ، وأشباحٍ، وخفافيشَ لكل منها نابان طويلان ثاقبان وأسنان حادة قاطعة كالأمواس، تطير وتعلو صرخاتها، مع أننا مازلنا في وضح النهار، والشمسُ ساطعة!
السببُ الآخرُ أن المزرعة محاطة بالأسوار العالية من الجهات الأربع.. والحاجز الحديدي بينها وبين الحديقة يصعب على بنات في مثل عمرنا تسلقه؛ لارتفاعه، ونهايات قضبانه الحادة المدببة كالحراب، وكثافة الغصون المتشبثة به.

قعدنا على النجيل نفكر.. الحل هو إيجاد كرةٍ بديلةٍ مشابهةٍ تمامًا لكرةِ شحاتة.. ولكن كيف؟
قالت بشيرة:
ـ أخي شحاتة ادخر من مصروفه بضعة أشهر ليحقق حلمه بامتلاك كرة ملاعب كبيرة.. بدلاً من الكرة " الشراب " التي كان يلعب بها في الشارع.. أحضرها منذ يومين ولم يلعب بها إلى الآن.. قال إنه اشتراها من محل للأدوات الرياضية.. أين؟.. أين؟.. لا أذكر!
قالت جيهان:
ـ حاولي أن تتذكري يا بشيرة!
فكرت لحظات ثم أجابت:
ـ هو يذهب كثيرًا لمنطقةِ العتبةِ.. ربَّما ابتاعها منها أومن مكان قريبٍ منها!
كتمتُ ضحكاتي، وسألت جيهان إن كان معها ثمن الكرة الذي لن يقل أبدًا عن خمسةِ جنيهاتٍ، وهو مبلغ كبيرٌ بحساباتِ ذلك الزمن.
وجمتْ جيهان.. لم يكن معها سوى قروش قليلة.. اقترحت بشيرة أن نتشارك في ثمنها، على أساس أننا يجب أن نكون شريكاتٍ في السرَّاء والضرَّاء.. اللعب و الغرامة.
كان كل ما معنا مجتمعاتٍ لا يتعدى ربعَ الجنيه أي خمسة وعشرين قرشًا.. لن

أستطيعَ أن أطلبَ من جدتي الآن مبلغًا كبيرًا كالجنيهات الخمسة.. لا بدَّ أنها ستسألني لماذا أريده، ولن أكذبَ عليها، و سأقول لها الحقيقة.. حتى لو توفر المبلغ فمن منا ستذهب إلى العتبة، وتبحث في شوارعها عن متجرٍ مجهول.. وإن وجدته فهل تضمن أن تجدَ فيه كرة مطابقة للكرةِ الضائعةِ؟!

بدا هذا الحل عسيرًا علينا بل مستحيلاً.. لو كانت جدتي كرمة حاضرة معنا ذلك النقاش، لزمَّت شفتيها، وهزهزتْ عكازها ثمَّ قالت: " هذا حل غير واقعي وعلى قدر كبير من الصعوبة.. يذكرني بحكاية من القرن السادس قبل الميلاد، لإيسوب الحكيم بعنوان: "القط والجرس "!

علينا إذن البحث عن حل أكثر واقعية وقابلية للتنفيذ.. الكرة في المزرعة والمزرعة أمامنا.. لم لا نحاول إحضار الكرة منها؟!

اتفقنا على ذلك ونحن غير واثقاتٍ من النجاح.. لو كانت لدينا طائرة مروحيَّة تهبط بي في المزرعة أو تنزلني بمظلةٍ فأختطف الكرة!

أخذنا نبحث عن ثغرةٍ في السورِ تكفي لانزلاق إحدانا بلا جدوى.. حتى لو وجدنا فمن كانت تجرؤ على المجازفةِ بالعبورِ.

أخذت أفرِّق بين جديلةٍ من الأغصان المشتبكة بالسورِ، ونجحت في إزاحتها، و تعرية مسافة قليلة بين ثلاثة من قضبانه الرمحية العالية.. تناوبنا النظر منها على عالم المزرعة المجهول.. ليس ثمة شيء غريب حتى هذه اللحظات.. مجرد حديقة فيها أشجارٌ وأطيارٌ.. ولا أثر للكرة!

فهل سقطت في الحوض الأسمنتي لطلمبة المياه، أم تدحرجت إلى داخل تلك الخيمة؟ بدا لي الأمر في منتهى الإثارة، وأنا أطل من تلك الثغرة.. فماذا وراءك يا أيكة الدواء؟ وماذا يخفي الدوح من أسرارٍ؟

كنا مستثارين إلى درجةِ أن سحلية مرقت إلى جوارنا فصرخنا، وتابعناها وجلدها يأتلق في ضوء الشمس حتى عبرتْ للمزرعةِ من تحت عقبِ البابِ.

هتفتُ فجأة: الباب!

اتجهتِ العيون إلى الباب الحديدي، وتعلقتْ بالقفل الكبير الصدئ بين حلقتي السلسلة الغليظة.. كان مجرد النظر إلي تلك السلسة يبعث على اليأس من محاولةِ

التعامل معها.. من المحال فسخ حلقة واحدة منها يدويًّا! القفل الكبير أيضًا يستعصي على الكسر! الأمر يحتاج إلى منشارٍ للحديدِ ومطرقةٍ.. ولو وُجدت فلسن بقادراتٍ على استخدامها.. نحتاج إلى حدَّادٍ.. ومن سيأتي بالحداد؟ ومن سيدفع له أجره؟ الموضوع سيكبر ويتسع، ونحن نرغب في لملمته دون ضجَّة!
جلسنا ثلاثتنا على القاعدة الحجرية للسور حائراتٍ.. دموع بشيرة لم تجف بعد، ولهفتها على استرداد الكرة لا تهدأ، بل تزيد مع مرور الدقائق، وعصا أبيها تتراقصُ أمام عينيها!
قالت جيهان: أسهل حل هو فتح القفل بمفتاحه!
وافقتها تمامًا.. قلت:
ـ هذا ما كان يجب أن نفكر به منذ البداية.. على رأي المثل كما تقول جدتي: أذنك من أين يا جحا؟ ولكن أين المفتاح؟
قالت بشيرة وقد بدأتْ تنشج من جديدٍ:
ـ المفتاح مع عم خضير الجنايني.. وهو لا يأتي غير مرتين او ثلاث في الشهر ليسقي الزرعَ.. الله يعلم متى يجيء؟.. لا شأن لي.. أنا أريد كرتي!
استبعدنا عم خضير لأنه يسكن في ضاحية " عزبة النخل" البعيدة.. ولأنه رجلٌ كبيرُ السن، شديدُ الحرصِ، كثيرُ الشك، ولو استطعنا الاهتداء إلى مسكنِهِ، فلن يعطينا المفتاح بسهولةٍ.
صاحت جيهان:
ـ يوجد مفتاح احتياطي لكل قفل أو مفتاحان! ولكن مع من يا ترى؟
جعلنا نفكر.. لا أذكر أني شاهدت مفتاحًا للمزرعة مع جدتي.. رجحتُ وجودُ نسخةٍ معها، ولكني لا أستطيع أن أوقظها من نومها وهي مُتعَبَة؛ لأسألها عنه أو أطلبه منها!
أخذت أتفحَّص القفل.. كان يبدو عليه القِدَم.. معنى هذا أنه يعود إلى أيام جدي الدكتور فهمي، واحتمال امتلاكه نسخة من المفتاح مؤكدٌ؛ لأنه صاحبُ المزرعة.. فأين هذه النسخة؟ بالتأكيد في مكتبه.. يؤيد هذا قولُ جدتي: إنها تركت كل شيءٍ يخصُّ زوجها هناك كما هو.

جريتُ إلى الفيلا، وصعدت في سلمها وثبًا.. وصلت إلى الطابق الثالث، وفتحت معمل جدي..اتجهتُ أولاً إلى مكتبه الأبنوسي في آخر المعمل.. فتحت الأدراج.. فتشتها واحدًا تلو الآخر.. لم أعثر على أية مفاتيح!

انتابتني الحيرة.. ألقيتُ نظرة متأنية شاملة على رفوف المكتبةِ.. لا شيءَ سوى الكتبِ المصفوفةِ إلى جوارِ بعضها بعضًا في نظامٍ محكمٍ.. جلتُ ببصري في طاولة المعمل.. لا يوجد غير الأدوات الزجاجية.. انتقلتُ إلى الرفوفِ الجانبيةِ، حيث زجاجات الكيماويات.. كل شيءٍ على حاله لم يزلْ، منذ دخولي إلى هذه الحجرة أوَّلَ مرةٍ منذ بضع سنواتٍ، وربما منذ تركه جدي الدكتور فهمي قبل وفاته.

كدتُ أيأس.. لم يبقَ من شيءٍ لم ابحث فيه إلا ذلك الدولاب الصغير.. مضيت إليه.. كان يحتوي بعض الأدوات المعملية، والصيدلية مثل المجهر، و الهاون، والكؤوس... وغيرها.

نظرت إلى أسفل.. الدولاب ينتهي بثلاثة أدراج.. بدأتُ أفتحها.. أول درج كان خاويًا تمامًا.. الثاني به بعضُ أوراق الجرائدِ القديمةِ المصْفرَّةِ التي حالت ألوانها.. الثالث ليس فيه سوى معطفٍ أبيضَ.. لا بد أنه لجدي.. كان مطويًا، عليه غبارٌ خفيف.. نسيتُ البنتين اللتين تنتظراني بصبر نافدٍ أمام سور المزرعة.. أخرجت المعطف من الدرج في حرصٍ.. قرأتُ الحرفين المطرزين على جيبه العلوي: " ف.ف ".. فهمي فريد الفرماوي.. تحسستُ المعطفَ في اعتزازٍ.. رحتُ أمسح عنه الغبار براحة يدي.. كان بجيبه شيءٌ ملمسه معدني صلبٌ.. آخر ما كنت أتوقع.. ميدالية بها صورة صغيرة لجدتي.. يتدلى منها بضعة مفاتيح.. شكرتُ الله ودعوته أن أجدَ مفتاح المزرعةِ بينها.. أرجح أن جدي كان عائدًا من زيارة المزرعة، أو كان ينوي زيارتها، ووضع المفاتيح في جيبه، ونسيها لسببٍ ما.. ربما كان مريضًا؛ فلقد عرفت من جدتي أن المرضَ اشتدَّ عليه في أيامه الأخيرة.

أسرعتُ بالمفاتيح إلى بشيرة وجيهان.. جربنا المفاتيح مفتاحًا بعد الآخر.. وفرحنا عندما استجاب واحد منها لتوسلاتنا، وقبل الدخول في فتحة القفل.

لكن القفل كان عصيًّا، لم يستجبْ لنا وظل مغلقا.. أخذنا نعالجُه مراتٍ بلا فائدة، حتى تعبنا، وجلسنا على قاعدةِ السورِ الحجري ضائقاتٍ، يساورنا الشك

في أن هذا هو المفتاح الصحيح!
صاحت بشيرة فجأة:
ـ الجاز.. الجاز!
واخبرتنا أن عم خضير طلب من جدتها قشطة ذات مرة، كمية صغيرة من "الجاز" وهو الاسم المتداول للكيروسين، المستخدم كوقود للمواقد ومصابيح الإضاءة، وكذلك السيارات.. ليضعه في القفل، فيزيل الصدأ عنه، وما التصق بداخله من شوائبَ؛ فيسهل فتحه.
ومن حسن الحظ كانت قشطة تحتفظ بصفيحة كيروسين، كوقودٍ احتياطي للمواقدِ في حالات الطوارئ، عند نفاد أنبوبة " البوتاجاز"، وكذلك لـ "لمبات الجاز " إذا حدث انقطاع مفاجئ للتيار الكهربائي.

تولت بشيرة أمرَ هذه المهمةِ.. أخذت زجاجة صغيرة فارغة وطارت إلى المطبخ.. غافلت جدتها قشطة وعبأت الزجاجة بالكيروسين، وعادت به إلينا خلال دقائق قليلة.
أشبعتُ القفل بالكيروسين.. أدخلتُ المفتاح.. قلنا في صوتٍ واحدٍ: يارب! وأدرت المفتاح، فانفتح القفل بأمرِ الله... ثمَّ الباب!
أصبحُ الطريق إلى الكرةِ مفتوحًا على مصراعيه.. وعدنا من جديدٍ لحكاية إيسوب فيلسوف اليونان العبقري: كنا مثل جماعةِ الفئران التي وجدت أن الحل الأمثل للنجاة من مخالب القط، هو تركيب جرس صغير في رقبته.. ينبهها عند اقترابه فتسارع إلى الفرار.. ولكن ظهرت أمام الفئران مشكلة.. من منها يستطيع أن يعلق الجرسَ في رقبةِ القطِ؟!
فمن منا يستطيع إحضارَ الكرةِ؟!
أبتْ بشيرة الدخول، وتذرَّعت بحجةٍ معقولةٍ جدًّا: من أضاع شيئًا فعليه إحضاره.
وجدتْ جيهان نفسها في مأزق يدعو للإشفاق.. أخذت تنظر إلى داخل المزرعة عبر البابِ المفتوح، و قالت بصوتٍ مرتعشٍ:
ـ أنا خائفة من الثعلب المكار الذي لحتْهُ أمي من فوق السطح!
قلت لها إن جدتي نفت وجود ثعالب في هذا المكان.. فجأة قفزت قطة في

لمحةٍ خاطفةٍ من شجرةٍ قريبةٍ، واختفت وسط الشجيراتِ.. صرخت جيهان، وصاحت: الثعلب!

يبدو أنها رأت القطة ثعلبًا.. وكما فسَّرت جدتي الحالة من قبل بالمثلِ الشعبي القائل: من يخف من العفريت يطلع له.. ويمكن أن يقال بشيءٍ من التحوير: من يخشَ النمور يحسبِ القطة نمراً.

أخيرًا قررنا أن ندخل المزرعة مُحتماتٍ، وأن نستعيذ بالله، و تتسلحَ كل منا بعصا متينة تتخذها من فرع شجرةٍ يابسٍ.

دخلنا متوجساتٍ شاهراتٍ عصيَّنا.. جعلتُ أجيل نظري مدهوشة.. لا تزال أغلب الأشجار في حالةٍ جيدةٍ، على الرغم من قلة الاعتناء بالمزرعة من بعد جدي؛ فعم خضير الجنايني أصابه الكبرُ، وضعفت قواه، ويكادُ يعجزه الهَرَمُ.. وقد صارح جدتي كرمة أكثر من مرةٍ برغبته في اعتزال الحرفةِ، وجدتي تحبِّبُ إليه الاستمرارَ، وتذكره بجدي ووصيته برعاية المزرعة.. يبدو أن وهن الشيخوخةِ سيجبره على تركِ العمل قريبًا.

كل ما يفعل عندما يأتي: إدارة المضخة الآلية لينطلق الماء إلى الحوض، و ينساب منه عبر المساقي إلي نباتات المزرعة، وإلى الحديقة على الجانب الآخر من خلال المواسير الفخارية، ثم يستلقي تحت إحدى الأشجار حتى ترتويَ الأرضُ، ويطمئن عليها.

وجدنا كرة بشيرة وهي في الحقيقة كرة شحاتة، مندسَّة وسط دغل من شجيراتٍ جميلةٍ الأوراق، زاهية الخضرة.. ظننتُ أن بشيرة ستندفع إلى الكرة لتضمَّها إلى صدرها، وتنطلق بها إلى بيتهم، أو أن جيهان ستتبختر بين الشجيرات، وهي تزيح الغصون بيديها في أنفةٍ وعظمةٍ، وتمسك بالكرة، وتتقدم بها إلى بشيرة شامخة الرأس.. توجِّه إليها نظرة عاتبة وتقول: إليكِ الكرةَ التي كدتِ أن تضربيني من أجلها!

لكن شيئًا من ذلك لم يحدث.. لقد بُهرنا ببهاءِ المزرعةِ منذ الوهلةِ الأولى، ووجدنا أنفسنا منجذباتٍ بسحر أيكة الدواء، فتناسينا ما جئنا من أجله إلى حينٍ، وألقينا المخاوف من خلف ظهورنا.. ومضينا في السير.

كانت أغلب نباتات الأيكة غير مألوفة لنا.. لم نبصر لها مثيلًا من قبل.. الأشجار تنطلق فروعها على حرِّيتها التامة، لم يمتد إليها مقص، ولم تطلها يد التشذيب.. الفروع تشب نحو السماء كأنها تشتاق لعناق السحاب، أو تنسدل باتجاه الأرض، كأنها تستبق لتصل إلى الأعشاب المزهرة العطرة التي تغطيها.. وتلك الثمار السوداء اللامعة الجذابة، التي تشبه حبات العنب أو التوت؟!.. وما تلك الزهرات الوردية التي على شكل القلب تمامًا، والتي تصطف متجاورات على غصنٍ واحدٍ؟ وأين تختبئ تلك الطيور التي لا تكل أو تمل من الصُداح والتغريدِ؟!
وما تلك الخيماتُ الزجاجية الخاوية والبلاستيكية الرقيقة الشفافة؟ ما الغرضُ منها؟ وأي شيءٍ احتوت في الماضي؟
و تلك النافذة المكسورة الزجاج التي أشاهد منها قاعة كبيرة، فيها مقاعد مصفوفة في مواجهة سبورة خضراء، لا تزال عليها بعض الرموز والطلاسم مكتوبة بالطباشير، تشبه فصلاً في مدرسةٍ!
مددتُ يدي إلى " زهرة القلوب" كما أسميتها.. فأي اسمٍ سواه يناسبها؟.. كنت على وشك قطف بضع زهرات منها، أحفظها بين أوراق كتابي، وأريه زميلاتي عندما نعود إلى المدرسة.. وإذا بحشرةٍ طائرةٍ تطن علو رأسي، و تحط على شعري.. دفعتها بيدي وجريت مبتعدة.. طمأنتني جيهان بأنها طارتْ، ولاشيء على رأسي!
راقتِ الثمارُ التي تشبه العنبَ لعيني بشيرة، فملأتْ جيبها منها.. شرعتْ تأكل ثمرة.. قالت إنها حلوة الطعم.. أعقبتها بثمرةٍ ثانيةٍ.. قدَّمتْ واحدة منها إلى جيهان.. وضعتها في فمها، همَّت بأكلها، لولا أني صحتُ بها لتلفظها، وذكرتهما بنصائحَ جدتي: ألا يأكلا أي صنفٍ من الخُضار أو الفاكهة قبل غسله جيدًا بالماء الجاري النقي، أو نقعه في الماء المضاف له القليل من الخل، أو قطرات من المحاليل القاتلة للميكروبات، المسموح بها لهذا الغرض.
بدأنا نشعر بالقلق بعد أن أمضينا بعض الوقت في الأيكة نمرح ونلهو.. خشينا أن تصحو جدتي وتسأل عنا.. أو تفتقدنا قشطة أو فواكه؛ فتخرج للاطمئنان علينا، وينكشف أمرنا!
كنا في قمة السرور، يصعبُ علينا أن نفارقَ هذا المكان الساحرَ.. تذكرنا الكرة..

وتوجهنا لإحضارها.
بدت بشيرة مضطربة وكأن مرضًا فجائيا أصابها.. قالت إنها تشعر بجفاف شديد في حلقها وبشرتها، وتعاني من زغللة في العين واضطراب في الرؤية، و قلبها يدق بسرعةٍ غريبةٍ!
لم نأخذ أمرها بجدية، وكان علينا الإسراع بإحضار الكرة والخروج من المزرعةِ.. تقدَّمتنا جيهان لإنجاز هذه المهمة.. لا أدري لماذا تخففت من" الشبشب "، فخلعته من قدميها ومشت حافية.. وكانت قد خلعت "الجاكت" من قبل لتلعبَ بحرية، فناولته لي.. خاضت بين الشجيرات في طريقها إلى الكرة.. فجأة رأيتها تنكب على وجهها ويديها فوق الشجيرات.. يبدو أنها تعثرت في شيءٍ كحجرٍ ملقى أو ماسورةٍ تعترضُ الطريق.. نهضت من كبوتها، وأحضرت كرة شحاتة.
فجأة تعالت صرخاتُ جيهان، وراحت تحكُّ جلدها في هلع وتبكي.. سألتها ما بها.. فقالت إنها تحس بوخز شديد في قدميها و ساقيها ووجهها و يديها.. أي بكل جزءٍ عارٍ من جسمها.. كأن أبرًا توخزها.. وعشرات من النحل تلسعها.. واستمرت في حكِّ جسمِهَا، وقد تحول وجهها ويديها إلى الاحمرار!
ظننت أن جيهان لسعتها حشرة من الحشراتِ التي تنتشر بين الشجرِ مثل النحل أو الدبابير.. فكرتُ أكثر بالنمل؛ لانتشار المواضع المصابة التي تؤلمها في أجزاء مختلفة من جسمها.. قد يكون اجتمع عليها وأشبعها قرصًا وعضا كما حدث لي ذات يومٍ عندما غفوتُ تحت شجرة الخوخ المثمرة، وانتبهتُ من غفوتي على وخز يؤلمني، ويجبرني على الهرش، و اكتشفت وجودَ بضع نملاتٍ تلتصق بجلدي وتقرصني باستماتةٍ!
تأملت وجه جيهان ويديها فلم أجد ولا نملة واحدة، فتحيِّرت، و أسرعت بها إلى الحوض الأسمنتي،وكان به بعض الماء، فغسلتْ وجهها ويديها وساقيها.
وختمت بي؛ فقد وخزتني شوكة نباتٍ حادة كبيرة في سبابتي عندما وضعت يدي بالخطأ على سور المزرعة بغير انتباه مني، فانتابني ألمٌ فظيعٌ، وسال الدمُ من إصبعي.. وجدتُ قطعة قماش ملقاةٍ على الأرض، فمسحتُ بها قطراتِ الدم.. فيا له من يومٍ شنيع.. مريع!

قبل أن نهمَّ بالانصراف، وإعادة القفل إلى مكانه وكأن شيئًا لم يكن، وجدنا فواكه عند رؤوسنا، وأنفاسها تتلاحقُ.. راحت تجول بين وجوهنا بنظراتها.. خبطت على صدرها بيدها، و اندفعت إلى ابنتها جيهان، تسألها ماذا حدث.. وقد هالها احمرار وجهها والألم الذي تحاول إخفاءه.

قالت " فواكه " إنها بينما كانت تغسل الملابس، حدثها قلبها أن بنتها جيهان تتعرض لأذى ما، ووصلت صرخاتها على البعد إليها.. صعدتْ إلى السطح، ولمحتنا في المزرعة، فأخذت السلم قفزًا، وأبلغت قشطة لتوقظ سيدتها كرمة.. وهكذا أثبتتْ فواكهُ أن قلبَ الأم أدقُّ جهاز استشعار عن بعدٍ، ينذرُ بوقوع الأبناءِ في خطرٍ ما، وقد يحسُّه قبل حدوثه.

لحقتْ بفواكه جدتي وهي تمشي متساندة على كتفِ قشطة.. وأخذت تحملق فينا في استياءٍ وصمتٍ.

رأت بشيرة في حالةٍ شديدةٍ من الإعياء تكاد تسقط مغشيًّا عليها..أخذت قشطة تولول على حفيدتها.. راحت جدتي تهدئها، وسألتنا وهي تداري قلقها:

ـ هل لمست بشيرة نباتًا من نباتات المزرعة أو شمَّته أو أكلت منه شيئًا؟

أجبت:

ـ نعم.. أكلت ثمرة سوداء تشبه العنب!

ارتاعت جدتي.. امتدت يدي في لهفةٍ إلى جيب بشيرة، وأخرجتُ بضع ثمارٍ منها.. نظرتْ إليها جدتي وقالت:

ـ البلادونا!! لنتصلْ بالإسعاف على الفور!

أخبرتها جيهان بما حدث لها وسقوطها وسط الشجيرات اللاسعة، فطمأنتها وأمرت أمها فواكه بوضع كمادات من الماء البارد على موضع اللسعاتِ، وقالت إنها ستشفى سريعًا.

جاءت سيارة الإسعاف على عجلٍ، ونقلت بشيرة ترافقها جدتها قشطة للمستشفى، ولحقنا بهما بـ " تاكسي".

في المستشفى.. عندما رأى الطبيبُ الثمارَ التي تناولتها بشيرة، قال في قلق:

ـ ثمار البلادونا السامة.. تشبه العنبَ فتغري الصغارَ بلونها الأسود اللامع ومذاقها

المستساغ، وهي شديدة السُمِّيَّةِ، تؤثر على أعضاءَ مختلفةٍ من الجسم وخاصة القلبَ.. وقد تؤدي إلى عواقبَ وخيمةٍ تتوقفُ على مقدار ماتناول منها المصابُ.
خضعت بشيرة للعلاج في قسم السموم بالمستشفى، فأعطوها المحاليل اللازمة، وحقنوها بالأدوية المضادة للمادةِ السامةِ.. تحسنت حالتها، واستعادت وعيها، وانضبطت وظائفها الحيوية كالتنفس والدورة الدموية، وبقيت تحت الملاحظةِ بضع ساعاتٍ.
سمح لها الأطباء بمغادرةِ المستشفى في المساءِ.. ومن الطريفِ أنها سألتْ عن كرة شحاتة بمجرد أن عادت إلى طبيعتها!
أما جيهان فلم تكن حالتها تستدعي أكثر من الحقن بمضادات الحساسية، و بعض الدهانات والكريمات الملطفة، وغادرت المستشفى سريعًا.

شرح الطبيبُ ماحدث لجيهان لسابق معالجته لحالاتٍ نادرةٍ مماثلةٍ:
ـ لقد لامست نبات " القرَّاص" اللاسع، الذي تغطي اوراقه شعيراتٌ دقيقة، كأنها محاقن تخترقُ الجلدَ، وتطلق مواد لاسعة مثل حمض النمليك، والهستامين؛ فتثير حساسية الجلد، وتسبب احمراره، والشعور بالألم والحكةِ.
لم أنجُ من واقعة الأيكة، وكان لي منها نصيبٌ.. في الليل أصابني ما يشبه الحمى، وارتفعت درجة حرارتي، واعترتني قشعريرة، وتورَّم إصبعي الذي أصابته الشوكة، وسرعان ما امتدَّ الورم ليشمل سائر الكف.
حكيت لجدتي ما جرى وكيف مسحتُ الجرحَ بقطعة قماشٍ وجدتها في المزرعة.. راحت تلوموني.. كيف لم أفطن إلى أن هذه القطعة قد تكون ملوثة بجرثومةٍ مرضيةٍ، نقلتها للجرح، وقد تسبب مرضًا خطيرًا.. ونبهتني إلى ضرورة تطهير أي جرحٍ مهما يكن صغيرًا بمادةٍ مطهرةٍ مثل الكحول، وإن لم تتوفر فيمكن استعمال الكولونيا المحتوية على نسبة عالية من الكحول في التطهير، وتغطية الجرح بضمادةٍ نظيفةٍ معقمةٍ كإجراءٍ مؤقتٍ، لحين الذهابِ إلى الطبيب؛ ليشير بالعلاج اللازم.
بالفعل ذهبنا إلى عيادةٍ قريبةٍ، كان بها طبيبٌ شابٌ بشوشُ الوجهِ.. فحص الجرح و قال إنه قد تلوث بطريقةٍ ما، فتسللت إليه البكتيريا، وتكاثرت، واحتشد جهاز المناعة لصد هذا الغزو، برفع درجة حرارة الجسم، وما يبدو من تورمٍ والتهابٍ.

طهَّر الجرح وضمَّده.. وصف لي اقراصًا مسكنة وخافضة للحرارة، و مضادًا حيويًّا آخذه بطريق الحقن لمدة ثلاثة أيام.. ونصحني بالاحتراز عند التعامل مع النباتات. وهكذا نلتُ جزائي ألمًا ووخزًا بالمحاقن.. كأن لم يكفني تلك الشوكة البشعة!

قرار مدهش!

ـ بغير النبات لا تكون حياةُ الإنسان والحيوانات؛ ومن فوائده العديدة بخلاف الغذاء، إمدادنا بالأكسجين اللازم للتنفس.
ـ النباتات السامة نافعة للإنسان؛ لأنها تحتوي على موادَّ شافيةٍ للأمراضِ!
ـ لا يوجد نباتٌ شريرٌ بطبعه!
ـ هل رأيت نباتًا يغادر مكانه ليعتديَ على كائنٍ حيٍّ آخرَ أو يؤذيه أو يغتصب حقا من حقوقه؟
ـ حتى النباتاتُ صائدة الحشراتِ لا تذهب إلى الحشرةِ بنفسها.. ولكن الحشرة هي التي تسعى إليها، وتنجذب إلى ألوانها الزاهية، أو رائحتها، أو رحيقها العذب، فتقع في فخاخها وشراكها الخداعية!
ـ بعض الأشجار تدافع عن نفسها.. بالأشواك، والمكوِّنات السامة، والعصارات المريرة.. فحذار من أكل أي جزءٍ من شجرةٍ مجهولةٍ أو حتى ملامستها، ويفضل عدم الاقتراب منها بتاتًا!

" من أقوال جدتي بعد حادثة المزرعة "

أصبحتْ الفيلا الهادئة على صخبٍ.. اشتعلتِ المناقشاتُ بعد تلك الحادثةِ حول جدوى وجودِ المزرعةِ.. ذهبت قشطة إلى جدتي شاكية متذمَّرة.. جعلت تذمُّ المزرعة، وتعدِّد أضرارها، وتبالغ في مساوئها: فهي مأوى للخفافيش، والثعابين، والحيوانات الضالة.. و هي مستودعٌ للحشرات والهوام.. ولم تنسَ ذكرَ الأشباح والعفاريتِ التي تسكنها!

وأفاضت في الحديث عمَّا أصاب بشيرة من جرَّاءِ تناول ثمارٍ سامةٍ كادت تودي بحياتها، ورجتها قطع أشجارها الخطرة، واجتثاثها من جذورها، ويستحسن إزالة المزرعةِ كلها من الوجود.

أيدتها فواكه، فعلى الرغم من أن المزرعة مغلقة على الدوام، وتحدّها الأسوارُ المحكمَة من جميع الجهات، ولا يتردَّد إليها أحدٌ غير عم خضير، وهو عليمٌ بأشجارها، فمن المحتمل تعرّض أي شخصٍ آخر للأذى من نباتاتها، قد يتصادف

دخوله إليها في المستقبل أو تضطره الظروفُ لذلك.. وضربت مثلاً بصبي عامل السباكةِ الذي أحضره خضيرٌ لإصلاح ماسورةِ المياهِ، ولحق به واختطف من يده ثمرة جميلة وجدها على الأرضِ، كان يهم بأكلها، لينقذه من الموتِ.

اعترضَ عم شبيب الخفير، وأضْحَك جدتي بقولهِ: إنه يخشى غضبَ الحيَّةِ المجَنّحَةِ التي تحرسها، وانتقامها إن أزيل وكرُها في جذع شجرةِ الزنزلخت الهندي! جدتي كرمة أصغتْ إلى آراءِ الجميع في هدوءٍ، المؤيدة والمعارضة، وكعادتها لم تتسرَّعْ في الانحياز إلى رأي منهما، و طلبت إمهالها بعضَ الوقتِ لاتخاذِ القرار المناسب.

اعتراني الهمُّ لأني جلبتُ بيدي مفتاحَ الخراب للمزرعةِ الجميلةِ، وقد أكون سببًا في قطع أشجارها، و اغتيال زهرةِ القلبِ الفاتنةِ.. كان هذا شعورَ كل من بشيرة وجيهان أيضًا.. فبرغم ما حدث لنا، كنا خائفاتٍ على المزرعة، مشفقاتٍ على مصيرها، لكننا لذنا بالصمت لحَرَج موقفنا.

أتى المساءُ على الفيلا بردًا وسلامًا.. هدأتِ الأحوال وصفتِ الأجواءُ.. طلبتْ إليَّ جدتي أن أروي الواقعة بتفاصيلها.. و كيف استطعتنا دخول المزرعةِ؟

ظنت جدتي في البداية أننا تسلقنا سورها.. أكدتُ لها أننا فكَّرنا فقط بذلك، ورأينا فيه صعوبة شديدةً.. حسبتْ أن عم خضير الجنايني لم يهتم بقفل بابَها، أو ترك القفل مفتوحًا، أو ترك المفتاحَ في موضعه من القفل؛ سهوًا منه أو لاستبعاده فكرة دخول أحدٍ إليها.. ولما نفيتُ ذلك، عجبتْ، واعتقدت أننا استعنا بأداةٍ لكسر القفل.. أنكرتُ أيضًا، فساورتها الشكوكُ أننا استخدمنا مفتاحًا مصطنعًا!

هكذا شطح الخيال بجدتي.. أنفدت كل الاحتمالاتِ، وكادت لا تصدق أننا فتحنا القفل العصيَّ العويصَ الصدئَ بواسطةِ مفتاحِه الأصلي!

سلمتها ميدالية المفاتيح فدهشتْ.. تأمَّلت صورتها وابتسمتْ.. احتوتها بين أصابعها في اعتزازٍ، وارتسمت على ملامحها علاماتُ الشجن.. سألتني:

- أين وجدتِها يا سهيلة؟

أجبتها بحرفين:

- ف.ف.!

هتفت:

ـ البالطو الأبيض؟!
قلت:
ـ نعم.. في درج دولاب المعمل.. الأخير!
قالت:
ـ أتدرين يا سهيلة أني ظللت أبحث عن هذه الميدالية زمنًا طويلاً بعد وفاة زوجي الدكتور فهمي، حتى فقدتُ الأمل في العثورِ عليها؟ كيف لم أفطن لهذا، على الرغم من أنني فتشتُ المكتب و المعمل، وفتحتُ ذاك الدرج، وشاهدتُ به البالطو؟!
أجبتها بنفس كلامها في مثل هذه المواقفِ:
ـ كل شيءٍ بأوان يا جدتي!

أحسستُ بها سعيدة و كأن شبابها رُدَّ إليها.. روتْ لي أنها أهدت إلى زوجها معطفًا طرَّزته بالحرفين الأولين من اسمه: ف.ف. وصادف أن نال في اليوم نفسه جائزة قيمة عن أفضل بحث علمي منشور في مجلةٍ عالميةٍ.. طلب من جدتي أن تطرِّز كل معاطفه البيضاء على نفس الشاكلة؛ وكان يسعدُ ويتفاءل بذلك.
قالت جدتي وقد أسفرَ وجهها عن ابتسامة رضا:
ـ من أجل هذا فقط سامحتك يا سهيلة.. وسامحتُ أيضًا جيهان وبشيرة.. لقد جئتِني بشيءٍ عزيزٍ على فؤادي.. صورتي القديمة!
عجبت وسالت:
ـ لكنكِ يا جدتي تملكين عدة " ألبومات " تضمُّ كثيرًا من الصور العائلية في مختلف المناسبات.
قالت جدتي:
ـ هذا صحيحٌ.. ولكن بعض التذكارات يكون لها في القلب مكانة أسمَى وأكثر خصوصية!
طلبت إليَّ استدعاءَ بشيرة وجيهان صباح الغد؛ لتبلغهما أنها عفت عنهما، وستسمح لهما بالحضور واللعبِ معي كالمعتاد.
وقالت إنها مازالت تفكر في مصير المزرعة، وتسال الله أن يلهمَها الصوابَ.

حضرت بشيرة وجيهان، واجتمعنا كعادتنا في الحديقة.. اطمأنتْ جدتي عليهما.. بدأت حديثها إلينا بشكر الله الرحمن الرحيم.. فلولا لطفه جل وعلا، لوقع مكروهٌ لنا نحن البنات الثلاث.. تكلمتْ كثيرًا.. قالت:

" لعل فيما حدث درسًا لنا وعِبرة.. نحن نتعلم من أخطائنا.. الخطأ مشتركٌ بينكن ولكن بمقاديرَ متفاوتةٍ.. بدأ الأمر بداية غير صحيحة من بشيرة؛ بأخذ كرة شقيقها شحاتة من وراءِ ظهره، فتضاعف خوفها وتضخم؛ مع احتمال عجزها عن استعادتها بعد سقوطها في المزرعة، وتوقعها عقابًا من والديها وأخيها.. تلتها غلطة أخرى بمخالفةِ أمري، والذهابِ للعب بالقرب من المزرعةِ.. وتوالتِ الأخطاءُ.. اللعب باستهتار من جانب جيهان، فأطارت الكرة لستقرَّ وسط نباتِ " القرَّاص ".. ثم الخطأ الكبير من سهيلة، عندما أخذت مفتاح جدها فهمي من غير استئذاني.. ولو أنها صارحتني بما حدث لكنتُ أعطيتها مفتاحي، وحذرتها من نباتاتِ المزرعةِ، بل وذهبتُ معها، أو بعثت قشطة أو فواكه لتصحبها.. الخطأ الأكبر لبشيرة بتناول ثمارٍ لا تعرفها، كادت تفقدها حياتها, ولكن الله سلم".

حضر عم خضير على دراجته المتهالكة المعهودة.. ترجل ساحبًا إياها وركنها تحت شجرة المانجو.. حيا جدتي كرمة وهمَّ بالسير إلى العمل.. استوقفته جدتي.. قصَّت عليه ما حدث أمسِ، وكيف أضيرت حفيدتها سهيلة، والبنت جيهان، وتسمَّمت بشيرة من ثمار نبات " ست الحسن"، و حدثته عن اقتراح قشطة و فواكه بقطع أشجار المزرعة، و الاستفادة من مساحتها الواسعة بمشروعٍ مربح.

وجم عم خضير لحظات من المفاجأة، ثم بدا عليه الغضب، واحتج، وانفعل.. قال ويداه ترتعشان، وقسمات وجهه تختلج كطبيعتِهِ في حالات الانفعال الشديدة:

ـ المزرعة بريئة مما حدث.. ولا يجبُ أن نلقي بالاتهام كله على أشجارها.. المزرعة ثروة علمية لا تقدر بمالٍ.. أوصاني الدكتور فهمي بالعناية بها، و ما استمراري إلى الآن في العمل وأنا في هذه السن إلا وفاءً لهذا العالم الكبير.. لقد عاهدتُ الله أن أصون المزرعة ما استطعت، وأخدمها ما دامت رِجْليَّ تحملاني، ولو دون أجرٍ.. لقد كان يقول لي: "أنت ساعدي الأيمن يا خضير "، تواضعًا منه وتكرُّمًا.. وأفادني كثيرًا بعلمِهِ الواسع في النباتاتِ الطبيةِ، وزراعة النادرِ منها في بلادِنا.

ظلت جدتي كرمة صامتة، تسمع له وتهز رأسها، ثمَّ قالت :
ـ أنت وشبيب تؤيدان الإبقاء على المزرعة.. قشطة وفواكه تريان عكس ذلك.. يعني تعادلت الاختيارات!
قال عم خضير:
ـ أنت صاحبة البيت وما فيه يا ست كرمة.. بيدكِ القرار النهائي.. و رأيكِ فوق الجميع!
قالت جدتي:
ـ أشكرك يا ريس خضير.. أنت تعلم جيدًا أنني لا أتصرَّفُ كصاحبةِ بيتٍ.. كلنا في مركبٍ واحدٍ.. والأمرُ شورى.. وقال الله تعالى في قرآنه الكريم: وشاورهم في الأمر.. وكان رسولنا يستشيرُ أصحابَهُ في أمور الدنيا.. لم يخطر لي ببال أن أواجه موقفًا صعبًا كهذا.. أنا أميل بعاطفتي كلَّ الميل لمزرعةِ زوجي.. لكن تلك الحادثة نبهتني إلى أمور كانت غائبة عني.. تعرُّض حفيدة قشطة لخطر الموت، جعلني أفكر من جديد.. و أدعو الله أن يهدينا إلى سبيل الرشادِ.
جعلنا نتبادل النظرات أنا وبشيرة وجيهان؛.. كنا نريدُ ـ نحن ضحايا الأشجار ـ أن نتكلم.. إلى متى نبقى صامتاتٍ و نكتم آراءَنا؟
وعلى غير المتوقع فوجئنا ببشيرة تتقدم من جدتي وتستأذنها في الكلام.. أذنت لها جدتي، فقالت:
ـ المزرعة جميلة ونحن نريد بقاءها!
وأشارت إليَّ وإلى جيهان.
ابتسمت جدتي في سرور.. قالت جيهان:
ـ لا نريد أن نكون سببًا في محو هذا الجمال.. و نرجو من حضرتكِ ألا تُمسَّ شجرة منها!
حدقت إليَّ جدتي وقالت باسمة:
ـ وأنت يا سهيلة؟ طبعًا رأيك من رأي صديقتيكِ؟
أومأت برأسي أن نعم.
قالت جدتي:

- ولكني أريد سماعَها منكِ!
هتفتُ من قلبي:
- نعم.
فوجئنا بجدتي تصفق لنا.. وتضمنا إلى صدرها.. قالت:
- يالفرحتي ببنياتي الحلوات.. ليس لأن قراركن لاقى هوىً في نفسي.. ولكن فرحتي الكبرى لأنكن ملكتن شجاعة التعبيرِ عن الرأي!
قلت:
- لم نعرف رأيكِ بعد يا جدتي!
أجابت:
- صبرًا.. ستعرفون بعد قليلٍ!

جمعتْ جدتي كل من كانوا موجودين بالبيت.. قالت إنها اتخذت قرارًا بشأن المزرعةِ، وإن كان قد تأخر بضع سنوات، منذ رحيل زوجها عن الدنيا.. ترقبنا جميعًا سماعه، وفي عيوننا اللهفة و القلق.. أخيرًا.. أحكمت جدتي قبضتها على عصاها وبدأت تتكلم:
- أغلبية الأصوات مع بقاء المزرعة.. خضير وشبيب والبنات الثلاث.. أما قشطة وأم جيهان فغير موافقتين.. أظنهما لا تزالان متأثرتين بما وقع لبشيرة وجيهان.. ربَّما تغيران رأيهما فيما بعد.. وأنا أضم صوتي المتواضع للأغلبية.
ارتفعت تصفيقاتنا؛ أنا وبشيرة وجيهان. وواصلت جدتي:
- كلنا لم نكن على صوابٍ.. أنا أيضًا مخطئة.. ربما بما يفوقُ أخطاءَ الجميع.. كان يصلُ إلي سمعي أقاويلُ قشطة وفواكه وخضير وشبيب عن المزرعةِ وما فيها من ثعالبَ، وثعابين، و خفافيش تمتص الدماء.. قد يكون غرضهم تخويف الصغار وتنفيرهم منها، حتى لا يقربوها.. كنت أسكت عن تلك المزاعم، ولا أتصدَّى لتصحيحها بالجديةِ المطلوبةِ.. صرتُ بسكوتي متواطئة معهم؛ موافقة لأسلوبهم غير السليم في تربيةِ الابناءِ.. كان دافعي الوحيد حماية سهيلة والباقين.. نسينا أن هناك كائناتٍ حيَّة أخرى هي النباتات، لا يقل بعضها خطرًا عن الوحوش المفترسة، والحشرات السامة، تقف صامتة، فينخدع كثيرٌ من الناس بما يبدو عليها

من الجمال و البراءة والمسالمة.. هي كذلك بالفعل، إلا على من يلامُسها، أو يقطع جزءًا منها، لحظتها تظهرُ شراسُتها وقسوة انتقامها.. كان يجبُ علينا نحن الكبارَ أن نُوَّعِيَهم بخطورة بعض نباتات المزرعة، ونكون صريحين معهم، بدلاً من إثارة ذعرهم وترويعهم، الذي أثمر الأشباحَ والعفاريتَ المتقافزة التي تتراءى لبشيرة.. وجاءت النتيجة عكسية، فصار لدى البنات استعدادٌ نفسي لدخول المزرعة في الخفاءِ وخوض المخاطرةِ، وكانت الكرة الضائعة مجرد حافزٍ لهن؛ لأن الممنوعَ مرغوبٌ فيه كما يقال، فيما عدا طبعًا الممنوعات التي تؤدي إلى الألم العاجل، أو الضرر المباشر الأكيد، أو الهلاك السريع المحقق، فإن الإنسان العاقل يتجنبها، ولا يتعمد الاقتراب منها، كالكهرباء والنار، والحيوانات المفترسة.. وأضم إليها الأشجارَ السامة!

لذلكَ قررتُ إصلاحَ الخطأ.. سأفتحُ بابَ المزرعةِ ليلاً ونهارًا.. وسنبحث معًا عن إجراءاتٍ وقائيةٍ نقوم بها لحماية الجميع!

صفقنا مرة أخرى بحماسةٍ أكثرَ.. وأكملت:

ـ تعلمون أن للمزرعة بابين.. أحدهما على الشارع الجانبي، والآخر داخلي من جهة الحديقة.. كانتِ المزرعة في حياة الدكتور فهمي تموج بالزائرين من طالبي العلم.. كانت مقصدًا لطلاب الصيدلةِ، يشاهدون فيها النباتاتِ الطبيةِ بخاصةٍ النادرة منها، وذاعت شهرتها في الجامعات الأخرى؛ فكان يؤمها طلبة كليات الطب والزراعة والعلوم.. والدراساتِ العليا.. كان كل هذا يجري تحت عين زوجي وإشرافه.. فكرتُ أن أعيدَ المزرعة إلى سابق عهدها.. لكنني أحجمتُ عن ذلك؛ لاختلافِ نوعيةِ الطلابِ في هذه الأيام عنهم بالأمس.. أرى أكثرهم غير جادين في تحصيل العلم، يفتقرون إلى الرغبةِ الصادقةِ في التعلم المتأمِّل المتأني.. أخشى إن فتحتُ لهم الطريق إلى المزرعةِ ألا يولوها الاحترام اللائق بها، و أن يسيئوا لها، ويأتوا على البقية الباقية من جمالها، في غيابِ المتابعةِ والإشرافِ.. لذلك سأكتفي بفتح بابٍ واحد فقط.. هو الباب الداخلي الفاصل بينها وبين الحديقةِ.

كان هذا اليوم من أسعدِ أيام حياتي.. فلقد كان لنا دورٌ مع صديقتيَّ بشيرة وجيهان في إنقاذِ المزرعةِ، وفتح الباب حرًّا إلى موطنِ الجمال!

الوليمة القاتلة

شغلتني مسألة البحث عن طرق للوقاية من خطر بعض أشجار المزرعة، والتفكير بوسائلَ سهلةٍ توفر الحماية التامة والأمان لمن يدخلها، وخاصة الغرباءَ، مع ضآلة هذا الاحتمال.

وبينما كنت أمشي في الشارع شاهدتُ لافتة صغيرة على باب فيلا قريبة، تحمل عبارة: احترس.. كلب مفترس!

وقفتُ أمام اللافتةِ أتأملها، و أبتسمُ من هذه الكلمات المنذرة الرادعة، التي يَكتُبُها أصحابُ المنازل، لتنبيهِ الزائرين الشرفاءِ، و تحذير أي لص تسوِّل له نفسه سرقة البيت، فيحتاط اللص للأمر، ويبحثُ عن وسيلةٍ رحيمةٍ لإسكات الكلب الشرس، إما بوضع مخدِّر أو منوِّمٍ له في الطعامِ.. أو محاولة عقد صداقةٍ معه، واستمالته بإلقاء الطعام الشهي له كل ليلةٍ، ولكن تلك الوسيلة مكلفة وتحتاج إلى صبرٍ طويل، وغالبًا تفشل لأن الكلابَ أوفياء لأصحابهم، وقد يرفضون طعام الشخص الغريب .. وعلى أية حال اللافتات من هذا النوع مفيدة، ووسيلة ردع طريفة.. تكتب حتى لو يكن هناك كلب من أي نوع أوحجم في المكان.. وجعلت أسأل نفسي وقد طال وقوفي أمام باب الفيلا الهادئة: هل يوجدُ حقا بها كلبٌ؟ اقتربت أكثر من الباب الموصد، ونظرت من خلال فتحاته فلم أجد أثرًا لكلب.. امتلأتُ بالزهو لصدق توقعي فليس في البيت ولا حتى جرو صغير.. وفجأة رأيت شيئًا ضخمًا كأنه أسدٌ، يندفع من بين أشجار الحديقة نحو الباب، وهو ينبح نباحًا مخيفًا ينخلع له القلب، فأسرعت بالفرار.

واصلتُ السيرَ، ولاح لي كشك الكهرباء.. وقفت على بعدٍ منه أتأمَّلُ ما هو مكتوبٌ ومرسومُ عليه باللون الأحمر من كلماتٍ و علاماتٍ: خطر.. ضغط عالٍ! ورسم لجمجمةٍ وعظمتين.. خفتُ وسارعت بالمسير.

توقفتُ عند خطوطِ عبورِ المشاةِ.. احمرَّتْ عينُ إشارةِ المرور، فتوقفت لها السيارات.. عبرتُ الشارعَ، و أسرعتُ بالعودةِ إلى جدتي بفكرةِ اللافتاتِ الإرشاديةِ، والإشارات التحذيرية.. ربتت على كتفي وابتسمت.. وسررتُ بكلماتِ الاستحسان التي

غمرتني بها.
كان أمامنا عملٌ كثيرٌ في المزرعة بعد أن فرغنا من صنع اللافتاتِ الخشبيةِ، بمساعدةِ عم شبيب، الذي أظهر مهارة تثبت أن له سابقَ خبرةٍ بالنجارةِ كما قال لنا.. قمنا بتلوين اللافتاتِ، وكتبتْ جدتي عليها بخطها الجميل.. وشاركنا بتوجيهٍ منها في رسم الأشكال المطلوبة.. أحضرنا شاكوشًا، وفأسًا، ومساميرَ، وحِبالاً، وسُلمًا.. حملناها، ومضينا بصحبةِ جدتي كرمة وعم خضير إلى المزرعة.
قمتُ وبشيرة وجيهان بنزع اللوحةِ الخشبيةِ القديمةِ التي انمحت كتابتها بفعل الزمن والعوامل الجويَّةِ، وأبدلنا بها لوحة جديدة مكتوبًا عليها: " أيكة الدواء "، ثبتناها في مكان ظاهر من سورِ المزرعةِ.
تبعنا الجدة كرمة.. كانت تتوقفُ عندَ كل شجرةٍ تمثل خطورة ما، وتراجع عم خضير وتشاوره؛ لخبرتِه الكبيرةِ بالنباتاتِ الطبيةِ، السام منها والآمن، وتطلبُ إلينا تثبيتَ اللوحةِ التحذيريةِ المناسبةِ التي تتغير صياغتها وعلاماتها تبعًا لدرجةِ خطورةِ النباتِ، والأجزاءِ السامةِ منه.

توقفنا أمام شجرةٍ مُعرِّشَةٍ، تنمو متسلقة من شجرةٍ إلى شجرةٍ، متعلقة بها.. ابتسمت جدتي وقالت:
ـ هذه هي الشجرة الاستوائية التي كانت وراءَ زواجي من الدكتور فهمي!
استلفتَ نظرَها مثلُ هذه الشجرةِ في الماضي، لاهتمام الدكتور فهمي بها، وقرأت عنها وعن سواها من النباتاتِ الطبيةِ بعد إعلان الخطوبةِ؛ لكي تجاريَ شريك حياةِ المستقبل في اهتماماتِه و تتفهمها، وتشاركه فيها؛ إذ كانت معظم أحاديثه تدور حول العقاقير والنباتات الطبية خاصة الغريبة والنادرة.. قالت إنها تنمو في الغاباتِ الساحليةِ لشرق القارة الأفريقية، واسمها " ستروفانثوس " وتعرف أيضًا باسم " سم السهم "، وتستخدم قبائل تلك المناطق بذورَها وجذورَها منذ القدم كسم لرؤوس السهام، لصيد الحيوانات، لاحتوائها على مادة فعالة تؤثر مباشرة على القلب، فتسبب توقفه؛ وتعجل بقتل الحيوان.. وتستخدم هذه المادة المستخلصة من بذور هذا النبات في الطب بجرعاتٍ مقننةٍ ، في حالات هبوط عضلة القلب، لتنشيطِ وظائفِها.

سألتْ بشيرة في دهشة:
ـ كيف يكون النبات سامًا، يؤدي سمه إلى توقف القلب، ويستخدمه الأطباء لعلاج القلوب المريضة؟!
أجابت جدتي:
ـ صدق الشاعر شوقي إذ يقول: ومن السمومِ الناقعاتِ دواءُ.. فمن حكمة الله أن جعل فى أكثر النباتات سُمِّيَّة شفاءً للأمراض، لأنها تحتوي على مواد شديدة التأثير على بعض أجهزة الجسم؛ كالجهاز العصبي، و الجهاز الدوري، تعالج الأمراضَ إن أعطيت بجرعاتٍ صغيرةٍ، يحددها العلماء من الأطباء والصيادلة، بعد دراساتٍ مستفيضةٍ، واختباراتٍ كثيرةٍ على حيوانات التجاربِ ثمَّ الإنسان.. وستصادفين أثناء سيرنا العديد من هذه النباتات السامة.. فكم أفاد الطب الحديث من الوصفات العلاجية للطب الشعبي، وكتب التراث العلاجية، ويرجع الفضل أيضًا لخبرات العطارين، و العشابين، والقبائل البدائية، في الكشف عن نباتاتٍ مهمةٍ لعلاج المرضى.

اختارت لنبات " ستروفانثوس " لافتة برتقالية، تحمل اسم النبات وعلامة وهذا يعني أنها صنفته ضمن النباتات متوسطة الخطورة، وفسَّرت ذلك بأن الأجزاءَ السامة من النبات هي البذور، وهي شديدة المرارة لا تغري بتناولها.
وعند شجرةٍ عاليةٍ توقفت جدتي، وأخبرتنا أنها تسمَّى " الجوز المقيئ "، وبذورها شديدة الصلابة، مُرَّة الطعم، وسامة جدًّا.. ولا تظهر سُمِّيتها إلا بعد تفتيتها.. و كانت تستعمل أيضًا في تسميم الأسلحة قديمًا.
و ضعت عليها لافتة مماثلة للنبات السابق.. قالت جدتي إن بذور هذا النبات تحتوي على مادة "الإستركنين"[11] الخطيرة السامة، المنبهة للجهاز العصبي المركزي، فتسبب تشنجاتٍ شديدةٍ للعضلاتِ، وتكون قاتلة لأنها توقف عملية التنفس؛ ولذلك تستخدم كسم للحيواناتِ غير المرغوب فيها.
توقفنا عند شجرة كبيرة، قال عم خضير:

---

11 الإستركنين: مركبٌ كيميائي نباتي من أشباهِ القلوياتِ أو القلويدات، ولهذه المركباتِ تأثيراتٌ دوائية كبيرة على الإنسانِ والحيواناتِ.. والأتروبين وغيره ينتمي إلى المجموعة نفسها .

ـ هذه شجرة الزنزلخت الهندي، أو " النيم ".
قاطعته:
ـ أهي الشجرة التي تسكن تجويفها الأفعى التي تحرسُ المزرعة؟!
ضحك عم خضير، وقال:
ـ لا بدَّ أن هذا من تصوَّراتِ شبيب.. وكما ترين.. لا يوجد تجويف بالجذع ولا أفعى فوق الشجرة أو أسفلها.. هي شجرة نافعة جدًّا، طاردة للذباب والناموس، وكان الدكتور فهمي يجري ابحاثه عليها، ونجح في استخراج مركبات منها، وتحويرها، لتحارب الآفاتِ الضارةِ ولا تضرُّ الحشرات النافعة مثل النحل.
ثبتنا إلى جوار شجرة "النيم" لافتة خشبية خضراء، ما يعني :" شجرة آمنة".
وصلنا إلى إحدى الخيماتِ، وعرفت من عم خضير أنها " صوبة " أو " دفيئة "، توفر درجة الحرارةِ ونسبة الرطوبةِ اللازمةِ لنمو نبتةٍ معينةٍ، وتحميها من الصقيع.. وتوجد صوباتٌ أخرى مكيفة؛ لتلائمَ أشجارَ المناطقِ الباردةِ.
عدوتُ نحو الزهرة التي تماثل القلب.. كان يتراص على الغصن عدة زهرات، فبدا مثل قلادةٍ جميلةٍ أو عقدٍ فاتنٍ، تتدلى منه القلوبُ الحمراءُ، التي تسيل منها قطراتُ الدماءِ.. علا صوت جدتي تحذرني من قطف تلك الزهور.. وعلمت ان اسمها بالفعل مطابق للاسم الذي أطلقته عليها: " زهرة القلب النازف " أو " زهرة القلب الدامي ".. وهي حقًّا كذلك.. من يرها يحسبها قلبًا تنزف منه الدماء.. اخبرتني انها زهرة سامة، قد تقتل من يبتلعها، وتسبب تهيجًا شديدًا بالجلد.. موطنها أقصى شرق آسيا، وتنمو في سيبيريا و اليابان، وتوجد في ثلاثة ألوان: الأبيض، والوردي، والأحمر.. قلت لجدتي:
ـ لا أكاد أصدق أن كل هذا الجمال ينطوي على سم قاتل!
ابتسمت جدتي وقالت:
ـ هذه الزهرة من أغرب وأجمل زهور العالم.. يحقُّ لنا ان نطلق عليها "الجمال القاتل".. هذا درسٌ جديدٌ من عالم النبات: لا تنخدعْ بالمظهر، فقد يختفي خنجرُ الردى تحت الرداءِ الجميل!
تذكرتُ الآن كيف هممتُ منذ ثلاثة أيامٍ بقطف بضع زهراتٍ منها، و بفضل

الله، وإلهامٍ منه شغلت بشيءٍ آخر ألهاني عنها في اللحظةِ الأخيرةِ.. فكان ربي لي حفيظًا!

اختارت جدتي لافتة حمراء عليها رسم الجمجمة والعظمتين إشارة إلى خطر الموت.. وعبارة: زهرة خطرة!

بلغنا نبات "ست الحسن"، وضحكنا عندما أسرعتْ بشيرة بوضع لافتةٍ حمراءَ بجمجمةٍ وعظمتين إلى جواره.. وقالت وهي تنظر إلى الشجرة حانقة:

ـ كدتِ تقتلينني.. لا أدري لماذا أسموكِ " ست الحسن "؟!

أجابت جدتي:

ـ كلُّ النباتات في نظري جميلة.. كلمة بلادونا تتكون من مقطعين: بلا ـ دونا و تعني بالإيطالية" السيدة الحسناء" أو "المرأة الجميلة".. وسر التسمية يعود إلى مكوِّناتِ النباتِ، ومن بينها مادة "الأتروبين " التي توسِّع حدقة العين.. وقد عُرف عن عصارةِ النباتِ هذا التأثير، فكانت النساءُ في العصور القديمة، يستخدمنها كقطرةٍ للعيون؛ ليظهرن أكثرَ حسنًا وجاذبية.. ومن هنا جاءَ الاسمُ.

واصلنا العمل وتثبيت اللافتات التحذيرية.. إلى أن وصلنا إلى أخطر شجرة في العالم.. وعلى مقربةٍ منها شجرة أخرى تدانيها خطرًا.

الأولى شجرة المنشينيل.. موطنها جنوب قارة أمريكا الشمالية، واالمنطقة الشمالية لأمريكا الجنوبية.. ويعني اسمها: التفاح الصغير المميت، وتفاح الشاطئ.. ثمرتها حلوة الطعم تشبه التفاح.. لكنها سامة.. تقول جدتي: لو وقف شخص تحتها؛ ليحتميَ بها من المطر، فإن الماء الساقط منها سيتسبب في حروق شديدةٍ بجلده.. و الدخان الناتج من حرق أوراقها، يصيب الإنسان بالعمى.. وقطرة واحدة من عصارتها تؤدي للوفاة.

سألتْ جدتي عم خضير إن كانت هذه الشجرة تذكره بشيءٍ.. راح يفكر ثم ضحك وقال:

ـ صبي السباك!

وحكى ما حدث، وكيف أن ذلك الصبي أغرته ثمرتها وظنها تفاحة.. وعندما هجم عليه عم خضير وقد همَّ بأكلها؛ لينزعها من يده، فزع الفتى ودهش، وبكى

ظنا منه أنه ارتكب جرمًا كبيرًا، وأقسم بالله أنه لم يقطف تلك " التفاحة" من الشجرة، وأنه وجدها على الأرض، ولولا ذلك ما أخذها.. وأصابه الرعبُ الشديدُ عندما علم بأن التفاحة قاتلة.

وختم عم خضير حديثه قائلاً:

ـ أشفقتُ على الصبي، وأسرعتُ إلى الحديقة.. أحضرتُ له تفاحة حقيقية من شجرةِ التفاح لأطيِّبَ خاطرَه.. لكنه ارتاعَ عندما رآها، وقال إنه لن يأكل التفاح أبدًا!

انتهى عم خضير من سرد واقعة الصبي والتفاحة القاتلة، وروت لنا جدتي قصة الفاتح الإسباني خوان بونثي دي ليون، حاكم بورتريكو السابق، الذي يُقال إنه ذهب ضحية لهذه الشجرة.. وكيف وصل ولاية فلوريدا العام 1521م للبحث عن الذهب، ولم يقبل السكان الأصليون بتسليم أراضيهم إليه.. دارت بينهما معركة، سقط خوان فيها جريحًا تحت شجرة "منشينيل".. ونزلت عصارة الشجرة التي تشبه اللبن على قدمه، وتسببت في موته.

أما الشجرة الثانية فهي " الأوباس "، وتوجد في جنوب شرق آسيا.. ويستخدم سكان جزيرة جاوة، والجزر الأندونيسية المحيطة بها، العصارة المسْتخرَجة منها لتسميم السهام، لصد الغزاة، فيسري السم في الضحية ويصيبها بالشلل والتشنجات والموت خلال دقيقة واحدة!

ثبتنا أمام كل منها لافتة تحذيرية حمراءَ، عليها رسم الجمجمة والعظمتين، وعبارة: لا تقترب.. خطر الموت!!

وإمعانًا في الحيطة قمنا بوضع أحبالٍ متينة كحاجزٍ حول كل من الشجرتين!

واصلنا العمل حتى أصابنا التعب.. وعلى مقربة من قاعة المحاضرات لاح نبات زهري جميل.. قال عنه عم خضير إنها شجرة " الدفلى " السامة.

قالت جدتي:

ـ لشجرة "الدفلى " حكاية غريبة جرت أحداثها في إسبانيا، أثناء غزو الجيوش الفرنسية بقيادة الإمبراطور نابليون لها في أوائل القرن التاسع عشر.. هيَّا إلى قاعةِ محاضراتِ الدكتور فهمي لتسمعوها!

دخلنا القاعة وجلسنا على المقاعد حيث جلس مئات الطلاب والضيوف من قبل، واحتلت جدتي كرمة كرسي زوجها وشرعت تحكي:
"كان الفرنسيون فرحين بانتصارهم على الإسبان.. وتقدم ضابط فرنسي برتبة كابتن من زميلٍ له يعلوه في الرتبة، وخاطبه في احترامٍ:
ـ سيدي الكولونيل نفد طعامنا والجنود جائعون.
رد عليه الكولونيل المنتصر في زهوٍ:
ـ طعام المنتصرين على المهزومين يا كابتن!
أصدر الكولونيل أمره إلى الكابتن بأن يسارع إلى إبلاغ الجنودِ بالامتناع عن شربِ الماءِ من بئرِ تلك القريةِ الإسبانيةِ؛ لاحتمال قيام الأهالي بوضع السم فيها.
وعندما وصل الكابتن للجنودِ الفرنسيين اكتشف أن عددًا كبيرًا منهم قد شربوا بالفعل من البئر.. قرر الكابتن الفرنسي أن يتكتم ما حدث، ويخفيه عن قائده.. وأمر الجنودَ بأن يحضروا من القرية ما يكفي من اللحوم والأطعمة لإعداد وليمةٍ كبيرةٍ، تليق باحتفال الجيش المنتصر.
انطلق الجنود إلى القرية، وأخذوا البقر والخراف من الفلاحين ليذبحوها، وجمعوا العنب من الحقول، ليجهزوا وليمة الانتصار.
جهز الجنود اللحم ، واحتاجوا إلى أسياخ للشواء.. وجدوا أشجارًا قريبة ذات أزهارٍ جميلة، صنعوا من غصونها أسياخًا لشي اللحم.
بعد أن أكل الجنودُ واستمتعوا بلحم الشواءِ، وعناقيد العنب اللذيذة، وجد أهلُ القرية في الصباح الجنودَ الفرنسيين جثثا هامدة!
كان موتهم الجماعي أمرًا مريبًا، فأصبح القرويون مشفقين على أنفسهم من انتقام الإمبراطور نابليون بونابرت؛ فهو بالتأكيد سيشك فيهم.
أُبلغ نابليون بالكارثة، فقرر الذهاب بنفسه إلى القرية، لكشف الجاني أو الجناة، والثأر لجنوده من سكانها!
وكان السؤال الذي حيَّر نابليون: من قتل جنودي؟!
إلى هنا سكتت جدتي عن الكلام، وتوجهت إلينا بنفس السؤال: من القاتل؟
أخذنا نفكر في حل هذا اللغز.. أجابت بشيرة:

ـ ماء البئر.. لا بدَّ أن الأهالي وضعوا السمَّ فيه لقتل الغزاةِ، وقد عرفنا من الحكاية أن جنودًا كثيرين شربوا منها.

ابتسمت جدتي وقالت:

ـ حام الشك حول البئر.. أمر نابليون بأن يشرب أهل القرية جميعًا من مائها.. شرب الجميع ولم يصبْ أحدٌ منهم بسوءٍ! طبعًا ثار الإمبراطورُ وأصدر أوامره بالتحقيق مع الفلاحين بمنتهى الحزم والشدَّةِ؛ ليعترفوا بالحقيقة، ويُقدمَ المذنبون إلى المحاكمةِ، وإلا سيأمر بإعدامهم جميعًا!

عاودنا التفكير.. قلتُ:

ـ كان العنبُ من ضمن ما أكل الجنودُ في وليمتهم وربما كان مسؤولاً عن موتهم!

قالت جدتي:

ـ ليس العنب.. هل لديك تفسيرٌ آخرُ يا جيهان؟

أجابت جيهان:

ـ لم يبقَ إلا اللحمُ.. اللحمُ هو السببُ!

تهللت جدتي:

ـ اقتربتِ من حل الفزورةِ.. ولكن كيف؟

أمعنت جدتي في تشويقنا.. وتعلقت بها عيوننا وآذاننا وعقولنا في انتظار الجوابِ.

قالت جدتي:

جاءَ الحل من أحد رعاة االغنم الإسبان.. طلب هذا الراعي المثول بين يدي الإمبراطور؛ لأنه كشف الحقيقة بشأن موت الجنود الفرنسيين.. وأخذ يردِّد: أهل القرية أبرياء!

تعجب الإمبراطور: أهل القرية أبرياء.. فمن قتل جنودي؟!

قدم الراعي فرع شجرة بكل ثقةٍ وقال: هذا هو القاتل الحقيقي! شجرة "الدِفلَى"!!

وظهرت الحقيقة.. لقد صنع الجنود أسياخًا لشي اللحم من فروع شجرة " الدِفلَى " السامة.. فانتشر السم في اللحم، وأدى لتسمم الجنود وموتهم.

قال الراعي إن الأبقارَ والخرافَ.. حتى الحملان.. لا تأكل من هذه الشجرة أو تقربها، وتدرك بغريزتها أنها سامة.

ثبت صدق الراعي العجوز.. وعلق نابليون قائلاً:
ـ لقد فطنتِ الخراف والأبقار بفطرتها إلى ما لم يفطن إليه جنودي وكبارُ قادتي.. ولا حتى أنا؛ الإمبراطور نابليون شخصيًّا.. حقا.. دروس الحياة لا تنتهي.. ولكن ثمنها يكون فادحًا في بعض الأحيان!
وأثبت العلمُ فيما بعد أن الدفلى نباتٌ سام لاحتوائه على مركبات فعالة تؤثر على وظائف القلب.
انهت جدتي الحكاية بقولها: توتة توتة فرغت الحدوتة.. حلوة ولا ملتوتة؟
رددنا في صوتٍ واحدٍ: حلوة!

استكملنا في اليوم التالي وضع اللافتاتِ التحذيريةِ والحواجز على بقية أشجار الحديقة، وانفتح باب المزرعة أمام جميع من بالبيت على مصراعيه.

الفونوغراف

جدتي وفية لأهلها، ولذوي قرباها، وصديقاتها و أشيائها.. ما رأيت من هو أكثر منها اعتزازًا بأشيائها القديمة.. سيدة التذكارات.. قول يَصدقُ كلَّ الصدق عليها.. خصصت خزانة تحفظ فيها تذكاراتها، ومن أعز مقتنياتها: مجموعة من فوانيس رمضان، ذات نوافذ زجاجية ملونة، تضاء بالشموع، تعود إلى أيام طفولتها.. وقطعة القيشاني التي عثرت عليها بين انقاض فيلا أم كلثوم.. وفونوغراف[12] قديم له بوقٌ كبيرٌ.. تقول إنها تحبه، وتسعد به، و تعتز بأسطوانةٍ قديمةٍ مسجل عليها موشحٌ من الشعر القديم، يأتي ذكر "الجُلَّنار" ـ وهو اسم والدتها ـ في مطلعه.

كانت جدتي كرمة تغير مجلسها المعتاد في الشرفةِ، وتستبدل به شباك الفيلا الجانبي؛ المطل على شجرة الرُمَّان مع أوائل الربيع.. في شهر أبريل تبدأ زهورُ الرمان في التفتح، وتقيم الشجرة مهرجان البهجة في الحديقةِ، بعشرات الزهور الحمراء المتوهجة، ذات الأبواق.. أقارن بينها وبين بوق الفونوغراف.. كم يتشابهان!.. أي سرٍّ أودع الخالقُ فيكِ يا شجرة الرمان أزهارًا وأثمارًا!

كانت جدتي تخرج الفونوغراف من مكمنه، كلما أتى الربيع.. كانت تؤثره على الراديو في شهر أبريل!

تضع الإسطوانة عليه، وتديرها.. تصغي إلى صوتٍ رفيع مشروخ، أشعر كأنه يأتي من زمن موغل في القدم، يجاهدُ كي يصل إلى السامعين، ويكابد معه المستمع، ليستبينِ كلماتِه، التي استطعت نطقها وحفظها من طول سماعها:

جلَّ من طرز الياسمين في خديكَ بالجُلَّنار

كنت أعجب من جدتي الوقور، ورأسها تتمايل من نشوةِ الطربِ.. ماذا في هذه الكلمات الصعبة الغريبة من معنى يشدها ويشغفها؟!

كنت أعرف الياسمين جيدًا وأحبه؛ فزهره الأبيض الجميل، على أسوار الحدائق، يضج أريجه كل مساءٍ.. سألت جدتي عن معنى "الجُلَّنار".. بان على محياها

12 الفونوغراف: أو الحاكي هو أوَّلُ جهازٍ استخدم في استعادة أصواتٍ مسجلةٍ على أُسطواناتٍ، ابتكره المخترع الأمريكي المشهور توماس أديسون في العام 1877م.

السرور وأجابتني:
ـ الجُلَّنَار يعني باللغة الفارسية زهر الرمان.
كانت سعيدة بي لأني طرحت عليها هذا السؤال، وفسَّرت لي سرَّ سعادتها:
ـ سيدة الغناء العربي أم كلثوم كانت تسأل وهي صغيرة، ولا تردِّدُ كلامًا لا تفهم معناه.. التحقت بـ "كُتَّاب القرية " وهي في نحو الخامسة من العمر، والكُتَّاب مكان لتحفيظ القرآن، ومبادئ القراءة والكتابة، على يدِ أحد المشايخ.. حفظتْ أم كلثوم أجزاءَ من كتاب الله، مكنها من النطق السليم، وضبط مخارج الألفاظ، وساعدها ذلك على حفظ الموشحاتِ الدينيةِ والقصائدِ والابتهالاتِ، و حُسْنِ أدائها.. كانت تتذوق الشعر، ولها حاسة جمالية في انتقاء الكلمات التي تغنيها.. وحدث أن سألتْ أم كلثوم والدها في صغرها عن معاني بعض كلمات هذا الموشح القديم: جلَّ من طرز الياسمين.. فسرَّ بها، وتنبأ لها بشأنٍ عظيمٍ في المستقبل.

حاولتُ تفسيرَ معنى البيتِ، فعاودتني حيرتي.. أنا أعرف أن التطريز يعني تزيين الثياب، وزخرفتها بالرسوم، باستخدام الخيوط الملونة وغيرها، فكيف طرِّز زهرُ الياسمين بزهر الرمان في هذين الخدين؟!
سألت جدتي و أجابت:
ـ الكلماتُ في الشعر لا تدل أحيانًا على معناها الحقيقي القريب، المتداول في كلامنا العادي.. فالشاعر يرسم بالكلمات صورًا من خياله، فيكتسب اللفظ معنى جديدًا، يثير دهشتنا ويبهرنا ويمتعنا.. فتغدو أشعة الشمس خيوطًا من الذهب، وتمسي النجوم لآلئ منثورة في السماء، كما في قول الشاعر محمود أبو الوفا في قصيدة "عندما ياتي المساء": عندما تبدو النجوم في السما مثل اللآلي.. والأمثلة كثيرة يصعب إحصاؤها.. هذا الخيال الطليق، مع الإيقاع الجميل، والموسيقى الظاهرة والخفية في الشعر، سر روعته وسموه.
قلتُ :
ـ فهمتُ الآن.. يريدُ من نظم القصيدة أن يتعجب من قدرة الله سبحانه، الذي جعل للخدين الموصوفين بياض زهر الياسمين تزينه حمرة الجُلَّنَار.
قالت جدتي:

ـ وذكر التطريز ليعبر عن الجمال والزينة وشدة الارتباط بين اللونين الأبيض والأحمر.. فهو لون طبيعي من صنعة الخلاق العظيم، لخدين يفوح منهما عبير الزهور العاطرة، في وجهٍ أنعم الله عليه بالصبا والجمال والنضارة، و الصحة الكاملة، والصفاء النفسي!

ويبدو أن حيرتي لن تنتهي.. سألت جدتي:

ـ ماذا قصد الشاعر على وجه الدقة؟! اللون؟ الرائحة؟ الحسن والروعة؟.. الصبا أم الرونق والبهاء و الصحة؟!

راحت تتطلع إلى سربٍ من الطيور، انطلق من الحديقة إلى السماء دفعة واحدة:

ـ المعاني كثيرة.. طليقة في دنيا الخيال.. لا تحبسيها يا سهيلة في قفص المعنى الواحد!

ـ لا بدَّ أن الشاعر قصد شيئًا بالتحديد!

ـ الشاعرُ كتبَ قصيدته وفرغ منها، وأطلقها.. صارت منذ تلك اللحظة ملك الناس جميعًا.. وصار لكل قارئ لها أو مستمع معنى قد يختلف عن الآخر.. هكذا تتعدَّدُ المعاني وتتجدَّد ولا تنتهي.. وكلما تنوعت التفاسيرُ زادت قيمة القصيدة وروعتها!

قلت:

ـ أنت تحبين هذه الأغنية لأنها عذبة اللحن، جميلة الكلمات.. ولأن اسم والدتك مذكورٌ فيها.

ابتسمت جدتي.. قالت:

ـ أحبها لكل ذلك.. ولغير ذلك!

تصرُّ جدتي على أن تحيرني معها.. أهناك أسبابٌ أخرى؟!

تسألني واللحن يقترب من نهايته:

ـ هبي أن سنواتٍ طويلة مرَّت، وسمعتِ هذا اللحن، بماذا سيذكركِ؟

أجبتُ من فوري:

ـ أشياء كثيرة: سيذكرني بكِ يا جدتي.. و بالربيع.. وشجرة الرمان.. والجلنار.. والفونوغراف.. والأسطوانة.. وأم كلثوم... وأنت بم يذكركِ؟

أدارت جدتي الأسطوانة من جديدٍ.. راحت تنظر إلى الأفق البعيدِ، وتقلب بصرها بين الشمسِ الحمراءِ الغاربة، وزهر الرمان، وكأنها تبحث عن شيءٍ ضائعٍ!

مرَّتِ السنون.. وعاشت جدتي كرمة حتى شهدت مولد ابنتي كرمة الصغيرة.. وفرحتْ بها.. ولا تزال أصداءُ اللحن تتردَّدُ في خاطري: جلَّ من طرَّز الياسمين .. في خديك بالجلنار!

المندولين

المندولين.. تداعب ميلندا أوتاره الآن، و يتناهى صوته إلى سمعي في هذه اللحظاتِ، مسافرًا عبر البحرِ المتوسطِ، عابرًا جزرَ اليونان إلينا!

يرتبط المندولين في وجداني منذ صغري بالشجن[13].. سمعته مراتٍ كثيرةٍ.. منها ثلاث مناسبات أهاجتْ أحزاني وأشجتني.

كان لا يفصلنا عن ميلندا غير شارع خلفي ضيق نسبيًّا.. اجتازه في فرح إليها.. كنت أرى في صالة البيت، من وراءِ زجاج، آلة موسيقية ذات أوتار، قريبة الشبه بالعود، غير أنها أصغر حجمًا منه، تقبع ساكنة في دولابٍ أسود لامع رشيق الأرجل.. لم أكن أعرف بعد أن هذه الآلة الصغيرة اسمها المندولين، وأنها تخفي في زورقها الصامت كل هذا النغم العذب الشجيِّ.. تنتظر ريشة العازف لتبوحَ به أوتارُها الأربعة.. لم أكن أعرف هذا كله، حتى سمعت معزوفات مدام "أفروديت"، وغناءها أيضًا.. كانت تعزف أحيانًا وتغني باللغة اليونانية.. لم اكن أفهمها، لكني كنت أحب أغنياتها، وأحس أنها مليئة بالأشواق والأسى.. ميلندا كانت تدرس في المعهد العالي للموسيقى.. الكونسرفتوار منذ صغرها.. وكانت تهوى المندولين، وتتدرب على عزفه.

عزفت ميلندا ذات مرَّة موسيقى " زوربا اليوناني"، وأعجبت جدًا بلحنها المليءِ بالحيويَّةِ، و الانطلاقِ والبهجةِ والتفاؤل والأمل.

يذكرني المندولين دائمًا بالبعادِ والفراق.. فارقتُ جدتي مرتين، قبل أن تفارقَ هي الدنيا بلا عودةٍ.. المرَّة الأولى عندما أخذني أبي وأمي لأعيش معهما في شقتنا، وأكون قريبة من مدرستي في منيل الروضة.. والمرة الثانية عند سفري بصحبة أمي لسلطنة عُمان؛ للإقامة مع أبي المعار للعمل هناك.

أحببتُ حي منيل الروضةِ.. لم يكن ينقصني فيه شيءٌ إلا جدتي كرمة.. لو كانت معي لتمَّتِ السعادة واكتمل الهناء.

---

13 الشجن: الحُزن.

مصرُ الجديدة والمنيل موضعان كلاهما جميلان.. لكل واحدٍ منهما مذاقٌ مختلفٌ.. الأول حديث الإنشاء، احتفل بمرورعيد ميلاده المئوي الأول منذ بضع سنواتٍ، فهو يعدُّ وليدًا أو في شهور طفولته الأولى مقارنة بكثيرٍ من المدن.. والثاني حي تاريخي تليدٌ عريق.. اختار الملك الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة، لمعيشة مماليكه، فأطلق عليهم "المماليك البحرية" نسبة إلى نهر النيل، الذي يسمى أيضًا " بحر النيل".. وفيه قصر العيني الشهير، و مقياس النيل أو مقياس الروضة، وكان يستخدم في العصور الإسلامية لقياس فيضان النيل وتقدير الضرائب على أساس ذلك.

كانت جدتي كرمة تردِّدُ في حضورِ أبي، ابياتًا من الشعرِ، لمحمود سامي البارودي الملقب بـ " رب السيف والقلم "، يذكر فيها حي منيل الروضة حيث نسكن:

فيا روضة المقياس جادك سلسلٌ[14] من النيل يدعو للحنين السواقيا

و أيضًا:

فيا روضة المقياس حيَّاكِ عارضٌ[15] من المُزن خفاق الجناحين دالحُ[16]

أعجبت منذ حداثة سني بهذا الشاعر، وكنت أحسَّ بالفخر لأنه خلّد المكان الذي نسكنه في أشعاره، وكان من أسباب عشقي له.. وعندما وصلت إلى المرحلة الثانوية، درست سيرة البارودي وشعره.. وعرفت أنه نفي إلى جزيرةِ سرنديب بالمحيط الهندي؛ المعروفة في الوقت الحاضر بـ "سريلانكا"؛ لاشتراكه في الثورةِ العرابيةِ.. كان يقاسي آلام الغربة، ويكابد الأشواق، وهو إذ يذكر روضة المقياس، إنما يقصد وطنه كله، ويدعو الله أن يسقيه بالماء العذب السيال، وبالمطر الغزير، ويغدق عليه الخيراتِ والبركاتِ

ما أكثر ما تغنى هذا الشاعر بروضة المقياس! ألأنه يحنُّ إلى أجداده الذين ينتسبون إلى حكام مصر المماليك، أم إلى أيامٍ سعيدةٍ قضاها مع الخديو إسماعيل ـ وكان

---

14 سلسلٌ: ماءٌ عذبٌ سهلٌ صافٍ.

15 عارض: السحابُ المطلُّ.

16 دالح: سحابٌ كثيرُ الماءِ.

البارودي ياوره الخاص ـ في أحدِ قصورِه الخديوية الجميلةِ على شاطئ نيل الروضة؟ كان لي ذكريات في حي المنيل.. فقد زرت مقياس النيل، ومتحف أم كلثوم، والتحقت بكلية طب قصر العيني وتخرجت فيها.

وعندما سافرنا إلى عُمان، أمضيت زمنًا جميلاً.. كنا نقيمُ في بيتٍ رائع في " صلالة "، لؤلؤة بحر العرب، وعروس الجزيرة العربية، العاصمة الثانية بعد مدينة مسقط، وحاضرة محافظة ظفار.. بلد اللبان والبخور.

كنت أرى من نافذة بيتنا شاطئ بحر العرب، وأشجار جوز الهند أو النارجيل تصطف على رماله البيضاء.

كم استمتعت بالجبال المكسوَّةِ بالخضرةِ، التي تحيط صلالة تقريبًا من جميع الجهات.. ما أجمل عيون الماء ومساقطه وجداوله.. وأشجار النارجيل والموز!

وعلى الرغم من روعةِ الحياةِ في عُمان، وطيبة وكرم أهلها، لم يبارحني الحنين إلى بلادي.. كم أشفقت على الشاعرين البارودي وشوقي.. لكأن قدرَ الشعراء الوحدة والغربة داخل وخارج أوطانهم.. كم عجبتُ لتشابه أقدارهما في بعض النواحي.. كلاهما أبعده الإنجليز عن مصر.. البارودي نفي إلى سرنديب بسبب اشتراكه في ثورة الزعيم أحمد عرابي ضد الخديو توفيق والإنجليز، وأمضى في المنفى أكثر من سبعة عشر عامًا.. شوقي نفوه إلى الأندلس؛ لولائه وإخلاصه للخديو عباس حلمي الثاني المعروف بعدائه للاحتلال البريطاني.. والشاعران أبدعا في المنفى قصائدَ خالدة في حب الوطن، والحنين إليه، وذكرا بعض الأماكن الأثيرة إلى قلب كل منهما؛ كعين شمس و ضواحيها في شعر شوقي، و جزيرة الروضة في قصائد البارودي.

وهأنذا أقف على شاطئِ بحر العرب.. أتصور النيل، وحي مصر الجديدة وجدتي كرمة، وشقتنا في منيل الروضة.. وأحيي "روضة المقياس "، وأتمنى الرجوع إليها!

كان أول افتراق أحزن قلبي في أحد أيام الجمعة.. كنت سأذهب للمدرسة الابتدائية التي ألحقني أبي بها في المنيل صباح يوم السبت.. كان بيني وبين انتزاعي من حضن كرمتي سويعات قليلة.. كنت انتظر حضور أمي وأبي بين لحظةٍ واخرى؛ ليأخذاني بالسيارة إلى شقتنا.

ظللت حتى اللحظاتِ الأخيرةِ من مساءِ الجمعة أنتظر حدوث معجزةٍ تبقيني مع جدتي.. كنت أشعر بحاجتي إلى مجالسةِ أحدٍ، والبحث عن مكانٍ آخرَ ألوذ به.. قد يكون نوعًا من الهروب النفسي، يلجأ إليه الإنسان في أوقات الشدائد و الأزمات.

مضيتُ إلى بيت ميلندا.. دخلتُ.. كانت هناك موسيقى تنساب من الشباك المفتوح إلى جو الحديقة.. مدام أفروديت تعزف المندولين أم ميلندا؟ أعرفُ عزفَ كلِّ واحدةٍ منهما، وأستطيعُ التمييز بينهما.. العزف مرآة لشخصيةِ الإنسان، وحالته النفسية من فرح أو حزن.. عزف الأم كشخصيتها يغلب عليه الهدوء، فيه لمساتٌ من الحزن والغربة والتمني.. عزف البنت منطلق، سريع، مرح، مبتهج.. أخذت أخمِّن العازفة.. أهي ميلندا؟.. لِمَ لا تكون أمها؟ انتابتني الحيرة.. ميلندا أم أمها؟! لم لا يكون شخص المستمع هو مرآة اللحن.. واستقبال الإنسان للحن في حالات فرحه يختلف عنه في ساعات حزنه.. لا أدري!

لم أشأ أن اقاطع العازفة، وجلست على سلم البييت أستمع إلى تلك المقطوعة الحزينة أو التي أحسها هكذا.

وبينما انا مستغرقة في النغم والحزن، إذا بصوتٍ يناديني.. كانت فواكه.. جاءت لتخبرني أن أبي وأمي حضرا ويريداني.. امتدت يدها نحوي.. أسلمت يدي إلى يدها كالشاردة.. ومضينا معًا إلى الفيلا.

لم أعرف من كانت العازفة.. الشيء الذي أعرفه جيدًا أنني كنت حزينة.. وكان المندولين مثلي محزونًا!

المرة الثانية حين صادف عيد ميلادي الثاني عشر يوم السفر إلى عُمان.. ستقلع الطائرة إليها في الساعة الحادية عشرة مساءً، ويجب أن نصل إلى مطار القاهرة في التاسعة أو قبل ذلك.

صمَّمتُ أن أقضيَ اليوم عند جدتي كرمة، و أن تكون حفلة عيد ميلادي في بيتها، وفي حضور صديقاتي.. وأن تصنع مدام أفروديت التورتة بيديها.

أردتها حفلة وداع لمصر الجديدة ومن فيها؛ لهذا أعددنا الحقائب وحملناها إلى الفيلا، لنمضيَ من هناك رأسًا إلى المطار، بسيارة مدام أفروديت الخاصة.

كان الحفل جميلاً ، زاد أنسُه بوجود أمي و جدتي ومدام أفروديت.. حضرته أيضًا بشيرة وجيهان.. وقشطة وفواكه وعم شبيب.. كنت أتناسى الرحيل الوشيك عن بلدي، وأحاول أن أملأ عينيَّ وقلبي بمن أحب، واستمتع باللحظات المتبقية لي على أرض الوطن.

افتقدتُ ميلندا.. سألتُ عنها.. علمتُ من أمها أنها تعاني من نزلة برد حادة، وأوصى الطبيب بالراحة التامة، والاعتكاف بالفراش؛ لتفادي حدوث مضاعفاتٍ لها!

نقصت بهجتي بافتقادي تلك البنت النصف مصرية النصف يونانية، وحالة القلق التي تنتاب أمها؛ فكانت تذهب لتطمئن عليها، ثم تؤوب إلى الحفل.

انتهى احتفال عيد الميلادِ في نحو الثامنةِ مساءً.. عانقت بشيرة وجيهان.. و قشطة وفواكه، وأنا أذرف الدموع.. سلمت على عم شبيب، ودعا الله لي بالسلامة.

أنزل عم شبيب الحقائب، ونقلها إلى السيارة بمعاونة فواكه.. و وقف الجميع يشيعوننا.. جلست مدام أفروديت أمام عجلة القيادة، وبجوارها أمي.. اتخذنا مجلسنا أنا وجدتي في المقعد الخلفي.. ارتفع أزيزُ المحركِ.. و قبل أن تهم السيارة بالتحرُّك، فوجئنا بميلندا تهرول في اتجاهنا، وفي يدها المندولين، ترجونا الانتظار.. دهشتْ أمُّها لخروجها وهي مريضة.. وجهت إليها كلامًا باليونانية لا بدَّ أنه لومٌ أو أمرٌ بالعودة إلى الفراش.. ناشدتها أمي و جدتي الرجوعَ إلى البيتِ.. أما أنا ففرحتُ لرؤيتها، لأني لم أتمكن من الاطمئنان عليها؛ لضيق الوقت، فقد كنا في عجلةٍ من أمرِنا، وفوق ذلك كانت أفكاري مشتتة، لانشغال بالي بالسفر.

أصرَّت ميلندا على أن تصاحبنا حتى المطار، وقالت إنها تحس بنفسها، وأن حالتها تحسنت بالعلاج، ولن تكون هناك أية مشكلة في ذهابها معنا بالسيارة.

كنت أدعو الله ان توافق أمها ولا تعترض، واستجاب دعائي.. سمحت لها مدام أفروديت بالمجيءِ معنا، فأسرعت ميلندا بالركوبِ.. وانطلقت بنا السيارة، وأنا في المقعد الخلفي أتوسط جدتي وصديقتي العزيزة ميلندا.

قالت لي ميلندا: كنت أريد أن أهدي إليكِ لحنًا في حفلة عيد ميلادك.. ولن أفوت هذه المناسبة دون أن أعزف لكِ شيئًا.

شرعت ميلندا تعزف، وهدأت أمها من سرعةِ السيارةِ قليلاً، لأن المسافة إلى المطار

قصيرة.. أذكر أن المندولين ظل يصدح بنغمٍ شجيٍّ حتى المطارِ.
وفي المرة الثالثة انقلب الوضع فصار المسافرُ مُودِّعًا، والمودِّع مسافرًا!
كانت ميلندا قد أنهت دراستها في "الكونسرفتوار " وتخصصت في الآلات الوترية، وكنت قد تخرجت حديثًا في كلية الطب.
قررت أسرة ميلندا الهجرة إلى اليونان.. صحبتُ مدام أفروديت و الأستاذ مينا وابنتهما ميلندا إلى شقةِ الإسكندرية، واستقبلهم والدي واحتفى بهم.
سهرنا حتى مطلع الفجر على شاطئ المتوسط.. حب مدام أفروديت للبحر لا يعادله شيءٌ آخرُ.. ربما لأنها تنتمي إلى اليونان ذات الجزر الكثيرة.. اختارت السفر على سفينةٍ؛ لأنها تؤثرالسفن على الطائراتِ.. عزفت ميلندا على المندولين بمهارة فائقة، وصاحبتها مدام أفروديت بالغناء لأم كلثوم بالعربية، وغنت كذلك باليونانية.. وشيعتهم إلى الباخرةِ.. ودمعت عيناي حين غادرتِ الميناءَ.
فرقتنا الأيام، وانقطعت أخبار مدام أفروديت بمرور الزمن.. شاهدت ميلندا بالصدفة العام الماضي على شاشة التلفزيون.. كانت تعزف المندولين ضمن فرقةٍ موسيقيةٍ عالميةٍ، على مسرح بباريس.. فرحتُ جدًّا لنجاحها ووصولها إلى هذا المستوى العالمي في عزف المندولين.

الوروار

كان أبي يصحبنا إلى مصر في إجازته السنوية التي لا تتعدى شهرًا واحدًا في العام .. كنتُ في كل زيارة، أمضي إلى جدتي، ألثم يدها وأعانقها، وأرنو إلى وجهها الصبيح، لأروي اشتياقي إلى ابتسامتها الوادعة، وأعوَّض شهور فرقتنا، بقضاء أيام الإجازة معها.

بضع سنواتٍ قضيتها في "صلالة"؛ الثغر الجميل.. لم يكن لدى والدي الرغبة في تجديد إعارته.. كان يفكر بالعودة الدائمة إلى الوطن؛ لأسبابٍ صحيةٍ، على الرغم من تمسك المسؤولين العُمانيين به.

أيدته أمي بقوةٍ، وصرَّحت بانتوائها ألا تجدِّد عقدها مع الجامعة، فقد كانت أمي تعمل في التدريس الجامعي هناك؛ وقالت إنها تريد العودة النهائية والاستقرار في الوطن.

كان والدي يعاني حقًّا من آلام نوع من الروماتيزم المفصلي، ومتاعب في الفقرات، واستقال من عمله في القضاء عقب عودته إلى الوطن بفترةٍ قصيرةٍ؛ لاشتداد المرض عليه، وعدم قدرته على القيام بأعباء وظيفته كرئيس محكمة.. افتتح مكتبًا كبيرًا للمحاماة في مدينة الإسكندرية عقب عودته لمصر.. وقد اختار الإسكندرية لأنها بلده و الموطن الأصلي لعائلته.. و وظف عددًا من شباب المحامين ليعاونوه في العمل، حتي لا يرهق نفسه، وتتاح له فرصة التنقل بين المكتب وشقة المنيل في القاهرة.

وهكذا رجعت إلى بلدي وقد بلغت الثامنة عشرة من العمر، بعد انتهائي من التعليم الثانوي، وقدمت أوراقي للالتحاق بكلية طب قصر العيني؛ تلبية لرغبة جدتي كرمة، ورغبتي أيضًا.

وعلى مدى سني الغربة، حدثت تغيرات عديدة على أحوال الفيلا ومن فيها.. لزم عم خضير بيته وحل حفيده خضري محله في رعاية الحديقة.. فارقت قشطة الحياة، وانقطعت بشيرة عن الحضور إلى الفيلا.. صادفتها ذات يوم وعلمتُ أنها تنوي الالتحاق بكليةِ الحقوق.. ارتحل عم شبيب إلى الصحراءِ الشرقيةِ ليحقق

حلم عمره، في العثور على منجم للذهب.. لم يبقَ مع جدتي غير فواكه.. أضيف إلى مهامها عملاً جديدًا هو طهي الطعام.. طلبت تقليل أيام حضورها؛ فبدلاً من العمل طوال الأسبوع مع الراحة يوم الجمعة، صار ثلاثة أيامٍ أسبوعيًّا؛ لتتمكن من رعاية أسرتها.. وكم كانت فخورة بالتحاق ابنتها جيهان بكلية التجارة.

وظلت علاقتي متصلة بجيهان، برغم انشغالنا بالدراسة، فكنا نتلاقى على فتراتٍ متباعدةٍ.

أما المزرعة فقد ساءتْ أحوالها، ومضت إلى التدهور بغياب عم خضير، وكان خبيرًا بها.. كم كنت أشعر بالحسرةِ عليها.. فبعدما فُتحت أبوابُها لنا، و تعبنا في تصنيف أشجارها، إذا بي أسافر بعيدًا.. ومع كل عودةٍ جديدةٍ تشهد عيناي مزيدًا من الأشجار اليابسة، والغصون الذابلة.

في العام الماضي، جمعتني بجدتي كرمة جلسة طويلة، قبل السفر إلى عُمان.. سألتني عن طموحي للمستقبل، وخططي القادمة.. قلت لها إنني لم أزلْ حائرة بين دراسة الصيدلة مثل جدي الدكتور فهمي.. ودراسة الطب كوالدها الدكتور رامي كامل.

قالت جدتي: اختيارُ نوعِ الدراسةِ أهم مرحلةٍ يترتب عليها نجاح الإنسان طيلة حياته.. وكلما كان مجال الدراسةِ موافقًا لميول الطالب، واستعداده العقلي والنفسي، كانت فرصته للتفوق والنبوغ أكبر.

قلت لها: أحيانًا يفرض على الطلاب دخول كلياتٍ لايرغبون فيها.. بسبب ضغوط الأبوين، أو المجموع الحاصلين عليه.. فما الحل؟

أجابت: الأعدادُ الكبيرة والمتزايدة من الطلاب تجعل من المحال تحقيق رغبة كل طالبٍ.. لا بدَّ من البحث عن وسائلَ تساعد الطالب على معرفة قدراته الحقيقية، ونوعية الدراسة المناسبة له كاختبارات القدرات.. الكثير من الطلبة يقعون في الحيرة، حين يبلغون هذه المرحلة الحاسمة في مسيرةِ حياتهم.. لا بد من وجود بدائلَ أخرى أمام الطالب، أقرب إلى الرغبة التي يفضلها، إذا لم يوفق إلى تحقيق رغبته الأولى.

أحضرتْ جدتي بضعة أوراقٍ مشبوكة بدبوسٍ صغيرٍ، وقدمتها إليَّ.. كانت كل ورقة تحمل رسمًا.. الورقة الأولى فيها " شخبطة " بالقلم الرصاص.. علقت جدتي:

ـ هذه "الشخابيط " رسمتِها يا سهيلة ولم تبلغي الرابعة بعد!
وطالعتُ الثانية.. كان بها عدة خطوط منحنية ودوائر متقاطعة ومتداخلة.. قالت جدتي إنها من رسمي بعد أن تجاوزت سن الرابعة.
وكانت الورقة التالية لرسم به بضعة عصافير متشابهة متكررة.. قالت جدتي إنني رسمتها في عمر السادسة.
أما الورقة الأخيرة فكانت مرسومة بالأقلام الملونة.. لا تزال زاهية الألوان، لطائرٍ لطيفٍ ، يشبه العصفور، غير أن ريشه ملوَّن كقوس قزح، و منقارَه الأسوَدَ أطول قليلاً، رسمته واقفًا على الأرض، يتطلع إلى سربٌ من النحل، يحلق من حوله!
تذكرت تلك اللوحة.. رسمتها في حديقة الفيلا وعمري عشر سنوات، ذات إجازةٍ مدرسيةٍ.. أذكر أن ذاك الطائر الجميل ـ واسمه الوروار أو آكل النحل ـ كان قد أصيب بطلقة من بندقية تعمل بضغط الهواء وتسمى " بندقية رش".. سقط بين الحشائش، فأسرعت إليه.. كان في جناحه جرحٌ يقطر دمًا.. حزنتُ من أجله، وأشفقتُ عليه، على الرغم من أن جدتي أخبرتني أنه طائرٌ يتغذى على نحل العسل، ويسبب خسائر كبيرة لأصحاب المناحل.. وقد يلتهم الطائر الواحد مايزيد على مئتي نحلة في اليوم.. وكم شكا منه الحاج عبد الحميد أحد جيراننا، وكان يربي النحل، ويضع في حديقته عشرات من خلاياها.. كان يقرع الصفائح في موسم الخريف ليزعج الوروار، أو يضع مادة لاصقة على أماكن نزوله كالمستخدمة في صيد الفئران.. وكان دائم البحث عن أساليبَ جديدةٍ مبتكرةٍ لمقاومة تلك الطيور الشرهةِ وإبعادها عن حديقته!
قبل أن تخبرني جدتي بأية معلوماتٍ عنه، كنت أشاهدُ طيورًا مثله تمامًا، تحلق بنشاطٍ، في حركة جماعية دائبة، وتناور في الهواء، ولا تهدأ .. قد تستريح قليلاً على أسلاك الكهرباء، أو الأسوار، أو أغصان الشجر، بقرب الزهور ثم تعاود التحليق..
عرفت الآن أنها تظلُّ تطير لتنقض على النحلة، وتقتنصها ببراعةٍ في أثناء طيرانها.
أحببتُ هذا الطائر الجميل، وصوته الحَسن الذي يشبه الصفير.. حتى بعد أن علمتُ أنه يأكل النحل.. فهذا أسلوبُ التغذي الذي فطره اللهُ عليه.. ومهما يكن من أمره فهو محتاجٌ إلى العطف والمواساة، لأنه أسيرٌ جريحٌ، في أشدَّ حالاته

ضعفًا، وأقسى ما يؤلم الطائرَ عجزه عن الطيران في الفضاء الرحيب!
أذكر أنني وضعته في علبة من الكرتون بلا غطاء، ثمَّ نقلته في اليوم التالي لقفص مفتوح من جريد النخل، أحضرته لي بشيرة، لما رأت اهتمامي البالغ به.. قالت لي بشيرة: القفصُ يحتاج إلى غطاءٍ.. قلت لها: إنه عاجزٌ عن الطيران.. ليته يبرأ من جرحه وينطلق في السماء! قالت: قد تأكله قطة! قلت لها لاتخافي لن تغفل عيني عنه، وعند النوم فقط أغطيه.
كنتُ أطهرُ له جرحَه وأضمده، وأضع له الماء في وعاءٍ صغيرٍ.. لم يكن بمقدوري توفير النحل لإطعامه.. لسعتني نحلة عندما حاولتُ الإمساك بها، وهي تقف على زهرةٍ تمتص منها الرحيق!

لم يكن الطائر يأكل أو يشرب! وفي اليوم الثالث لم أجدِ الوروارَ الجريح في القفص.. فهل قفز خارجه؟! أين اختفى؟!
جريت إلى جدتي في فزعٍ أسألها.. ابتسمت وطمأنتني: لقد شُفِيَ الوروار من إصابته، والتأم جرحه، فطار للسماء.. وأشارت إلى جماعة محلقة من طيور الوروار: انظري يا سهيلة.. إنه معها !
اعتراني الفرحُ وامتلأت بالزهو والنشوة؛ لإنقاذي الوروارَ الجريح.. ظننت أني نجحتُ في علاجه.. وها هو ذا يطير مع أقرانه! ولكن كان الأمر غير ذلك!
بزلة لسان من فواكه، اكتشفت الحقيقة بعد عدة أيام.. الوروار لم يطرْ.. كان جناحه مكسورًا.. ومات.. أصدرت جدتي أمرها لفواكه بحفر حفرةٍ في الحديقة ومواراة الوروار النافق التراب، وإخفاء الخبر عني!
لقد نفق الطائر.. مات حزنًا لفقدِه القدرةِ على الطيران والمناورة واصطياد النحل أثناء طيرانه، ومن الجوع أيضًا.. حزنتُ حزنًا عظيمًا عليه.. ذهبتُ لجدتي دامعة العينين.. سألتها: لماذا أخفيتِ عني الحقيقة؟
أجابت : كنتُ أعلم مقدارَ اهتمامكِ بهذا الوروار، وتضميد جرحه.. خفتُ أن تحزني لموته، وتضيع فرحتكِ الكبيرة بإنقاذه، هذا كل ما في الأمر!
أخذتْ تسوِّي خصلات شعري: لا تحزني.. أنت عالجتِ جرحَه بالمطهرات ومرهم المضاد الحيوي حتى برأ .. لكنه غير قادر على التحليق بجناحيه؛ لأن الطلقة

كسرتْ عظمَ جناح منهما.. لكن حسبكِ يا سهيلة نيتك المخلصة الصادقة في إنقاذه، وبذلت كل جهد ممكن، فكأنك أنقذتِه بالفعل، على الرغم من موته!
أراحني كلام جدتي وإن لم أستوعبه جيدًا.. كيف أنقذته وقد مات فعلاً؟.. قصَّت عليَّ ما كان يفعل جدي الدكتور فهمي الفرماوي، في الامتحانات الشفوية لمادة العقاقير، فيسأل الطالب عن الجرعة العلاجية لعقارٍ معينٍ، فإذا كانت إجابته صحيحة قال له: أحسنت.. فمريضك سيشفيه الله.. وإذا أخطأ الطالب في تقدير الجرعة، فذكر مقدارًا أكبر منها، استاء وقال له مستعيرًا جملة الفيلم الشهير الذي أخطأ فيه الصيدلي في تركيب الدواء، فوضع مادة سامة بدلًا من المادة الصحيحة: دواؤك فيه سم قاتل.. لقد قتلت المريض.. ولذلك سأعطيك صفرًا!
هكذا عبرت بخيالي قصة الورور عندما رأيتُ الصورة، التي رسمتها له، ولونتها بألوان قوس قزح قبل أختفائه بساعات.. أو نفوقه كما علمت فيما بعد من فواكه.
عدنا للحديث عن التعليم.. قالت:
ـ عمدت أن أذكركِ بقصة الورور.. أنا أفضل لك دراسة الطب.. هذامجرد رأي لا يلزمكِ بشيءٍ.. فالنجاح يبدأ من حرية الاختيار.
سألتُ جدتي:
ـ لِمَ تعتقدين أنني أصلح طبيبة؟
أجابت:
ـ لأن اهتمامكِ بمداواة الورور الجريح ينم عن قلب عطوفٍ ومشاعرَ نبيلةٍ، في الوقت الذي نرى فيه صغارًا يعذبون العصافير ويربطونها بالخيوط، ويضربون الكلاب والقطط، وكبارًا يقسون على الأحصنة والحمير.. ومهنة الطبيب هي من أكثر المهن قربًا من الإنسان في أوقات مرضه وضعفه.
غادرتُ جدتي و بلدي، وأجلتُ اتخاذ القرار بخصوص نوع الدراسةِ الجامعيةِ، وركزت اهتمامي في النجاح والتفوُّق في الثانوية، كخطوة مهمة نحو الاختيار.
فهل يكون الورور، وما ما وقع بعد ذلك من حوادثَ سببًا في اهتدائي إلى أوَّل الطريق؟!

واكرمتاه!

كنت مشغولة بالاستعدادِ لأداءِ الامتحان النهائي لشهادة الثانوية العامة، المؤهلة لدخول الجامعة، ويهمني النجاح بتفوق، ليسهل عليَّ الالتحاق بالكلية التي يستقر عليها اختياري بعد العودةِ إلى وطني.

مع بدايةِ الامتحاناتِ اتصلت بي جدتي، و أعادت عليَّ نصائحها المعتادة: مراجعة الموضوعات المهمة، والنوم مبكرًا ليلة الامتحان، ليكون ذهني صافيًا أثناءَ الإجابة، وأن اقرأ السؤال وأعي المقصود منه بدقة، ثم أبدأ الحل، وأن أنظم وقتي، وأوزع زمن الامتحان على الأسئلة، وأخصص وقتًا كافيًا لمراجعةِ إجاباتي.

كنتُ أسعد بمكالمات جدتي.. يمدّني حديثها بشحنةِ طاقةٍ كبيرةٍ من الثقة والأمل، أقبل بعدها على مراجعة المادة التي سأمتحن فيها بكلِّ تفاؤل و حماسةٍ.

هاتفتها في أثناءِ الامتحاناتِ.. طمأنتها.. فالأمورُ إلى الآن أكثر من رائعةٍ.. دعت لي بالتوفيق والنجاح.. كانت تكلمني بشيءٍ من المجاهدة لكي تبدو في حالةٍ طبيعيةٍ، وقد استشفيتُ في نبراتِ صوتها بعض الوهن والحزن.. سألتها في لهفةٍ إن كان بها شيءٌ، أو تشكو من تعبٍ ما.. طمأنتني بأنها بصحةٍ طيبةٍ، فلا شيء يدعو إطلاقا إلى القلق بشأنها.. وختمت الحديث بقولها: " لا يشغلنكِ شيءٌ ـ مهما يكنْ ـ عن هدفكِ.. ما يهمني هو تركيزكِ فيما تبقى من موادَ، لتكون النتيجة الباهرة هي هديتك السارَّة لنا جميعًا.. عديني ألا تكلميني إلا لتزفي إليَّ البشرى بنجاحكِ".. وتعاهدنا على ذلك!

بعد المكالمةِ، أخذتُ أسترجع ما قالت.. لا أدري لماذا قالته؟ هل أحسَّت بقلقي الزائد وتلهفي عليها، لعلمها بحبي الكبير لها، وخافت أن يشغلني ذلك ويخرجني عن تركيزي في المذاكرة والامتحانات؟! هل تتوجَّس من شيءٍ ما؟ هل تعاني بوادرَ مرضٍ من مضاعفاتِ السكر وارتفاع ضغط الدم؟

احترمتُ عهدي معها، وأطعتُ أمرها، فما أسرع أن تنتهي الامتحاناتُ، وتعلن النتيجة، وساعتها لن أكتفيَ بالمكالماتِ الهاتفيةِ، وإنما سأذهبُ إليها طائرة!

لم يكن أمامي إلا مادتان سأمتحنهما، وبينما كنت أستذكرُ دروسي، استشعرتُ

بعض الاضطراب في تصرفات أمي وأبي، و حالة من التوتر و القلق يجاهدان لمداراتها.. مكالمات هاتفية وردود حذرة مبهمة.. أحاديثُ خافتة تدور بينهما.. فوجئت بسفر أمي على أول طائرةٍ مغادرةٍ من مطار صلالة إلى القاهرة.. قالت إنها ذاهبة لقضاءِ بعض الأمور المتعلقة بعملها، واستكمال بعض جوانبِ الدراسةِ العلميةِ التي تقوم بها، ولا تعرف كم سيستغرقُ ذلك من وقتٍ!

كنتُ قلقة.. اتصلتُ بأمي، فطمأنتني بأن جدتي كرمة في حالةٍ طيبةٍ جدًّا، وأنها تدعو لي، وتنصحني بالتركيز على امتحاناتي فقط!

فرغتُ من الامتحانات، وانتظرتُ النتيجة بصبرٍ نافدٍ؛ لأسافرَ إلى جدتي، و أحملَ لها البشارة.

ظهرت نتيجة الامتحان، و جاءت النتيجة سارة مشرِّفة.. حملت شهادتي وأوراقي، وجئتُ مع أبي.

دهشت عندما لم أجد أمي في استقبالنا بالمطار.. كنت أتلهف لرؤية جدتي فاستبقتُ أبي وهتفتُ به: خذني إلى مصر الجديدة أولا.. أريد أن أرى كرمتي حبيبتي.. وأتلقى منها هدية نجاحي!

أبي قاضٍ ومن صفاته الصدق والمصارحة .. قال لي بهدوءٍ:

ـ ما عدتِ صغيرة يا سهيلة.. أنت على أعتابِ الجامعةِ!

توجست.. أحسست أنه يمهد لأمرٍ ما، فكنتُ احاول أن أهيئ نفسي لاستقبال نبأٍ محزن أو خطبٍ جلل!

ـ جدتك كرمة ليست في الفيلا!

صعقني المفاجأة، فحملقت إليه متسائلة بكل ذرَّةٍ مني: أين جدتي؟!

واصل أبي:

ـ في المستشفى.. اطمئني!

كيف يطمئن قلبٌ انغرس فيه سكين؟ كنت أسمعه بذهول:

ـ هي هناك منذ نحو ثلاثة أسابيع.. أخفينا عنك الخبر، حتى لا نشتت انتباهك وأنت في أيام الامتحانات الأخيرة.. والحمد لله نجحتِ بتفوق كبيرٍ؛ وسيكون لنجاحك وقعٌ حسن عليها!

ركبنا سيارة أجرة.. ذكر أبي للسائق اسم المستشفى.. مضى السائق إلى وجهته، وانكمشت في المقعد الخلفي صامتة.. كأن أعضاءَ جسمي كلها ذابت ولم يبقَ مني غير قلبٍ ملتاع، وعقل يموجُ بالظنون والمخاوف والأخيلة والذكريات.

وصلنا المستشفى، سأل أبي موظفة الاستعلامات عن غرفة جدتي.. ارتفع بنا المصعد إلى الدور الثالث من المستشفى الكبير، الذي زاد من اتساعه حالة الشرود التي تنتابني، فبدا لي مثل "المتاهة"، وقد كنت بالفعل تائهة، أحسَّ أن شيئًا غاليًا يضيعُ مني!

وجدنا خالي في الردهة موليًا ظهره لغرف المرضى، ينظر من النافذة.. ناداه أبي.. انتبه إلينا.. حيا أبي وتعانقا في مودةٍ بالغةٍ؛ فهما صديقان قديمان منذ الصبا، من قبل أن تجمعهما المصاهرة، بزواج أبي من أمي مي فهمي.. حملق في وجهي، وسلم عليَّ باسمًا، دهشًا، فقد كبرتُ وازدادتْ قامتي طولاً عن المرة السابقة التي رآني فيها، وكانت منذ نحو ثلاث سنواتٍ.

قال خالي الدكتور مكرم إن والدته قد تحسنت عن ذي قبل، وغادرتِ العناية المركزة منذ عشرة أيام، وانتقلت إلى غرفةٍ عاديةٍ.. وقد تعود إلى البيت في خلال يومين.. هكذا قال له أحدُ أطبائها المعالجين.

توجهنا إلى حجرتها.. بمجرد أن رأيتها، اندفعت نحوها ولثمت يدها.. نجحتْ بصعوبةٍ بالغةٍ أصابعها الواهنة في احتواء يدي، وابتسمت ابتسامة غريبة باهتة.

قلت لها:

ـ ألف ألف سلامة عليك يا أعزَّ الحبايب!

ابتسمت.. ابتسامة شاكرة راضية.. قلت لها:

ـ لقد نجحتُ.. بلغت ذروة درجات النجاح إلا كسورًا صغيرة من الدرجة!

جاوبتني بهزة طفيفة من رأسها وبانت على وجهها الفرحة.. في انتباهةٍ مني، وقعت عيناي على زجاجة المحلول المتصلة بوريدها، وجهاز تخطيط القلب.. بدا منظرها غريبًا، فغالبت دموعي.

كانت أمي هناك.. سلمت عليها وعانقتها.. همستْ لي: جدتك لا تستطيع الكلام.. أثرت الجلطة على مركز الكلام في المخ والجانب الأيمن من الجسم،

فأصابه الخذلُ والضعفُ!
رأيتُ مدام أفروديت وسيدة أخرى باسمة الوجه، أذكر أنني رأيتها بصحبتها ذات يومٍ.. ميلندا أيضًا كانت في الغرفة.. صافحتهن وقبلتهن.. أسرعت أمي بتقديم السيدة الباسمة لي:
ـ مدام ماجدة.. جارتنا.. زوجة الحاج عبد الحميد.
قلت بسرعةٍ:
ـ صاحب المنحل؟
اتسعت ابتسامتها.. قالت:
ـ أنت الآنسة سهيلة؟ حدثتني عنك ميلندا كثيرًا.
أخذتا تطمئناني على جدتي، وتدعوان لها بالشفاء التام.

دخلت ممرضة شابة في زي أبيض أنيق.. طلبت إلينا الخروج في أسلوب رقيق مهذب؛ لأن استشاري طب المخ والأعصاب سيلقي نظرة على الحالة، تصاحبه الدكتورة هيام أخصائية العلاج الطبيعي وإعادة التأهيل.
خرج الجميع.. استسمحتُ الممرضة المهذبة، واسمها منال، في البقاء مع جدتي، قلت لها إنني أفكر بدخول كلية الطب هذا العام، ويهمني الوقوف على حالة جدتي الصحية.
قالت بوجه مشرق باسم:
ـ سأستأذن الدكتور أولاً.. وبالطبع سيرحب بوجود زميلة المستقبل! المسألة تنظيمية فقط؛ لنتيح للأطباء فرصة العمل في راحةٍ ودون مقاطعةٍ.. وهذا كله في صالح المريض.
وأعطتني معلومة بالغة الأهمية كانت بعيدة عن تصوُّري: وجودُ أهل المريض إلى جواره، وكذلك زيارات معارفه وأصدقائه، يرفع من روحه المعنوية، و يساعد على سرعة شفائه وتعافيه.. بشرط الالتزام بمواعيدِ الزيارة، و تنفيذ التعليمات مثل: الحفاظ على الهدوء وعدم إزعاج المرضى، وتجنب إحضار مأكولاتٍ أو مشروباتٍ ضارةٍ بهم، والتعاون مع الأطباء و طاقم التمريض.
وأشادت بالسيدةِ اليونانيةِ، والسيدة المصاحبة لها ـ تقصد أفروديت وماجدة

ـ اللتين أسرعتا بنقل السيدة كرمة إلى قسم الطوارئ بالمستشفى، بمجرد ظهور العلامات الأولى للمرض؛ لأن عاملَ الوقتِ يعدُّ حاسمًا جدًّا في مثل هذه الحالات، وأي تأخيرٍ أو تقاعس في إسعاف المريض قد يهدد حياته!

وأخبرتني أن السيدتين لم ينقطعا يومًا عن زيارة الجدة، وكانت اليونانية تحمل إليها صحبة صغيرة من الورد البلدي الأحمر كل يوم!

دخل الطبيبُ وكان ذا وقارٍ، يضع نظارة طبية على عينيه، يتوزع شعررأسه بين الأسود والأبيض بالعدل.. فحص جدتي سريعًا.. بدا على وجهه الرضا والارتياح.. وجاء دور الطبيبة، فصافحتْ جدتي وطلبتْ إليها أن تقبض بأصابعها على يدها بكل قوَّتها.. تحرَّكت أصابع جدتي في بطءٍ ووهنٍ، لتمسك بيد الطبيبة.. قالت الطبيبة مداعبة وهي تصطنع التألم: رائع يا ست كرمة.. كفاكِ.. ستكسرين أصابعي!

شرع الطبيبُ في التحاور مع زميلته باللغة الإنجليزية، وتخلل الحوارُ مصطلحاتٍ طبيةٍ لم أفهمها، وكانا يوجهان إليَّ النظرات في اثناء حديثهما، فأجاريهما بإيماءةٍ من رأسي بين الحين والآخر.. يبدو أن الآنسة منال الممرضة نسيتْ وأخبرتهم انني طالبة طب!

استطعتُ التقاط بعض الكلمات التي اختصني بها الطبيب، فهمت منها أن إصابة جدتي حدثت في الجزءِ الأيسر من المخ، ولذلك أثرت على مركز النطق، و حركة طرفي الجانب الأيمن من الجسم.

تبعتُ الطبيب والطبيبة إلى خارج الغرفة.. أسرعت إليه أمي لتطمئن منه على حالة جدتي.. قال الطبيب:

ـ الحالة طيبة جدًا.. يمكنها الخروج بعد يوم أو يومين، لتستكمل علاجها في البيت.. سأعرض الأمر على زملائي من التخصصات الأخرى ونتشاور فيه.

قلت:

ـ هل ستتكلم جدتي مرة أخرى؟

أجاب الطبيب:

ـ بإذن الله.. أغلب الحالات شفيت بالمواظبة على تعاطي الدواء، واتباع تعليمات

الطبيب بكل دقة.
وقالت الدكتورة هيام:
ـ السيدة كرمة ستحتاج إلى جلسات علاج طبيعي لتتمكن من تحريك ذراعها الأيمن، ورِجْلِها اليمنى، والمشي بشكل طبيعي.
عدتُ إلى جدتي.. جعلت أرنو إليها.. عاشقة الورد والزهور والشعر والموسيقى والنور، تصبح أسيرة سرير في غرفة بمستشفى، مكبلة هكذا إلى هذه الأجهزة الغريبة؟ أخفيتُ عنها مشاعر الحزن و الإشفاق.. أنا أثق أن جدتي، مؤمنة بقضاء ربها، قوية الإرادةِ، وستتغلب بقدرة الله على هذه الوعكةِ الصحيةِ العابرةِ.
لم أكنْ أنا وحدي.. جميع من عرفوها كانوا في غاية الدهشة لإصابتها بهذه الجلطة المفاجئة، مع تحاشيها كل العوامل التي تؤدي إلى حدوث الجلطات: جدتي لم تمارس أي نوع من التدخين قط، بل وتكره رائحة الدخان ولا تجالس المدخنين.. ولا تقرب الخمر، وتواظب على الفحص الطبي، وتعاطي الأدوية، واحترام أوامر الأطباء.. وكذلك لا تأكل الدهون، ولا تسرف في الطعام، وتفضل المشويَّات و الأكل المسلوق، و تهتم بالرياضة البدنية، ولا تحمل بغضًا أو ضغينة لأحد، فهي متسامحة، تلتمس الأعذار للمخطئين لتعفوَ عنهم.. وهي زاهدة قنوع، لا تتهافت على جمع الأموال أو كنزها، ولا تنافس أحدًا على منصبٍ أو شهرة، وهي حليمة لا تغضب، وإن غضبت فغضبها جميلٌ سريع الزوال.. تصلي وتصوم وتؤدي فروض دينها.. وقد وقاها ربُّ العالمين آفات القلوب التي تتعبها وتنهكها من حقدٍ وغل وحسدٍ وغيرةٍ.. فمن أين جاءتها تلك الجلطة الخطيرة؟!
استرحت إلى جواب أبي:
ـ يا سهيلة.. المؤمن دائمًا مصابٌ، والمرضُ ابتلاءٌ من الله، يرفعُ به منزلة عبادِهِ الصابرين، وينبِّهُ الغافلين، وذكر الحديث الشريف: " ما يصيبُ المؤمنُ من نصبٍ[17] ولا وصبٍ[18] ولا همٍّ ولا حزنٍ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر اللهُ بها من خطاياه".

17 النَصَبُ: التعبُ والعَناءُ.
18 الوَصَبُ: الوجعُ والمرضُ.

أجلْ يا أبي.. كلُّ ما يصيب المؤمن من تعب أو مرض او حزن خير كله؛ فهو مغفرة، ورفع درجات، وترقية.
جمعنا لقاء في استراحة الطابق بالمستشفى.. حدثتني أمي عن وقائع ما جرى: .بدأت الحكاية بشكوى جدتى لفواكه من الشعور بخدرٍ في ذراعها الأيمن وصداع ودوار.. طمأنتها فواكه، وشرعت تمسد ذراعها بالكريم الذي تستعمله دومًا.. توجَّست فواكه فاتصلت بطبيب جدتي.. وجدته مسافرًا للخارج لحضور مؤتمرٍ طبي!
اتصلتْ بمدام أفروديت للتصرف.. حضرت في أقل من خمس دقائق، بصحبة السيدة ماجدة صديقتها التي كانت على دراية باستخدام بعض الأجهزة الطبية البسيطة، والإسعافات الأولية، ولديها معلومات طبية جيدة، تعلمتها في أثناء الحرب، بعد تطوعها للمساعدة في إنقاذ الجرحى ومصابي العمليات الحربية، تعرف كيف تستخدمها بقدرٍ محسوبٍ، لحين حضور المتخصصين.
قامتِ السيدة ماجدة بقياس ضغط الدم، ومستوى السكر بجهاز خاص.. نظرت إلى مدام أفروديت بطريقة تشي بخطورة الحالة.. ونقلتاها إلى المستشفى على الفور.
غربتِ الشمسُ و دنا موعدُ انتهاءِ الزيارةِ.. صمَّمتُ على المبيت مع جدتي بديلاً من أمي.. المستشفى يسمح بمرافقٍ للمريض حسب الحالة.. كانت امي مرهقة للغاية لسهرها بأمها خلال الأيام الماضية، و حان الوقت لتستريح.
مضى أبي وخالي وأمي.. تابعتهم من نافذة الغرفة حتى ركبوا السيارة وغابوا عن ناظري.. كنت سعيدة لمرافقة جدتي كرمة وخدمتها.. كم بذلت من صحتها وعمرها من أجلنا.. وآن الأوان لنردِّ لها بعضَ الجميل.
مرت الليلة بسلامٍ.. حضرت الممرضة منال في المساءِ.. حقنت جدتي بالجرعة المحددة من الإنسولين تحت الجلد؛ لضبط مستوى السكر.. جاءت مرة ثانية لإلقاء نظرة على شاشات المتابعة للنبض ووظائف القلب.. أعطتها حقنة أخرى قالت إنها مجموعة من الفيتامينات المقوِّيةِ للأعصاب.
أعجبت بشخصية منال، و مهارتها، وإخلاصِها في أداء عملها.. وبهرتني مهنة الطب عندما شاهدت الطبيب الاستشاري، والدكتورة هيام.

وروت لي الآنسة منال كيف كتب الله لجدتي النجاة على أيدي أطباءِ المستشفى، الذين تعاملوا معها بأحدث الطرق العلاجية العالمية.. لولا تدخلهم السريع، وبراعتهم، وكفاءتهم الفائقة لاختلفتِ الأمورُ كثيرًا!

العودة

مكثت مع جدتي ليلتين في المستشفى.. أخيرًا وجدت ضالتي، واقتنعت تمامًا بأن دراسة الطب تتفق مع ميولي وطموحي. قلت لها ذلك، فأشرق وجهها بالسرور.

وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " عجبًا لأمر المؤمن إن أمرَه كله خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا المؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكانت خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكانت خيرًا له".. مرضُ جدتي كان سببًا في اجتماع شملنا، و اتفاق أبويَّ الذي لا رجعة فيه على العودة الدائمة للوطن.. كذلك التقائي خالي مكرم بعد فراق دام بضعة أعوامٍ، وانبهاري بعلمه الواسع وشخصيته المتزنة الرشيدة.. ومعرفة مكانة جدتي في قلوب محبيها.. وبالنسبة لي شخصيًّا: إتاحة الفرصة لي للاقتراب كثيرًا من عالم الطب والتمريض.. لمستُ سمو هذا العالم، وجسامة مهامه، فليس أفضل من إزالة آلام المريض والتخفيف عنه، وإنقاذ حياته.. فجر أمس.. بينما كنت ساهرة إلى جوار جدتي في المسشفى، رأيت حركة غير عادية، وعددًا من الأطباء والممرضات يهرولون إلى حجرة على الجانب المقابل في الطابق نفسه.. دهشتُ وتوجستُ.. خرجوا بعد مدةٍ قصيرةٍ هادئين، باسمي الوجوه.. رأيت الممرضة منال تعبر الردهة.. رويت لها ما رأيت.. قالت إن مريضًا فقد وعيه، وتوقف قلبه، فهرع طاقم الطوارئ إليه، وقاموا بإنعاش القلب بجهاز الصدمات الكهربائية، فعاد إلى العمل بأمر الله.

حضرت أمي وخالي في الصباح لتوصيل أمهما إلى الفيلا.. و ذهبتُ مع أبي لتقديم أوراقي للالتحاق بكلية الطب .

جدتي كرمة رهينة كرسي متحرك!!

ما أشدَّ لوعتي عليها!

شل المرض لسانها ويدها ورجلها، لكنه لم يشل وعيها و تفكيرها.. لم ينل من عزيمتها.. أكاد أجزم بأنها ستنطق يومًا باسمي، وستحكي لي كما كانت تحكي بالأمس.. وأخالها أحيانًا تقفز فجأة من فوق كرسيها المتحرك، وتسرع الخطى كالمهْرَةِ بين ممرَّاتِ الحديقةِ!

اتفقت مع والدتي أن أقيم إقامة دائمة عند جدتي، كعهد طفولتي الأول، وأن تتفرغ هي للاهتمام بشؤون والدي، ولا مانع من أن تتابعني، وتتدخل إذا لزم الأمر.
وافقت الدكتورة هيام أن تقوم بجلسات العلاج الطبيعي.. فمن رضا الله عن جدتي أن يسَّر لها الأمور وهيأ لها من يقضي حوائجها.. الدكتورة هيام تسكن قريبًا من بيت جدتي في مصر الجديدة، وارتضت أن تحضر إليها مرتين أسبوعيًّا.. وأوصتْ بشراءِ بعض الأجهزة الطبية الرياضية لممارسةِ التمرينات العلاجية.
أما مهمة التمريض فقد اتفقتُ مع جارتنا السيدة ماجدة على تقسيمها بيننا.. هي تتولى إعطاء الحقن، و المحاليل التي أمرَ بها الأطباءُ.. أما أنا فتكفلت بإعطائها الأدوية في مواعيدها المحدَّدة، والاعتناء بنظافتها الشخصية من جميع النواحي كغسيل الملابس والاستحمام، وتطوَّعتُ بأن أساعد فواكه في تنظيف وترتيبِ المنزل.
استهللت عملي بتسطير جدول شهري؛ أي بعدد أيام الشهر، من نسختين، و كتابة أصناف الدواء واحدًا واحدًا وموعد تناول كل نوع.. قمت بتثبيت نسخةٍ منه على سرير جدتي، والنسخة الثانية علقتها في حجرتي؛ لتذكرني إن نسيتُ.
فعلت ذلك لكثرة أصناف الدواء من حقن وأقراص وكبسولات وقطرات، وخشيتي من تكرار إعطاء الدواء بالخطأ أو نسيان موعد أحد الأدوية؛ فكنت أضع علامة تفيد تناوله.
وكان عليَّ أن أشتري أدوية جديدة من الصيدلية القريبة، قبل نفاد عبواتها.. أحيانًا أوفر بضع علب من دواء معين، بخاصة المستورد، خوفًا من نقصه في الصيدليات.. وكانت معظم الأدوية غالية الثمن.. هكذا صرت صديقة للصيدلانية إيناس المسؤولة عن إدارة تلك الصيدلية.. كنت استشيرها فيما يخصُّ استعمالاتِ الدواءِ.. وقد لفتت انتباهي إلى أهمية حفظ الدواء في المنزل بطريقةٍ تضمن الحفاظ على فاعليته وتأثيراتِه العلاجيةِ.. فهناك دواء يجب حفظه بعيدًا عن الضوء، لأن مكوناته تتغير مع التعرض للضوء المباشر.. وهناك أدوية تتلف بالحرارة، فيجب وضعها في الثلاجة مثل حقن الإنسولين الذي يستخدم في علاج مرض السكر، وبعض نقط العيون، والأمصال واللقاحات، و مشتقات الدم، والهرمونات.

كان على ابي وأمي العودة إلى سلطنة عمان؛ لارتباطاتهما هناك، حتى يحين موعد إنهاء عملهما في القريب العاجل، وقد سافرا وهما مطمئنان إلى حسن رعايتي لجدتي، وزاد من اطمئنانهما وجود مدام أفروديت وماجدة وفواكه إلى جوارنا.
أشعرني سفر أبويَّ وترك جدتي في رعايتي بالسعادة، والفخر، والثقة بالنفس.. وصار ينظر الجميع إليَّ على أنني كبرت، وصرت قادرة على تحمل المسؤولية.. وكان لا بدَّ لي من بذل أقصى جهدي لإثبات جدارتي بهذه الثقة.

قطط تحت شرفة

قدرُ الحديقةِ ألا تنقطع القطط عنها.. تمضي الأيام، وتتغير الأحوال، وتبقى القطط.. يفنى جيل، و يولد جيل جديد... وهكذا.

حلت فواكه محل جدتي في أثناء وجودها بالمستشفى.. كانت تنزل بالطعام وتوزعه على القطط، كما كانت تفعل جدتي.. فواكه تقول إن القطط حزينة، وكأنها تفتقد صاحبة البيت، حتى القطيطات الصغيرة التي لم ترها أو تأكل من يدها.. كأن القطط جميعًا تتهامس بغيابها ، وتتناقل الخبر، ولا تريدُ الطعامَ إلا منها!

من الغريب أن جدتي عندما أحسَّت ببوادر المرضِ، أوصتْ فواكهَ بعدة وصايا كان من ضمنها إطعام القطط.

وحرصت جدتي على السؤال عنها بالإشارات والهمهمات بمجرد عودتها إلى البيت، وأطمأنت إلى أن بشيرة تؤدي المهمة على خير وجه.

طلبت إليِّ جدتي أن تخرج بالكرسي المتحرِّكِ إلى الشرفةِ.. راحت تجول بنظراتها في الحديقة.. لمحتها قطة مستلقية تحت شجرةٍ ترضع صغارها.. أسرعت إليها يتبعها صغارها الثلاثة.. همهمتْ جدتي في فرحة.. فهمتُ أنها تريد فواكه.. استدعيتها، فطلبتْ منها جدتي أن تأتيها ببعض الطعام للقطة.

ألقت جدتي الطعام من الشرفة، فجرت نحوه القطة، وأكلت.. رأتها قطة ثانية فأسرعت بالوقوف تحت الشرفة ونالت نصيبها.

ولم تمر غير ساعة من الزمن حتى اجتمعت كل قطط الحديقة أسفل الشرفة، وكأنما دعا بعضها بعضًا.

عادت جدتي لعادتها، وصارت تطعم القطط من الشرفة.. واحتفظت القطط بهدوئها وأدبها، فلا مواءٌ غاضبٌ، ولا شجارٌ، ولا طمعٌ، ولا غل.

كانت جدتي تأمرنا بالترفق بالحيوانات، خاصة القطط.. كانت تردد دائمًا أن الأديان تدعو إلى ذلك، وتعتقد أنها قد تكون سببًا في الرزق: يرزقنا الله لتأكل ونأكل بجانبها.

ومن العجيب أنني وجدتُ كراسة قديمة، وقرأت قصة بعنوان " قطط تحت شرفة

"، بخط جدتي، مؤرخة بتاريخ سابق على مرضها وذهابها إلى المستشفى ببضع سنواتٍ، سأذكر مقاطعَ منها:

"كانتِ القِطَطُ تنتظرُ الطَعَامَ الذي يأتي مِن الشرفةِ، تُلقِي بِهِ السيدةُ العجوزُ ذاتُ النظارةِ الطبيةِ والعكَّازِ.. تفعلُ ذلكَ كلَّ صباحٍ، وعند العصر، و أحيانًا ليلاً في أمسياتِ الصيفِ، حينَ تكونُ ساهرةً في الشرفةِ، تستمعُ إلى الأغنياتِ القديمةِ من المِذيَاعِ.

ظلت السيدة لسَنوَاتٍ طوالٍ تنزل إلى الحديقة وتطعم القطط، وقتَ أنْ كانتْ قوية، خفيفةَ الحركةِ، تستطيعُ نزولَ السلمِ، والصعودَ فيه بسهولةٍ، ولما تقدَّمَ بِها العُمرُ، وصُعُبُ عليها استخدامُ السلمِ، صارتْ تُلقِي الأكلَ لها من الشرفةِ.

وتستمرُّ في السرد:

"ما أَعجَبَ تلكَ القططَ في وقفتِها كباراً وصغاراً! تصطَفُّ في مواقِيتَ محدَّدةٍ، رؤوسُها تتجِهُ إلى أعلَى، وعيونُها تنظرُ بثباتٍ نحوَ الشرفةِ وكأنها معلَّقةٌ بِها أو مشدودَةٌ إليها، فلا تكادُ تتحوَّلُ عنها. والمدهِشُ أنها تنتظرُ في صمتٍ وصبرٍ ووقارٍ وعزةِ نفسٍ.. مترقبة، مرهفةَ الحواس، مثلَ نسخةٍ واحدةٍ متكرِّرةٍ من تمثالٍ، وإن اختلفَتْ في أحجامِها وألوانِها؛ والمرَجَّحُ أنها تعود إلى أسرةٍ واحدةٍ، تنتمي لأربعة أجيالٍ مُتعاقِبَةٍ أو ربما خمسة، فهناكَ الجدَّاتُ والأمَّهاتُ والشبابُ والصِغارُ والرُضَع، يغلبُ عليها جميعاً لونُ المِشمشِ، تتخلَّله بقعٌ بيضاءُ أو سوداءُ أو رُصَاصِيَّةٌ.. وقد تتداخلُ هَذِهِ الألوانُ مجتمعةً في قطةٍ واحدةٍ، تشكِّل لوحةً طبيعيةً من إبداعِ الخالقِ سُبحَانَهُ وتعالَى، تسرُّ الأعين.

فإذا حَضَرَ الطعامُ جعلَتْ تأكلُ في هدوءٍ و أدبٍ جمٍّ، فلا يُسمَعُ لها صوتٌ أثناءَ الأكلِ، ولا تَصدَرُ عن إحداها إشارةً تنمُّ عن الطمعِ أو الغيظِ أو الحسدِ، فلا عضة خاطفة أو زجرة مكتومة أو خمشةَ مخلبٍ خفيةٍ من قطةٍ لأختِها.. فالكلّ راضٍ بما قَسَمَ لهُ اللهُ من الرزقِ عن قناعةٍ وسَمَاحَةٍ".

وتواصل كأنها بالغيب عالمة:

" ذاتَ يومٍ احتَجَبتِ السيدةُ ذاتُ النظارةِ والعكَّازِ عن الظُهورِ في الشرفةِ،

وانتظرَتْها القطةُ.. تكرَّر ذلكَ في الأيامِ التاليةِ.. لمْ تيأسِ القطةُ، وظلَّت تقفُ في مواعيدِ إلقاءِ الطعامِ التي تعوَّدَتَها، ثمَّ تنصرفُ حِينَ تدركُ أن انتظارَها بلا فائدةٍ.
و لما طالَ غيابَ السيدةِ العجوزِ، تشاورت القطط فيما بينها، وقررت إرسال واحدة منها إلى داخل البيت للاطمئنان عليها.. صعدت تلك القطة إلى سطح الجيران، و قفزت من نافذة المطبخ إلى بيت السيدة، فقد كانت هذه الطريقة هي الأسهل في تصوِّرها لدخول البيت.. وتسللت إلى حجرتها، فوجدتها نائمة في الفراش، مغمضة العينين، شاحبة الوجه، فعرفت أنها مريضة.
فتحت العجوز عينيها، فرأت القطة.. خافتِ القطة وتراجعت بضع خطوات، وهمَّت بالهرب..استوقفتها السيدة بالبسبسة لها وهي تبتسم.. اطمأنت القطة وبدأت تدنو منها.. دعتها السيدة، وراحت تمسح على شعرها في حنان.. اعتذرت لها عن دخولها البيت من النافذة، وصعدت لتجلس بقربها على السرير.
سألتها القطة في حزن:
ـ كلنا نسأل عن سر غيابك ومنزعجون لذلك!
قالت العجوز:
ـ لك الشكر أنت وصديقاتك.. أنا مريضة وعندما يشفيني الله سأعود إلى الشرفة وألقى إليكن الطعام.
قالت القطة:
ـ المهم أنت تعودي إلى الشرفة.. الله يرزقنا من فضله.. نحن نحب طعامكِ.. ولكننا نحبكِ أكثر.
وقالت لها ايضًا إن جماعة القطط عندما تعلم بخبر مرضها سيرغبن في زيارتها.. فرحبت السيدة بذلك، وأخبرتها أنها ستفتح لهن الباب فور سماعها صوت المواء الذي تتفقان عليه.
عادت مبعوثة القطط إلى زميلاتها، وأخبرتهن بأن السيدة مريضة.. فذهبن لزيارتها، ودخلن هذه المرة البيت من بابه لا من شباكه، بصعود السلم.. وارتفع مواؤها المتفق عليه.. فتحت لهن السيدة.. وجدت عددًا كبيرًا منها.. دخلت القطط، واجتمعن من حولها، ودعون لها بالشفاء.

وظلت تقف تحت الشرفة، تتطلع إلى السماء ،وتدعو اللهَ أن يشفي السيدة الطيبة العطوف.. فاستجابَ لَها اللهُ وشَفَاهَا وعادتْ إلى شرفتِها وقططِها الحبيبة!".

سألت نفسي بعد قراءة القصة: وما يدريني.. فقد يكون ما سيحدث بعد ذلك يعود إلى دعواتِ القطط لِجدتي بالخيرِ؟!

ذات ليلة صافية

كنت أعرف أن جدتي كرمة صلبة الإرادة، وأنها ستتغلبُ على مرضِهَا، وتخرجُ من ذلك الابتلاء العصيب أكثر عافية وقوة.

كنا على أعتاب شهر رمضان.. ننتظره متشوقين إلى بركاته ورحماته.

كنت ساهرة بجانب جدتي النائمة.. استيقظتْ فجأة.. طلبتِ بلهفةٍ الخروج إلى الشرفة المطلة على الحديقة.. ساعدتها على اعتلاء كرسيها المتحَرِّك، ومضيتُ بها إلى هناك.

تطلعت جدتي إلى السماء.. كانت شديدة الصفاء، متلألئة النجوم بشكل يبعث على الخشوع.. كانت هناك مصابيح سهرانة فوق أعمدة الشوارع، و مصابيح مضيئة منسية خلف زجاج النوافذ البعيدة.. كان النور في كل مكانٍ.

ذكرت جدتي باقتراب الشهر الكريم.. وبكلماتها.. قلت لها: هلت "روايح " رمضان!

غمرتها السعادة، وأومأت لي برأسها.. وعادت تنظر للسماءِ.

كأني سمعت كلمة " الله "!

أجل.. جدتي نطقت بلفظ الجلالة!

جعلت تردد كطفلة جذلانة: الله.. الله.. الله!!

كانت هذه أول كلمة ينطق بها لسانها منذ اعتلال صحتها.. أيقنت ساعتها أن الله قد كتب لها الشفاء، وصليت ركعتي شكرٍ له.

بعد ذلك نطقت اسمي: سهيلة.. لم تستعن بأخصائي في التخاطب كما اقترحت الدكتورة هيام .. شرعت تقرأ القرآن بصوتٍ عالٍ.. وتردد ماتحفظ من قصائد الشعر.

أخذ نطقها يتحسن شيئًا فشيئًا، وانطلق لسانها، فصارت تتكلم بشكلٍ قريبٍ جدًّا من الطبيعي، تكاد عيوب نطقها الطفيفة تخفى إلا على أذن الخبير المدقق!

دهش أطباؤها المتابعون لحالتها، ليس لاستعادتها المقدرة على الكلام، ولكن لاستجابتها السريعة للعلاج.. وكان الأمر أقرب إلى المعجزات!

دواء.. دواء!

الأمل في شفاء جدتي يزيد على مرِّ الأيام.. التحسّن بطيءٌ لكنه مبشر.. لا أدخر جهدًا في خدمتها، والاهتمام بنظافتها، وإعطائها الأدوية في مواعيدها بانضباطٍ شديدٍ وحزمٍ؛ فقد كانت جدتي تبدي شيئًا من الضجرِ، وأحيانًا التذمر والعصبية، فترفض تعاطي الدواء، وخاصة الأشربة المرَّة المذاق.. وكانت تظهر بعض الامتعاض من الحقن، ولكن السيدة ماجد كانت تهون الأمر عليها؛ بلطف ابتسامتها، وخفة ظلها وظرفها، و بمهارتها العالية في إعطاء الحقن التي توصف بـ "خفة اليد"، بمعناها الحسن.. فالسيدة ماجدة خفيفة اليد والروح معًا.

كنت أعذرُ جدتي إن أظهرتْ بعض الضيق والتبرم من الأدوية؛ لكثرتها، و توالي تناولها على مدار اليوم.. لكأن حياتها أصبحت دواءً في دواءٍ.. يضاف إلى ذلك قول الأطباء إن إصابة المخ، وعجز المريض عن الحركةِ، وممارسةِ نشاطه اليومي المعتاد، تجعله عصبيًّا، ضائق الصدر، سريع الانفعال.

على أية حال كانت انفعالاتُ جدتي، وردودُ أفعالها في الحدودِ الطبيعيةِ والمعقولةِ؛ فهي راضية، حامدة ربها، شاكرة له، لم ينقص من إيمانها بالله مثقال ذرة، بل هو في الذروةِ.

كادَ البيتُ يتحول إلى صيدليةٍ.. فباستمرار تغيير أنواع الأدوية، وإيقاف تناول أصنافٍ، أو تخفيض جرعاتها، أو استبدال أخرى بها؛ تبعًا لتطور الحالة المرضية، تكدَّستْ عشرات وعشرات من علب الدواءِ في البيت.. أجدُها في غرفة نوم جدتي، فوق "الكومودينو"، وداخل أدراج الدولاب، وفي صناديق من الكرتون تحت السرير، وفي الثلاجةِ حتى ضاقت بها.. جمعتها كلها وفحصتها.. تركتُ الأدوية التي أمر الأطباء باستمرار جدتي في تعاطيها، ووضعت الأدوية المستغنَى عنها في عدة علبٍ كرتونيةٍ، وصنفتها حسب أسمائها، و تواريخ الصلاحية لكل علبة دواء.. أزعجني أن بعضَ الأدويةِ ، خاصة المرتفعة الثمن، يتبقى على صلاحيتها بضعة شهور.

فكرتُ بأن هذه الأدوية سيكون مصيرها التلف، والإلقاء في سلة المهملات دون أن

يستفيد منها أحد.. فكرت بكثير من المرضى الفقراء وغير القادرين الذين يحتاجون إلى العلاج ولا يجدونه.. قلتُ لا بدَّ من وسيلةٍ توصِّل هذه الأدوية إليهم بطريقة آمنة وكريمة.

عرضت الفكرة على جدتي فتحمسَّت لها كثيرًا، ووافقتني تمامَ الموافقةِ.. يجب التصرف في الأدوية غير اللازمة قبل فسادها بوسيلةٍ مضمونة وموثوق بها.

قصدت إلى صديقتي الصيدلانية إيناس لأستشيرها، فقالت:

ـ الفكرة طيبة جدًّا يا سهيلة.. لكني لا أستطيع تنفيذها هنا.. غالبية عملاءِ الصيدليةِ من القادرين ذوي الدخول المرتفعة، ولا حاجة بهم لدواء مجاني.. بعضهم سيتشككون في فاعلية هذه الأدوية المجانية، ولن يخلو الأمرَ من قلة من المحتالين المتمارضين، الذين يريدون الدواءَ للإتجار فيه، وبيعه لبعض الصيدلياتِ غير الملتزمةِ بأسعارٍ زهيدةٍ!

قلت في عجبٍ:

ـ حسبت الموضوعَ سهلاً!

قالت باسمة:

ـ لا يوجدُ شيءٌ صعبٌ أو مشكلة بلا حلٍّ.. هناك جمعياتٌ أهلية تقبل التبرع بالأدوية وكل شيءٍ لا يلزم من ملابسَ مستعملةٍ، حتى الكتب وقطع الأثاث، شريطة جودة الأشياء المتبرَّع بها وسلامتها.. توجد أيضًا مستوصفاتٌ خيرية ترحِّبُ بمثل هذه التبرعاتِ.. وفيما يخص الدواءَ، بوصفه سلعة حساسة، فيجب أن نتيقن من صلاحيته وطريقة حفظه في المنزل قبل التبرع به؛ فالأمر قد تتوقف عليه حياة مريضٍ!

قلت:

ـ أنا أحفظ الأدوية حسب التعليماتِ المدوَّنةِ على علبِ الدواءِ، وبناء على توجيهاتكِ.. و أولي أهمية خاصة لأدوية الثلاجة.

قالت بعد لحظات من التفكير:

ـ رائع.. سأدلك على مستوصفٍ تابع لجمعيةٍ خيريةٍ يرأسه عمي الدكتور مأمون.. سأتصل به وأخبره بالموضوع.. هذا أفضل طريق لضمان سرعة وصول تلك الأدوية

الزائدة عن الحاجة إلى مستحقيها.
اتصلت الصيدلانية بعمها، فرحب باستقبالي في المستوصف وحدد لي موعدًا في اليوم نفسه.. لم أضع وقتًا، فحملت عبواتِ الدواءِ بمساعدة فواكه إلى سيارة اجرة، أوصلتني إلى ذاك المشفى.. وجدته جزءًا من مجمعٍ خدميٍّ كبير، يضم دارًا للمسنين، ومستشفى، وعيادات خارجية من كافة التخصصات.. وصيدلية داخلية.. يزدحم بالمترددين إليه، من المرضى ، وكبار السن، الذين ينم مظهرهم عن رقة الحال.
اسستقبلني المدير الدكتور مأمون بترحابٍ زائدٍ، بصفتي صديقة لإيناس؛ ابنة شقيقه، وباعتباري مشروع طبيبة لما يوضعْ له حجرُ الأساسِ.
ألقى نظرة إلى الأدوية، وعَرَتْهُ بعضُ الدهشة لكثرتها.. سألني عن مصدرها، فرويتُ له عن مرض جدتي، فأخذ يشجعني بعباراتٍ متفائلةٍ، ودعا لها بعاجل الشفاءِ.. قال:
ـ سأفحص هذه الأدوية بتمعنٍ بمعاونة صيدلي المستشفى، وهو ذو خبرةٍ خاصةٍ في هذا المجال، وكان يعمل سابقًا في قسم تحليل الدواءِ في شركةِ أدويةٍ كبيرةٍ.
تطرق بنا الحديث إلى الخدماتِ التي يقدمها المجمعُ لأهل الحي، من علاج، وجراحات، بأسعار قليلة جدًّا، مقارنة بالمستشفيات الخاصة، وبالمجان للمعدمين.
شكرني، فقلت له:
ـ من يستحق الشكر هو أنتم.. فبواسطتكم سنشارك وجدتي في هذا العمل الإنساني النبيل، نرجو به ثواب الله.
قال لي نصيحة عابرة:
ـ مادمت ترافقين جدتك المريضة، فمن الضروري لكَ أن تلمي بالإسعافاتِ الأوليةِ!
وأبدى استعداده لتقديم أي مساعدةٍ ممكنةٍ.
غادرتُ المكان وأنا أحس بسعادةٍ غريبةٍ.. قريبةٍ من سعادتي يوم أن أرشدتُ سيدة عجوزا كليلة البصر إلى عنوان تقصده، وأخذت بيدها وعبرتُ بها الطريق.. كم من أعمال هينة تسعدنا لأنها أسعدت الآخرين!

لكم أتمنى التبرع بشيءٍ كل يوم، لأذوق طعمَ هذه السعادةِ!
رجعتُ إلى البيتِ، واخبرت جدتي بما حدث، وسعادتي به.. قالت:
ـ الأعمال الطيبة تسعد قلوبنا وتشرح صدورنا؛ لأنها ترضي الله سبحانه وتعالى!
حضرت أمي لرؤية جدتي في إجازة خاطفة.. اطمأنت أن كل الأمور على ما يرام، وحالة والدتها تتحسن.
أخبرتني أن عودتها وأبي إلى الوطن باتت وشيكة.. وقد عادا فعلاً بعد نحو الشهر.

حقنةالإنسولين

أول حقنة أعطيها مريضاً، كانت حقنة إنسولين، والمريضة جدتي! ولأن البداياتِ تلتصق بذاكرتنا ولا تمحوها السنون؛ فلن أنسى هذه الحقنة ما حييتُ!

كنت أتابعُ السيدة ماجدة في أثناء قيامها بتمريض جدتي.. كانت لا تبخل عليَّ بمعلوماتها و خبراتها، و تجود بها عن قصدٍ، و تشجعني على اكتساب بعض المهاراتِ كإعطاءِ الحقن، وقياس ضغط الدم، ونسبة سكر الجلوكوز في الدم، ودرجة حرارة الجسم بالترمومتر.

كنتُ حتى تلك اللحظة لا أجرؤ على إعطاء جدتي حقنة برغم سهولة ذلك، وتشجيع السيدة ماجدة، بقولها: " يُعطى الإنسولين بالحقن تحت الجلد، باستخدام محقن خاص به، له سن رفيع قصير.. و ينصح مرضى السكر بحقن انفسهم بأنفسهم، للتيسير عليهم، وكثيرٌ منهم يفعلون ذلك ".

لم أحاول حقن جدتي؛ فقلبي لا يطاوعني.. حبي الشديدُ لها وإشفاقي عليها يمنعاني من أن أسبب لها أدنى ألم.. سببٌ آخرُ مهم؛ السيدة ماجدة حضرت دورة في التمريض، واكتسبت خبرة نظرية وعملية في المستشفى العسكري أثناء الحرب، تؤهلها لأداء ذلك العمل بكفاءة، وأنا اؤمن بأهمية العلم، ولن أقدم على فعل شيءٍ قبل أن أدرسه جيدًا، وأعرف عواقبه.

تذكرت نصيحة الدكتور مأمون بتعلم مهارات الإسعافات الأولية.. وعزمت أن ألم بها.

ذهبت إلى المجمع ، وطلبتُ لقاءَ الدكتور مأمون.. كان بالمستشفى يناظر حالة طارئة في قسم الجراحة، استدعت حضوره.. انتظرته حتى انتهى من عمله.. قدَّمتُ اعتذاري، فلربما أتيتُ في وقت غير مناسبٍ.. رحَّب بي، وأزالتْ ابتسامته الأبوية وتواضعه كل حرج عن نفسي.

قلت له:

ـ أريد أن ترشدني إلى كيفية تعلم الإسعافات الأولية بطريقة علمية منظمة.. فقد تضطرني الظروفُ الطارئة إلى إعطاءِ الحقن لجدتي.

قال الدكتور مأمون:
ـ جميل جدا.. الإسعافاتُ الأولية والتعامل مع الشخص المريض أو المصاب عقب الإصابة مباشرة، قد تتوقف عليها حياته.. التصرفات الخاطئة في اللحظات الأولى قد تتسبب في ازدياد الحالة سوءًا، فيتأخر أو يتعذر شفاؤه!
أيدت كلامه.. ضحك، وقد استحضر واقعة حدثت له في ذلك اليوم:
ـ تعودت أن أخرج قبل مواعيدي بمدةٍ كافيةٍ، تحسبًا لازدحام الطرق، وأزمة المرور، وكي أصل مبكرًا عن الموعد بنحو نصف الساعة.. اليوم لحقت بميعاد العمل قبله بلحظاتٍ قليلةٍ.. كانت سيارة شاب متوقفة في وسط الطريق؛ فاختنق المرور.. نزلتُ من سيارتي وسألتُ الشاب عن سبب مشكلته، ثم فحصت سيارته واكتشفت العطل البسيط الذي أوقفها عن السير، وأصلحته!

كنت أنصت له في دهشةٍ.. جئتُ أكلمه في الإسعافات الأولية فحدثني عن ميكانيكا السيارات.. وسرعان ما تبينت وجهة نظره حين واصل:
ـ الناس يتعلمون قيادة السياراتِ ويهملون تعلم صيانتها أو إصلاحها.. وقد يعجز الواحدُ منهم عن إصلاح عطلٍ صغيرٍ على الطريق، فيؤخره عن إنجاز عملٍ مهم، وقد يعطل الأخرين! كذلك معظم الناس، يهتمون بالطعام والشراب والملابس وأشياء أخرى أقل أهمية، ويتكاسلون عن معرفة بعض الإسعافات الأولية.. وما أكثر الحالاتِ في حياتنا اليومية التي تحتاج إلى ذلك النوع من النجدة الفورية كحوادث السيارات، والغرق، وصعق الكهرباء، لحين قدوم المتخصصين.
أدركتُ خطورة الأمر واشتعلت حماسة لتعلم الإسعافات الأولية.. وأرشدني الدكتور مأمون:
ـ توجد دوراتٌ مكثفة تنظمها جمعية الهلال الأحمر، والجهات التابعة لوزارة الصحة، للطلبة وغيرهم، لتعليم مبادئ الإسعافات الأولية، وكيفية التصرف في حالات الطوارئ، وتعطي شهاداتٍ معتمدةٍ من وزارةِ الصحةِ للمشاركين.
فرحتُ.. وطلب الدكتور اسمي بالكامل وبعض بياناتي. وأجرى بعضَ الاتصالاتِ التليفونيةِ.. جعل يملي اسمي وبياناتي لمحدثه.. تهلل وجهه وقال:
ـ بتوفيق من الله.. اهتديتُ إلى دورة ممتازة مدتها عشرة أيام تبدأ من باكر.. مقابل

اشتراكٍ قليل لضمان الجدِّيةِ.. وقد سجلتُ اسمكِ.. ما عليكِ غدًا إلا الذهاب إلى المعهد التعليمي على هذا العنوان، وتقديم بطاقة الهوية، ودفع الاشتراك.

قدمت للدكتور مأمون شكري وعبرت له عن امتناني لاهتمامه بأمري، واعتزمتُ الانتظام في هذه الدورة.

أخبرت جدتي وأمي وأبي، وأذنوا لي بالذهاب، وشدّوا من أزري.

في الصباح الباكر، حضرت السيدة ماجدة وأعطت جدتي حقنة الإنسولين الصباحية، وستحضر أيضًا لإعطائها الحقنة المسائية، بالإضافة إلى نوعين آخرين يحقنان بالعضل، أحدهما لتحسين وظائف المخ، والثاني لتقوية الأعصاب.

كم تتعب السيدة ماجدة من أجلنا ولا تنتظر أجرًا من أي نوع، أو مصلحة تأملها.. ولن ترضى أبدًا بأكثرَ من دعاءٍ: جزاكِ الله خيرًا، تقنع به وتفرح.

قبل أن أفوه بكلمة عن موضوع الدورة، قالت السيدة ماجدة:

ـ لن أتمكن من إعطاء جدتك الحقن فترة قصيرة من الزمن.. سنسافر أنا وزوجي الحاج عبد الحميد إلى الأراضي الحجازية لأداء العمرة بعد أسبوعين، وسأبحث عن ممرضةٍ لتكون بديلاً عني طوال غيابي.

تمنيتُ لها رحلة طيبة.. لم أجد الوقت مناسبًا للحديث في أمر آخر.. انصرفت السيدة ماجدة، ومضيتُ في أعقابها إلى المستشفى الجامعي للالتحاق بالدورة.

ذهبتُ وقدمتُ الأوراق المطلوبة، ودفعتُ الرسومَ المقررة.. وجدت أقبالا كبيرًا من طلبة الجامعات على الدورة.. تسلمنا جدولاً وكان مقسمًا بالتساوي بين ساعات المحاضرات النظرية، والتدريبات العملية، وعلمت أن من سيتولون التدريسَ أساتذة في كلياتِ الطب، والمعهد العالي للتمريض، وكبار الأطباء الاستشاريين.

كانت دورة مفيدة تعلمنا فيها كيفية التعامل مع الحالات الطارئة: الكسور والحروق، النزيف والجروح والإغماء.. لدغ العقارب والحشرات السامة.. عض الثعابين وعقر الكلاب.. ضربة الشمس.. وأخطار البيئة عامة.. وتدربنا على الحقن العضلي والوريدي وتحت الجلد.. وعلى التنفس الاصطناعي وإنعاش القلب.. وغير ذلك.

وفي نهايةِ الدورةِ حصلتُ على شهادةٍ رسميةٍ من وزارةِ الصحَّةِ تفيد اجتيازي دورة الإسعافات الأولية بنجاح وتقدير ممتاز.

كانت سعادتي بهذه الشهادة لا تقل عن سعادتي بكل شهادةٍ دراسيةٍ نلتُها، وكل شهادةٍ حصلتُ عليها بعد ذلك.

أسرعتُ بها إلى جدتي، فأصرَّت أن أعطيها حقنة الإنسولين هذا المساءَ.. توجَّستُ قليلاً.. آثرتُ انتظارَ السيدة ماجدة ليجريَ كل شيءٍ تحت بصرها.. وبالفعل حضرت، وقمتُ بضبط الجرعة بدقةٍ في المحقن، وطهرت موضع الحقن، وحقنتُ الدواء.

أثنت عليَّ جدتي، وصفقت السيدة ماجدة وقالت:

ـ لا داعي للبحث عن ممرضةٍ.. سهيلة ستحلُّ محلي حتى أرجعَ من العمرةِ.. وربما بعد ذلك أيضًا!

قلت لها:

ـ لا حرمنا الله منكِ ومن ابتسامتكِ الجميلةِ.. جميلكِ في قلوبنا و لن ننساه.

وقالت جدتي:

ـ تقبَّلَ اللهُ منكِ إن شاء الله.. ولا تنسي الدعاءَ لنا في رحابِ الكعبة الشريفة، والمسجد الحرام، وعند الرسول.

سافرت السيدة ماجدة، وأضيف إلى مهامي إعطاء الحقن ومتابعة ضغط الدم والسكر، وإبلاغ طبيبها المعالج إذا كان هناك ما يدعو إلى القلق.. وهكذا مضت الأيام، وعادت السيدة ماجدة من العمرة، تحمل الهدايا.. جاءت لي بسجادة صلاة قيمة،ولجدتي بسبحة نفيسة.. وتنازلت لي عن مهمة التمريض بصفة نهائية. وقد استجاب الله لدعوات السيدة ماجدة لجدتي ودعوات محبيها.. جدتي كرمة الآن تحرَّكُ أصابعَهَا، واستعادتْ كثيرًا من الإحساسِ في قدمِها اليمنى.

بارالمبياد

أنعمَ الله على جدتي بالشفاءِ.. استعادت قدرتها خلال بضعة شهور على استخدامِ يدِها في الكتابةِ، والإمساكِ بالأشياءِ، و استطاعت المشيَ، واستغنت عن الكرسي المتحرِّك، ورجعتْ إلى مقعدِ الشرفةِ ذي الشلتة القطيفة.

كان للعلاج الطبيعي دورٌ مهم في إعادة تأهيلها للحركة والاعتماد بنسبة كبيرة على نفسها.. قامت الدكتورة هيام منذ الساعات الأولى للإصابة، بالتمارين العلاجية القسرية؛ لتحريك العضلات، ومنع تيبسها، وتذكرة المخ بشكل الحركة.. واستعانت بالأجهزة الطبية المناسبة، لتقوية العضلات ومنع ضمورها.. علاوة على الانتظام في تعاطي الأدوية، والالتزام بأوامر الأطباء.

أسهمت وسائل الإعلام من صحافة وتلفزيون بطريق غير مباشر في شفائها!

بدأت اهتماماتُ جدتي بالرياضة تتزايد في أثناء مرضها.. كانت فوق الكرسي المتحرك، تتصفح جريدة، استوقفها عنوان كبير على الصفحةِ الأخيرةِ: " سفرُ البعثةِ البارالمبيةِ إلى أتلانتا بالولايات المتحدة ".

خصَّصتِ الجريدة تلك الصفحة للحديثِ عن دورةِ الألعابِ البارالمبيةِ.. استلفتتْ جدتي صورُ اللاعبين المشاركين.. كانوا يجلسون على الكراسي المتحرِّكة، أو من ذوي الإعاقات الواضحة.. قالت في في فرحة:

ـ ما أجمل أن تقام دورة رياضية مخصصة للمعاقين، أو اصحاب الاحتياجات الخاصة!

علقت بقولي:

ـ الاهتمام بالمعاقين أمرٌ جديرٌ بالتقديرِ والإشادةِ.. ويزداد مع مرور الوقت.. وهذه الدورات البارالمبية تجري كل أربع سنوات، بعد انتهاء الدورات الأولمبية.

ومنذ ذلك الوقت، جعلت جدتي تتابع أخبارَ الدورةِ بالجرائدِ والمجلاتِ، وتحرص على مشاهدة البث المباشر لتغطية أحداثها، و نقل منافسات بعض اللعبات، أو مقتطفاتٍ منها، ولقاءاتٍ مسجلةٍ أو على الهواءِ لأبطال حصلوا على ميدالياتٍ بارالمبيةٍ، يعبرون فيها عن مشاعرهم وأمانيهم.

كادت جدتي تقفز فرحًا أثناء مشاهدةِ حفل الافتتاح، وهى ترى طابورَ العرض للدول المشاركة.. كان حملة الأعلام أبطالاً بارالمبيين، بعضهم يرفع علمَ بلاده ويلوِّح به في سعادةٍ من فوق كرسيِّه المتحرِّك! و تشاهدُ بطلاً قديمًا معاقا يوقدُ الشعلة البارالمبية!

في برنامج تليفزيوني بعنوان: "أبطال التحدي"، تابعت جدتي في شغفٍ لقاءً مسجلاً مع ثلاث لاعباتٍ معاقاتٍ هن ولاء جلال بطلة رمي القرص، والرَّبَّاعة أمل بطلة رفع الأثقال، و السبَّاحة سماح.. سألهن المذيع عن شخصيةٍ أثرت فيهن، وغيَّرتْ نظرتهن إلى الحياةِ.

كان جواب سماح:

" جدي كان قدوتي وتعلمت منه قهرَ اليأس.. كان محارباً قديماً، أصيب في معركةٍ بشظيةٍ إصابة شديدة، خلفت عجزًا في ذراعه.. كنت كلما ضاق صدري أو أحزنني أمرٌ ذهبت إليه في القرية.. أراه يعمل في حقله بذراع واحدةٍ.. يكفي أن أتأمّل وجهه الباسم لأستعيدَ الأمل والإقبال على الحياة والناس".

وعن السؤال نفسه أجابت أمل:

" أصبتُ بمرض شلل الأطفال في طفولتي.. تأثرت بجارةٍ لنا.. كانت كفيفة.. فقدت بصرها على أثر حادثةٍ وقعت لها.. كانت صابرة شاكرة، راضية بقضاء الله، تردّد دائماً بإيمانٍ صادقٍ: إذا أغلق الله بابًا على الإنسان بحكمته، فتح له شباكًا برحمته ".

وقالت ولاء وهي تعدل كرسيها المتحرِّك :

" قدوتي سيدة مجهولة لم أتشرف بمعرفتها، ومن الغريب أنني لم أسعَ إلى ذلك.. ربما لأنني كنت صغيرة السن وقتها، أو منعني الخجل، وظلت صورتها في خيالي بعد بتر رجليَّ الاثنتين في حادثة سير".

ارتسم على ملامحها الشجن.. وبعد لحظات صمتٍ واصلتْ:

" تلك السيدة كانت تمرّ قبالة بيتنا كلّ صباحٍ، في أثناء العام الدراسي، تدفع كرسياً متحركاً عليه ولدٌ، يبدو على وجهه الطيبة والوداعة.. ذات مرة شاهدتها واقفة أمام بوابة المدرسة الإعدادية.. تواريتُ عنها خلف شجرةٍ قريبةٍ، وأخذت أراقبها..

كانت تنتظر موعدَ انصراف التلاميذ لتعود بالولد إلى البيت.. تبعتها ودهشت كثيرًا عندما وجدتها تعاني في مشيتها، بينما تواصل دفع الكرسي المتحرِّك.. يبدو أنها تشكو عاهة ما في قدمِها.. كان بالمدرسة نفسها تلميذٌ من أقاربي.. حرصت على سؤاله عنها.. تأكدت من توقعاتي.. كانت تلك السيدة العظيمة والدة لأحد زملائه المتفوقين.. وسررت عندما أخبرني أن إدارة المدرسة كرّمتها في عيد الأم، ومنحتها لقب الأم المثالية للمدرسة".

انتهى البرنامج، وأحسستُ بسعادةِ جدتي بهن، على الرغم من الدمعتين المتحدرتين على وجنتيها.. قالت:

ـ إن كلماتٍ من نوعية المعاقات أو ذوات الحالات الخاصة لا تعني لهن شيئًا.. كيف يوصفْنَ بالمعاقات وهن مشحوناتٌ بالطموح و إرادة الحياة؟!

استمرَّتْ جدتي في متابعة الدورة، وكانت تشجع اللاعبين واللاعبات بغض النظر عن أجناسهم أو ألوانهم، وإن أولت مواطناتها الثلاث: ولاء وأمل وسماح اهتمامًا زائدًا.

تعلقت عينا جدتي كرمة بالشاشة، ساعة نقل منافسات رمي القرص.. كان موعدُ ولاء مع الحلم يقترب.. اجتازت التصفياتِ الأوَّليَّةِ، وتأهلتْ للمرحلةِ النهائيةِ لتنافس على المراكز الثلاثة الأولى.. ها هي تمسك بالقرص وتتأهب للرميةِ الأخيرةِ الحاسمةِ.. تركز ولاءُ أفكارها.. تشدِّد جدتي قبضتها على الكرسي المتحرِّك.. تنطق ملامحها بالإصرار والتحدي.. تقذف ولاءُ بالقرص.. ينطلق بكل ما في داخلها من إرادةٍ وعزمٍ وطموحٍ.. يجتاز السحاب.. ينطلق في الفضاء.. وصوب قرص الشمس يمضي.. يتحقق الحلم برقمٍ قياسي عالمي جديدٍ.

ولاء على منصة التتويج، تتقلد الميدالية الذهبية من رئيس الاتحاد البارالمبي العالمي لألعاب القوى، وبيدها صحبة زهورٍ.. الكاميرات تنقل الحدث العالمي الكبير إلى ملايين المشاهدين في قارات الدنيا السبع.. تدمع عينا ولاء وهي ترى علم بلادها يرتفع ويرفرف على موسيقى السلام الوطني.. وأضحى الحلم الكبير حقيقة!

وتوالت المشاهدُ المبهجة.. انتزعت الربّاعة أمل ذهبية رفع الأثقال بعد منافسةٍ حامية مع لاعبات أوروبا وآسيا.. وربحت سماح برونزية السباحة لتضيف ميدالية

جديدة إلى رصيد بلدِها من الميداليات، وتعد بذهبيةٍ في الدورةِ القادمةِ.
وكان تعليق جدتي:
ـ هؤلاء الفتيات الثلاث بحق ملكات متوجات على عرش البطولة والإرادة وتحدي الإعاقة.. بل هن نجمات متلألآت في سماء الوطن!
وهكذا كان لوسائل الإعلام الجادة الهادفة، دورٌ ملحوظ في رفع معنوياتِ جدتي كرمة، والإسراع في شفائها.
وإذا كان العلاج الطبيعي والدوائي نجحا في إعادة تأهيلها بدنيًّا، فإن الدورة البارالمبية قد أسهمت بنصيبٍ في تأهيلها من الناحيةِ النفسيةِ.

طبيبة الجدات

أحببتُ الطبَّ ومضيتُ في دراستِهِ بنجاح، ولم يعدْ أمامي غير عامين على التخرج.. كانت جدتي كرمة قد عادت إلى طبيعتها تقريبًا، واستغنت عن الكرسي المتحرِّك، وبلغتْ درجة حسنة من الاستقلالية؛ فهي تعتمد على نفسها في شؤونها الشخصية، وتنزل إلى الحديقةِ متكئة على عكازها المعدني، تفطرُ، وتطعمُ القطط، وتقرأ الصحفَ.. تذهب للمصلى، وتؤدي الصلواتِ جالسة.

كانت تبتسم وتقول لي: ستصبحين يا سهيلة بإذن الله طبيبة بارعة، حانية القلب.. كنت أخبرها أنني أنوي التخصص في " طبِّ الجَدَّاتِ "!

تضحك وتقول:

ـ أعرف أن هناك طبًّا الأطفال.. لم أسمع من قبل بهذا الفرع من الطب.. لعلكِ تقصدين طبَّ الشيخوخةِ، أو طبَّ المسنين والعجائز!

أصرُّ على رأيي؛ فتسميته "طب الشيخوخة"، تسمية قاسية، فظة، مؤلمة للنفس، توحي للمريض أنه على شفا النهاية!

تردُّ:

ـ لكنها الحقيقة يا حفيدتي الحبيبة.

أقول:

ـ سأقترحُ اسمًا آخر لهذا التخصص: طب الجدات الطيبات.. الجميلات أيضًا!

تبتسم جدتي في دهشة!.

ذات يوم، جمعنا لقاء أمام الحوضِ المزروع بالورودِ.. قالت لي:

ـ منذ مدةٍ طويلةٍ أفكر بيني وبين نفسي بمشروع للخير، نقيمه في هذا المكان.. فكرت في التبرُّع بالفيلا والحديقة للدولة؛ لتصيرَ مدرسة؛ فأنا خريجة مدرسة المعلمات، وأعرف قيمة التعليم.. لكن في أعقاب مرضي، ودخولكِ كلية الطب، استقرَّ رأيي على إقامة عيادةٍ تقدم خدماتِها لكبار السن.. بالمجان لفقرائهم، وبأجر قليلٍ للقادرين منهم.. تتولين أنت إدارتها.. تكون نواة لمستشفى، و مشروعات أخرى لخدمة السيداتِ المسنات.

كنت لا أعرف أية معلوماتٍ عن ملكية الفيلا؛ فلم يكنْ أحدٌ من الأسرةِ يشغله هذا الأمرُ، ولكن أيا كان الوضع، توجدُ أطرافٌ أخرى، تجبُ مشورتها والحصول على موافقتها.. خالي مكرم وأمي مي.

تردَّدتُ أن أخبر جدتي بذلك، لأن الأمرَ بأيدي أصحاب الشأن.. لكنها بحاستها التي قلما تخطئ، قالت:

ـ سأفاتح ابني "مكرم" وأمكِ في هذا الموضوع عندما تحين الفرصة المناسبة!

كان خالي مكرم يتصل بنا من كندا، ليطمئن على والدته.. وذات يوم أخبرنا أنه سيزورنا بعد بضعة أسابيع، فقد جاءته دعوة من وزارة البحث العلمي إلى مؤتمر تقيمه، يناقش موضوعات الطاقةِ المتجدِّدةِ، والطاقةِ المستقبليةِ، والطاقة والبيئة، بصفته من كبارِ العلماءِ في هذا المجال.

حضر خالي، وألقى بحثًا مهمًّا عن طاقة الرياح والطاقة الشمسية، وقام الإعلام بتغطية هذه الزيارة، واهتمت بأبحاث الدكتور مكرم فهمي في مجال الطاقة النظيفة.

قضى خالي مكرم ثلاثة أيام مع جدتي، لم تشأ أن تحدثه في أثنائها بشأن الفيلا، لانشغاله بأعمال المؤتمر، وزيارة المعاهدِ العلمية.. وفي اليوم الأخير، دعت ابنتها مي وهمَّت بالحديث في الموضوع، وإذا بخالي يسبقها إليه!

اقترحَ بيعَ الفيلا بأكملها.. وقال:

ـ مساحة الفيلا والأرض الفضاء من حولها تزيد عن ستة آلاف مترًا مربعًا.. وهي مساحة كبيرة جدًا لمعيشة فردٍ واحدٍ أو حتى عائلة كبيرة.. تحتاج الفيلا إلى جهدٍ جبارٍ للحفاظ على نظافتها وصيانتها.. أرى أن شقة صغيرة تكفي أمي، فيسهل تنظيفها وترتيبها، ولا تمثل عبئًا عليها وعلى من يقوم على رعايتها.

لم يكن خالي مكرم طامعًا في شيء ولم يقصد إلا راحة جدتي.. قضى معظم حياته متنقلاً بين دول أوروبا حتى استقر به المقام على الجانب الآخر من الأطلنطي.. في كندا.. و تعلم من تعاملات الأجانب أن يكون عمليًّا، وأن يغلب العقل على العاطفة والمشاعر.. لكن جدتي التي كانت على العكس منه تمامًا، فهي تميل مع القلب والعواطف.. ردَّت عليه قائلة:

ـ لن أترك هذا المكان ما دمتُ حية.. لقد عشت أكثر سنوات عمري هنا في

الفيلا.. و أريد أن أقضي البقية القليلة منه فيها.. ويعز عليَّ أن أسمع ابنًا لي يقول هذا!

اعتذر خالي مكرم لما رأى حزن أمه وقبل يدها وجبينها.. قال إنه لم يقصد إغضابها.. هذا مجرد رأي.. وقال:

ـ أنت صاحبة الشأن و سنمتثل لما تشائين بلا مناقشةٍ!

قالت جدتي:

ـ أفكر بعمل يخدم الناس، ويكون صدقة جارية على روح أبيك، وعلى أرواحنا بعد الممات، وثوابًا لنا في الآخرة.

أيدت أمي من فورها فكرة جدتي.. وأعلن خالي مكرم دعمه للمشروع فنيا بإقامة سخاناتٍ شمسية فيه، بل والإسهام في تمويله.

وهكذا وضعت جدتي البذرة لمشروع "كرمة الوفاء".

كنز إيسوب

ملأ اللهُ نفسَ جدتي كرمة بالإيمان منذ صغرِها، ووهبها قلبًا عامرًا بالخير والوفاء وحبِّ الناسِ.. نمتْ معها هذه الصفات السامية بمرور السنين.. كانت تؤتي الزكاة، وتكثرُ من الصدقاتِ، وتساعد بعض الأسر الفقيرة.

ذات مرة اصطحبتني إلى بيتٍ قديمٍ في زقاقٍ بإحدى المناطق الريفية القريبة.. رأيتُ فيه امرأة عجوزًا عجفاءَ ضريرة، ترقد على كنبة.. أعطتها جدتى مبلغًا من المال.. قالت إنها علمت من "فواكه" بمرضها، فأتت لتزورَها.

شكرتها العجوز بصوتٍ واهنٍ ودعت لها بالخير.. أدركت أن لهذه السيدة صلة بفواكه.. لا يمكن أن تكون أمها؛ لأني أعرف من جيهان أن أمها فواكه يتيمة الأبوين منذ صغرها.. رجحتُ أنها من قريباتها.. علمت من جدتي أن تلك السيدة المعمرة تدعى سندس وهي خالة فواكه التي قامت بتربيتها ورعايتها.. علاقة جدتي بسندسَ تعود إلى زمن طويل، فقد كانت بائعة متجولة تطوف بالبيوت لبيع اللبن والزبد والدواجن.. كانت تأتي إلى بيت الدكتور رامي، وتتعامل مع السيدة جلنار والدة جدتي.. و بعد زواج جدتي، جاءت فواكه وهي فتاة صغيرة لتساعدها في أعمال المنزل بتزكيةٍ من الخالة سندس.. أظهرت فواكه من الأمانة والإخلاص في العمل، ما يشهد بحسن تربية الخالة، فأحبتها جدتي، وعدتها فردًا من الأسرة.. ولما طلبتْ فواكهُ للزواج، قامت جدتي بتجهيزها، وشراء الأثاث والمنقولات اللازمين لها.. وكانت تبعث إلى الخالة سندس بعض الأموال والعطايا عن طريق فواكه.

كان جدتي كرمة تكره جمع المال لمجرد جمعه، وتبغض كنز الذهب والجواهر إشباعًا لرغبة الاقتناء والتباهي.. كان لديها رصيدٌ كبيرٌ من الحكاياتِ عن هذا الأمر.. وذكرت لي قصصًا عديدة على مدار الأيام، منها قصصٌ حقيقية مثبتة في كتبِ التاريخ، وبعضها من وحي خيالِها.

القصة الأولى بطلها هو الحكيم اليوناني إيسوب.. كانت جدتي مولعة بكفاحه في الحياة، و بحكاياته التي تجري على ألسنة الحيوانات.. وترى أن حياة صاحب الحكايات الواقعية لا تقل إثارة عن حكاياته الخرافية.

وقعت أحداث هذه الواقعة في" ساردیس"، عاصمة مملكة " ليديا "، التي يذكرها التاريخ على أنها منشأ العملات المعدنية، في قصر الملك كرويسوس، ذاك الملك الذي صكَّ العملاتِ الذهبيةِ والفضيةِ، المزينةِ بأشكال بديعةٍ.

تروي جدتي: كان أيسوب يتيمًا.. نشأ عبدًا في صغره، لكنه نال حريته بذكائه وعقله، وصار صديقًا حميمًا، ومستشارًا لأغنى ملوك الأرض في ذلك العصر؛ كرويسوس ملك ليديا.. كان كرويسوس واسعَ الثراءِ، وثروته في ازدياد على مرِّ الأيام؛ فعاصمة مملكته " ساردیس " يجري فيها نهر "باكتولوس "، الذي يُستخرَجُ منه ترابُ الذهبِ كل يوم.. كان الملك يكنز سبائك الذهب في دار حصينة، يتناوب على حراستها جنود أشداءُ أمناء ليل نهار.. واتتْ إيسوب فكرة يعبر بها عن عدم رضاه عن ذلك كله.. جاء بحقيبةٍ مغلقةٍ، ورجا الملك كرويسوس أن يسمح له بأن يحفظها ليلة واحدة فقط في مبنى النفائس الملكية؛ لأن بها شيئًا ثمينا جدًّا يخشى عليه!

وافق الملك، واصطحب إيسوب لدار الكنوز.. أذن لهما قائدُ الحرسِ بالدخول، بعد ذكر الملك لكلمة السر المتفق عليها، تلك التي تتغير كل يوم، إمعانًا في الحيطة.. هناك وضع إيسوب حقيبته مع كنوز الملك.

وفي صباح اليوم التالي عادا إلى دار النفائس، وقال الملك كلمة السر، ودخلا معًا.. وجد إيسوب حقيبته في الموضع نفسه حيث وضعها بيده ليلة أمس.

تعمَّدَ إيسوبُ فتحها أمام عيني الملك؛ ليطمئن على كنزه.. ولكن ياللمفاجأة: الحقيبة مليئة بقطع الحجارة!!

اعتقدَ الملكُ أن خطأ ما قد حدث، فاستدعى قائد الحرس، وقبل أن يفوه بكلمة تأنيبٍ أو توبيخ له، بادر إيسوب بكشف هذا اللغز.

قال إيسوب للملك:

- لم أضع في الحقيبة إلا أحجارًا.. فما وضعته وجدته!

بلغت دهشته منتهاها.. سأل إيسوبَ:

- لماذا فعلتَ ذلك؟

أجابه:

ـ لأنه لا فرق بين الذهب المكنوز وقطع الأحجار.. إذا لم تنتفع بالذهب وتنفقه في إقامةِ المشروعاتِ النافعةِ لزيادةِ الإنتاج، وتشغيل الشباب فسيصبح هو والحجر سواء.

و كانت النتيجة استجابة الملك له، وشروعه في التنفيذ.

الحكاية الثانية من تأليف جدتي، وعنوانها " الثروة الباقية".. وتحكي عن سيدةٍ واسعةِ الثراءِ تمتلك مساحاتٍ كبيرةٍ من الأراضي الخصيبة.. لم تكن تهتم بزراعتها وتركتها بورًا جرداء.. كانت تحدث نفسها قائلة: " لماذا أتعب نفسي وأزرع أرضي، واضطر إلى التعامل مع الفلاحين وتجار المحاصيل؟ خزائني تمتلئ بالمال، وأشتري كل ما أشتهي من طعام وشراب وقتما أشاء!

كانت السيدة الثرية مقتنعة تمام الاقتناع بحياة الدَعَةِ و الراحةِ والرفاهيةِ، والاستمتاع بصفاء العقل وهدوء البال، فلا تفكر إلا بنزهةٍ جميلةٍ، أو رحلةٍ بحريَّةٍ ممتعةٍ.. كانت ترتكن على ما تمتلك من أموالٍ وفيرة.

وحدث ما لم يكن في الحسبان.. اجتاحت جيوش الأعداء بلادها.. ووقفوا على الأسوار الحصينة لتلك المدينة الكبيرة، حيث تقيم السيدة ذات الثراء.. لم يستطع الأعداءُ دخول المدينة؛ لاستبسال حاميتها في الدفاع عنها.. لم ييأس الغزاة العنيدون الأقوياء.. فرضوا الحصار على المدينة من البر والبحر.. مستوثقين من استسلامها بعد حين، بعد نفاد مخزونها من الغذاء.. وقال قائدهم لجنوده: صبرًا.. التجويع سلاح فعال.. سوف تسقط المدينة من تلقاءِ نفسها في أيدينا كالثمرة الناضجة!

كان عند السيدة الثرية خزينٌ وفيرٌ من الدقيق والأرز والبقول والأطعمةِ الأخرى، لكنه على وفرتِهِ ليس يكفي إلا لأسابيعَ قليلةٍ، إذ كان لديها وصيفة وخدم، يسكنون معها في القصر، وهي مسؤولة عن طعامهم جميعًا.

عاشت المدينة المحاصرَة على أمل أن تصلها سفن النجدة من البلاد المجاورة، وأن تجمع المملكة شتات جيشها، وتهجم على العدو، وتفك الحصار.

وبالفعل أرسل ملك البلادِ خمس سفن مُحمَّلةٍ بالقمح والأرز لنجدة المدينة.. ولكن ياللأسف! شعر بها الأعداءُ، فأطلقوا عليها النيران قبل وصولها، فاحترقت

سفينتان وغرقت واحدة، وقبضوا على السفينتين الباقيتين، وغنموا ما فيها، وأسروا من عليها.
أخذت الأحوال تضيق وتسوء بالسيدة يومًا بعد يومٍ.. وجاء اليوم العصيب الذي لم تعمل له حسابًا.. أخبرتها وصيفتها الأمينة بنفاد مخزون الطعام.. لا توجد حفنة واحدة من الدقيق.. ولا حبة من أرز أو فول!
لم تأخذ سيدة القصر هذا الأمر بجديَّة؛ فالمال موفورٌ والذهب موجودٌ!
أعطت وصيفتها صرَّة من النقودِ.. أمرتها بشراء ما تجده من طعام.. بأي ثمن.. فلا شك أن بعض التجار يخفون السلعَ في وقت الأزماتِ؛ لبيعها بأسعار مضاعفةٍ.. والشدة تضطر الناس لقبول التعامل مع أولئك الجشعين المحتكرين.
عادت الوصيفة بجوال صغير من الدقيق، وبعض الطعام، ابتاعته من تاجرٍ في الخفاءِ، استغل حاجة الناس للطعام، وأعماه الطمع، فساومها، واستولى منها على صرَّة النقود بكل ما فيها .. لقد شحَّ الخبز، و من عنده قليلٌ من الطعام أنكر وجوده.. المدينة على حافة مجاعة!
ارتبكت أفكار السيدة الغنية.. أول مرة تواجه مشكلة ليست تحلها النقود، وهي التي كانت تظن أن المال لا تستعصي أمامه مشكلة!
انفرجتِ الأزمة قليلًا.. نجحت سفينة عليها شحنة أرزٍ كبيرة في الهروب من الحصار، و تم إنزالها في مكانٍ بعيدٍ عن عيون الأعداءِ.
أطلق والي المدينةِ المنادين ليبلغوا الناسَ أن حساءَ الأرز سيوزع عليهم بالتساوي بصفةٍ يومية، ويشترط حضور الشخص بنفسه لصرف حصته من الحساءِ.
وصل النداءُ إلى سمع السيدة الثريَّة، وقد اشتد الجوع بها، فارتدت ملابسها من فورها، وحملت طبقًا، وخرجت لتنال حصتها من الطعام.
وجدتُ زحامًا شديدًا على الطعام.. وقفت في صف طويل تنتظر دورها.. تدافع بعض النسوة، واشتبكن، ووجدت السيدة الثرية نفسها في وسطهن.. انفرط عقدها الثمين، وتناثرت حبات لؤلؤه على الأرض.. مالت السيدة تجمع حباتِ اللؤلؤ، وتضعها في الطبق، والنسوة يلتقطنها، ويضعنها كذلك في الطبق.. اجتمعت حبات العقد إلا حبة.. فوجئت بسيدةٍ مسنةٍ، تبسط كفها المرتعشة

بالحبة الناقصة.. أشفقت السيدة الثرية عليها.. عرضت عليها اللؤلؤة.. وكانت المفاجأة، رفضتها العجوز بإصرار، وألقتها في الطبق بلا اكتراثٍ!!
راحت السيدة الثريَّة تحدق إلى اللآلئ في الطبق.. اكتملت حباتُ العقد.. لم تطمع إحدى النسوة في لؤلؤةٍ، وما كان أسهل أن تخفيها.. كسرة خبز في حالهن هذه أغلى من لؤلؤة.. لو كان الذهب يؤكل أو اللؤلؤ يشبع البطون!
نالت نصيبها، فكان ملءَ مغرفتين من الحساء، ورجعت إلى قصرها.
أصبحت المدينة في مجاعةٍ.. كان الناس يأكلون العشب وأوراق الشجر.. كانت السيدة جائعة.. مستعدة أن تعطي نصف مالها مقابل بضعة أرغفة.. لا.. برغيفين.. أو حتى رغيف واحد.. طافت شوارع المدينةِ بلا جدوى.. مشت والجوع يعضها، حتى وجدت نفسها في مكان هادئ منعزل على شاطئ النهر.. شاهدت بضعة أكواخ متجاورة.. خالتها خاوية.. ولكنها رأت كوخًا تتصاعد منه خيوط رفيعة من الدخان.. اقتربت.. اشتمت رائحة خبزٍ ينفث بخاره.. طرقت باب الكوخ.. فتح لها شيخ كبيرٌ.. رحب بها.. كانت زوجته العجوز تجلس أمام فرن صغير من الطين تصنع الخبز.. من قبل أن تقول شيئًا، قدم الشيخ إليها بضعة أرغفة.. تعجبت.. لم يبخل عليها بالخبز، برغم شبح المجاعة؟!
كانت تظن الأكواخ مهجورة.. أخبرها أن جيرانه من الشباب والكهول القادرين على حمل السلاح، تركوها لينضموا إلى حامية المدينة للدفاع عنها.. وأن ولده الوحيدَ الشاب ذهب معهم.. لم يبق غير النساءِ والشيوخ والأطفال.
سألته من أين له بالدقيق.. أجاب:
- تلك الأرض الخصبة على الشاطئ، نشترك نحن ساكني الأكواخ في زراعتها بالقمح، والذرة، وسائر المحاصيل.. زرعناها بالقمح، وحصدناه قبل الحصار.. ووزعناه حسب احتياج كل أسرة.. نصيبي كمية قليلة لكنها تكفيني أنا وزوجتي لبضعةِ أيامٍ قادمة!
قالت له:
- وماذا ستفعل بعدها؟!
أجاب:

ـ الله سبحانه وتعالى يدبِّرُ أمورُ العباد.. والذي خلقنا لن ينسانا.. الفرجُ قريبٌ يا ابنتي.. سلمي أمرك لله!

وقالت لها زوجة الرجل:

ـ إذا أردتِ خبزًا فتعالي.. أهلاً بكِ!

مدَّتِ السيدة يدَها بصرَّة نقودٍ كانت تخفيها، تعرض عليهما المال.. ابتسم العجوز وهو يردُّ الصرة برفق وقال:

ـ لست بائع خبز يا سيدتي.. أنا فلاح!!

غادرتهما وهي في غاية الدهشة.. تعلمت درسًا من هذين الزوجين الكريمين.. عاهدت الله أن تنزل إلى أرضها وتزرعها بالقمح، وسائر المحصولات.. لأن الأرض والعمل الذي ينفع الناس هما الثروة الحقيقية التى تبقى وليس المال!

وشاء الله أن يأتي بالفرج.. وصلت جيوش النجدة برًّا وبحرًا، ونجحت في فك الحصار وهزيمة الأعداء.. و أوفت السيدة الثرية بعهدها، فزرعت أرضها، واستأجرت الفلاحين للعمل معها، وكانت تردد في افتخار: أنا فلاحة.

الحكاية الثالثة وقعت في الهند منذ زمن طويلٍ.. كان هناك ملكٌ قوي نافذ الرأي، يعتلي عرش مملكة غنية مهيبة، وكانت له زوجة جمعت بين رجاحة العقل والجمال.. كان الملك يحبها كثيرًا، ويسعى إلى توفير أسبابِ السعادةِ والعيشِ الرغيدِ لها.

ذات يوم فكر الملك بإهداءِ قصرٍ للملكة، لم تقع على مثيله عين في جميع أرجاء العالم.. قصر يصيرُ مضربَ الأمثال على مر الأجيال والأزمان.. سيشرع في البناءِ دون أن يخبرها بأنه سيكون هدية لها، لأنه ينوي أن يعلن ذلك في عيد زواجهما العاشر، الذي يحين العام القادم.

كلف الملك وزيره الأمين بتولي هذا الأمر، والإشراف على أعمال البناء، وفتح له خزائن المملكة يأخذ منها ما يشاء، ليكون القصر كما يحلم ويتمنى؛ فوق جبل عالٍ، مشيدًا من أجود أنواع الرخام، تكسو قبابه طبقات سميكة من الذهب والفضة.. تعكس أشعة الشمس، ويراها السائرون على بعد عشراتِ الأميال!

اصطحب الملك وزيره وكبار مهندسيه وفنانيه، وانتقى مكانًا منبسطًا فوق الجبل،

ليُبنى عليه القصر.
وبينما كان الوزير يمرُّ بموكبه وقتَ الظهيرةِ، في طريقه إلى موقع البناء، توقف ليستريح قليلاً، على حدودِ قريةٍ من قرى المملكةِ.
ما كاد يحط الرحال، حتى أقبل إليه رجال القرية، يشكون من قلة مياه الري، فأوشكت زروعهم على الجفاف، ومواشيهم على الهزال والنفوق.. كانوا في حاجة إلى بناء سدٍّ على النهر، يحتجز الماءَ وقتَ الفيضان، ليسقوا زرعهم حين يشح الماء.. كانوا في حاجة إلى شق الترع ليصل الماءُ بسهولةٍ إلى أراضيهم.
أصغى الوزير إلى شكاواهم، وأقدم على التصرُّف من تلقاءِ نفسه، وقد رأى بعينه الحالة البائسة التي وصل إليها الفلاحون في هذه القرية، وعشرات القرى المجاورة.
أمر الوزير ببناء سد، وشق العديد من الترع وقنوات الري، وأنفق اموالاً طائلة على المشروعات الزراعية.
حان الوقت ليتسلم الملك القصر، و سأل الوزير كيف يسير العمل.. طمأنه الوزير.. فالقصر اكتمل بناؤه.
ذهب الملك وهو في شوق شديدٍ لرؤية قصره، وهالته المفاجأة عندما وقعت عيناه على القصر.. ليس هو القصر الذي في خياله.. إنه مبني من الأحجار والخشب.. صحيح أن به لمساتٍ جمالية.. لكنه ليس بالقصر الذي يليق كهديةٍ للملكةِ.
دافع الوزيرُ عن نفسِهِ.. قال إن القرى كانت عطشى، و في حاجة شديدة للماء، وأن أكثر المال أنفق على الزراعة، فاخضرت الحقول، وسمنت الماشية، وانتعشت القرى.. ولكن كل ذلك لم يشفع للوزير.. ثار الملك وأمر بإيداع وزيره السجن حتى ينظر في أمره.. لم يشك الملك لحظة في أمانة وزيره، لكنه لم يغفر له إضاعة حلمه، ومخالفة أوامره.
علمت الملكة الرشيدة بما حدث.. طلبت إلى الملك أن يريها القصر الجديد.. اصطحبها إليه.. أبدت إعجابها الصادق بروعته، على الرغم من بساطته.. رجتِ الملك أن يتوقف ركبه بالقرى.. طافت بها.. شاهدت الحقول الخضراء، وفرحة الفلاحين.. وهتافهم بحياة الملك والملكة.
قالت الملكة لزوجها: وزيرك المخلص الأمين يستحق منك الثناءَ والتكريم وليس

الحبس والتنكيل.. إن إسعاد الناس، والإحسان إليهم، وامتلاك قلوبهم، أغلى من القصور والكنوز.. وها هم أهل القرى يدعون لك وقد ازداد حبهم وولاؤهم للمملكة.

وعندما هدأت نفس الملك، أفرج عن وزيره، واعتذر له، وأعاده إلى الوزارة.

بعيون جدتي

ضعفَ إبصارُ جدتي في أواخر أيامها بسبب مضاعفات مرض السكر، وتأثيراته السيئة على شبكية العين.. تكاد أن تكون كفيفة.. كانت تحاول ما وسعها الاعتماد على نفسها.. اعتادت بالممارسةِ نزول درجات السلم وحدها.. كان تحفظ عددها جيدًا.. وأخالها تعدُّ في سرها.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.... وهي نازلة، مثلما كانت تعلمني في الماضي.

أرجع من الكلية، فأجدها في الحديقة.. تسألني عن احوالي في الدراسة.. أجيبها بأن الأمور تسير على أحسن ما يرام.

ينساب إلى سمعها صوت يَسْجَعُ[19] في سكون الظهيرة.. تقول جدتي:

ـ هذه يمامة!

وتوجه نظرها نحو شجرة وتشير بسبابتها:

ـ يبدو أنها اتخذت لها عشًّا هناك.. في شجرة " الفيكس " منذ عشرة أيام.. أسمعها في نفس الموعد كل يوم!

بعد لحظاتٍ أسمعُ رفرفة أجنحةٍ، و يمامة تنطلق من نفس الموضع الذي أشارت إليه جدتي!

بعد قليل نسمع صوتًا آخر.. ترهف جدتي السمع.. تقول:

ـ أسمع هدهدة.. هذا صوت الهداهد.. هناك هدهدٌ على مقربةٍ منا.. غالبًا عند حوض الزهور!

أحدق إلى حيث قالت جدتي، فألمح هدهدًا يبسط ريش تاجه، وينزل من فوق الغصن، إلى حوض الزهور.. ينبش الأرض بمنقاره، ثم يلتقط دودة من ديدان الأرض، ويطير!

جدتي تميل إلى سماع الإذاعة منذ زمن طويل.. تفضلها على التلفزيون.. كانت دومًا تقول: " تطلق الإذاعة خيال المستمع، ويكون معها على حريته التامة..

19 يَسْجَعُ: يردِّدُ الكلامَ أو الصوتَ على طريقةٍ واحدةٍ.

يسمعها قاعدًا أو مضجعًا في فراشه، أو نائمًا تحت البطاطين في الشتاء.. أما التلفزيون فيلزمه جهدٌ للتركيز ومتابعة الصورة".
وعندما ضعف بصرها واستحال عليها مشاهدة التليفزيون، قنعت بالبرامج والتمثيليات الإذاعية.. كانت تضحك وتقول: شكرًا لله.. أذني لا تزال سليمة!
كنت أرجوها الجلوس معي أمام شاشة التلفزيون عندما يُذاع فيلم قديمٌ تحبه.. كانت تراضيني وتجلس.. تتابع الصوت بتركيز، ثمَّ تندمج و تنفعل مع اللقطات والمشاهد دون ان تراها.. كانت تستحضرها في خيالها وقد سبق لها مشاهدتها في الماضي.. فتبتسم أو تحزن.. وتكاد تبكي احيانًا.. وكانت تصفُ المشهدَ بدقةٍ متناهيةٍ، وتذكر الممثلين واحدًا واحدٍا، وكيف كانوا يتحركون، وماذا كانوا يفعلون.. إلى درجة أنها تصف أحيانًا ما كانوا يأكلون في أثناء المشهد، وما يلبسون.. خاصة ملابس الممثلات!

ذات مرَّةٍ افتقدت سلسلتي الذهبية الثمينة.. اعتراني حزنٌ شديدٌ.. بحثتُ عنها في البيت وفي الحديقة.. لم أجدها، و فقدتُ الأمل في العثور عليها.
حكيتُ لجدتي.. قالت لي: تذكري جيدًا الأماكن التي كنتِ فيها قبل اكتشافكِ اختفاءَها مباشرة، وماذا كنتِ تفعلين.. هيا نبحث معًا!
قلتُ لها إنني افتقدتها بمجرد صعودي من الحديقة إلى الحجرة.. سألتني جدتي:
ـ ربما سقطتْ على السلم؟
أجبتُ:
ـ لم أجدها هناكَ!
قالت جدتي:
ـ أرجحُ أنها في الحديقة.. لنتبعْ خط سيركِ ونتناقشْ في أثناءِ السير!
مشيت مع جدتي.. كانت تقتفي أثري خطوة بخطوة، وتسألني ماذا فعلتُ هنا أوهناك.. عندما دنونا من شجرة الليمون، اشتمت جدتي رائحة زهره، وقالت: نحن على بعد خطوات من "الليمونة" العجوز.. تعني الشجرة.. سمعت طنينًا.. قالت:
ـ حذاري من النحل يا سهيلة!

تذكرتْ كيف حلقت حشرة طائرة حول رأسي، وسمعتُ أزيزها قريبًا جدًا من أذني.. وكيف اضطربتُ، وفزعتُ، وتحركتُ يدي بسرعةٍ خاطفةٍ وعشوائيةٍ إلى رقبتي كردة فعل تلقائيةٍ لإبعادِ النحلة.. ذكرت ذلك لجدتي، فتوقفتْ عن السير، وأشارت بعكازها وقالت في ثقةٍ:

ـ السلسلة هنا!

وبالفعل وجدتُ السلسلة الذهبية وسط العشبِ في الموضع نفسه الذي أشارت إليه جدتي كرمة!

كرمة الوفاء

مازالت توصيني بكبار السن.. تذكر قول الخالق سبحانه وتعالى: " الله خلقكم من ضعفٍ ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفًا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير".

تقول جدتي:

ـ يُولدُ الإنسانُ ضعيفًا، ثم ينمو سريعًا، ويصير شابًا في أوج القوَّةِ والحيويَّةِ، ثم يصلُ لمرحلةِ الكهولةِ، وتبدأ قواه في الضعف، وشعره في المشيب، ثم يصبح شيخًا، واهن الجسمِ، ضعيفَ الحواسِ، أشيبَ الشعر.. أرى الشيوخ والعجائز يا سهيلة أولى الفئات بالرعاية وأحوج إليها حتى من فئة الأطفال.. لأن الطفل في معظم الأحوال يجد الاهتمام والحنان من أبويه وأقاربه.. بعض الناس ينظرون إلى العجوز كشيءٍ انتهى دوره في الحياة، وصار عبئًا ثقيلاً يودون التخلص منه.. كم من حالاتٍ لمسنين ومسناتٍ يعانون من المرض و الإهمال والوحدة، إمَّا لأنهم لم يرزقوا بأولادٍ، أو أن لهم أبناءَ عاقين، قساة القلوبِ، عصاة لربهم؛ الذي أمر ببر الوالدين وطاعتهما، والإحسان إليهما.

يهدأ انفعال جدتي قليلاً.. ترى في كبار السن ثروة كبيرة من الحكمةِ والخبرةِ، يمكن أن يستفيدَ منها المجتمعُ، مع مراعاةِ ظروفهم الصحيَّةِ.. يمكن أن يسهموا في محوِ الأميَّةِ، والإشراف على نظافة الشوارع، وتنظيم المرور... وهكذا.

جدتي كرمة قاستِ الوحدة أيامًا طويلة؛ ولذلك تتعاطف مع المسنين المحرومين من الرعاية، وإن كانت لا تحب أن تطيل الحديث في ذلك.. ابنها مكرم عاش بعيدًا عنها وتزوَّج من كندية.. الابنة مي رحلت إلى سلطنة عمان لترافق زوجها، عملت هناك في التدريس الجامعي بتشجيع من أمها كرمة، وعادت إلى وظيفتها هنا في كلية الآداب، وتقتطع بعضًا من وقتها لزيارة أمي وعيادتها.. وأنا أوزع وقتي مابين دراستي ورعاية جدتي، وأبذل جهدًا كبيرًا للتوفيق بينهما.

كانت جدتي دائمًا تعذر ولديها، وتجد لهما المبرِّرات، وتدعو الله أن يوفقهما ويحافظ عليهما.. ذات مرَّةٍ سألتها:

ـ لماذا هاجر خالي مكرم مع أنه لم يكن في حاجةٍ للمال؟!
أجابتني:
ـ ليس من أجل المال وحده يغتربُ الناس، وإن كان جمع المال لتحسين الأحوال هو هدف أغلبيتهم.. بعضهم يسافر طلبًا لظروف معيشية أفضل، أو أكثر أمنًا.. ومنهم من يدفعه الطموح إلى منصبٍ أعلى خارج الوطن.. أمك مي مثلاً سافرت من أجل زوجها، لأن هذا واجبها.. خالك مكرم سافر حبًّا في العلم وسعيًّا إليه.. رأى معاناة أبيه في أبحاثه وهو الأستاذ الجامعي.. وجدَ مكرمٌ أن فرصَ البحثِ العلمي، والنبوغ متاحة في أوروبا وأمريكا أكثر من بلادنا العربية فانطلق إليها.. وكلما حدثه أبوه عن اكتشافاته التي لا تجدُ من يهتم بإخراجها إلى النور، لينتفع بها الناس، ازداد تمسكًا بالبقاءِ في الغربةِ!

تتحسَّر جدتي على الماضي؛ أيام مجد الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى.. حين كان طلاب العلم يتوافدون من أوروبا إلى بلادنا، لتلقي العلوم في معاهدها ومدارسها، على أيدي كبار العلماء العرب والمسلمين.
قلت لها:
ـ هذا صحيح.. قرأت كتابًا طيبًّا عن تاريخ الجراحة، وَرَدَ فيه أن طلبة الطبِّ الأوروبيين كانوا يأتون لمشاهدة الطبيب أبي القاسم الزهراوي؛ نابغة الطب والجراحة في بلاد الأندلس، وهو يجري العمليات الجراحية لمرضاه في قرطبة، ومن أشهرها عملية استخراج الحصى من المثانة، بالآلات الجراحية التي ابتكرها، ومازال بعضها يُستعمل إلى الآن.. وترجمت مؤلفاته ومنها كتابه المهم "التأليف لمن عجز عن التصريف ".. وظل هذا الكتابُ مرجعًا للطب في أوروبا حقبة طويلة من الزمن.
تقول في أسى:
ـ من يبصر حاضرنا فسيبدو له هذا الكلام ضربًا من الخيال.. نحن العرب نمتلك موارد طبيعية ضخمة، و ثروات بشرية ومالية هائلة.. ولو وجهنا أنظارنا إلى التعليم والبحوث العلمية، لصرنا أمة قوية متقدمة، في صدارة الأمم.
اتفق معها أن الاهتمام بالتعليم والبحث العلمي والانفاق عليهما بسخاء سر

تقدم الأمم.. وتعود جدتي لأحلامها:
ـ البداية عيادة طبية للمسنين.. أنت يا دكتورة سهيلة مديرتها.. ثم مستشفى.. ثم دارٌ لاستضافةِ المسناتِ وإقامتهن.
تظل تحلم وتحلم.. أعدها بأن ذلك سيتحقق بعون الله.. وستفتتح بنفسها هذه المشروعات.
تقول:
ـ لا يهمُّني الافتتاح، وإن كنت سأعيش حتى ذلك اليوم أو لا.. هو خطوة أولى على الدرب الطويل..الأهم النجاح والاستمرار والتطوُّر.. لا تتعجلي يا دكتورة.. ابدئي خطوة خطوة.. مازال العمر أمامكِ.. لا تشرعي في شيءٍ قبل أن تستعدي له جيدًّا، وتتزودي بالعلم والدراسة، وتقفي على أرضٍ صلبة.. وقد تركت وديعة نقدية كبيرة، لينفق ريعُها على المشروع.

يأتي زوجي الدكتور سامر حسين نائب طب الحالات الحرجة بالمستشفى الجامعي، وكنا متزوجين حديثًا.. يحبُّ الجلوس إلى جدتي والحديث معها.
تقول:
ـ أدعو الله أن أشهد مولد ابن أو ابنة حفيدتي!
يقول سامر مداعبًا:
ـ إن شاء الله سيكون ولدًا وسأسميه " حسين " على اسم أبي!
أردُّ عليه:
ـ أريد بنتًا لأطلق عليها كرمة الصغيرة!.
تقول جدتي:
ـ سيرزقكما الله بكرمة وحسين!
وعاشت جدتي وشهدت مولد صغيرتي كرمة.. حضرت سبوعها، وحملتها بين يديها.. لكن لم يمهلها الأجل حتى عيد ميلادها الأول!
حرصتُ على إنفاذ وصية جدتي، كما احترم خالي وأمي رغبتها في إقامة مشروع خيري في الفيلا.. و لكني عملت بنصيحتها فلم أتعجل بدء العمل قبل أن أدرس الموضوع دراسة علمية جادة متأنية.. تخصصت في طب المسنين أو الشيخوخة

كما يسمي هذا الفرع في الكتب والمراجع، ويجري على ألسنة أساتذة كليات الطب.. أو طب الجدات كما أسميه.. هو فرع حديث مستقل من فروع الطب.. يهتم بعلاج أمراض الشيخوخة، ومنها السكر وأمراض القلب، وقصور الحواس، والهذيان، وألزهايمر، والاكتئاب... وحصلت على الماجستير، فالدكتوراه في هذا الفرع نفسه.

لم اكتفِ بذلك، فطفت باقسام علاج المسنين بمستشفيات أوروبا، وأمريكا.. وأقمت عند خالي مكرم بكندا، واصطحبني إلى دور المسنين هناك؛ لأقف على أحدث الوسائل لرعايتهم، واكتسبتُ خبراتٍ مفيدةٍ من تلك الزياراتِ.

بعد مرور بضعة أعوام على رحيل جدتي كرمة، تجاسرتُ على تحقيق حلمها، ودعمني خالي مكرم بماله، وكذلك خبراته بإقامةِ السخاناتِ الشمسيَّة.

كانت البداية مجموعة عيادات بالدور الأرضي لعلاج المسنين والمسنات، شملت أمراضهم الشائعة.. فكانت عيادة امراض القلب والأوعية الدموية، وعيادة مرضى السكر، وعيادة طب العيون، والمخ والأعصاب.. وهكذا.. وقد تطوع زوجي بتولي عيادة الحالات الطارئة، وكان يبذل كل جهده، لإسعاف المصابين، ويحيل الحالات الحرجة إلى أقسام الرعاية المكثفة في المستشفى المناسب.

نجحت العيادات، واكتسبت سمعة طيبة؛ لمهارة أطبائها وحسن معاملتهم، وحققت شهرة معقولة بالنظر إلى حداثة عهدها، واجتذبت مرضى الأحياء الشعبية المحيطة بها.

شجعنا هذا النجاح على إنشاء مستشفى في الدور الثاني من الفيلا، يستقبل حالات الجراحة، وتجرى فيه العمليات الجراحية، وجراحات العيون، بإيدي جراحين ماهرين من أعضاءِ هيئاتِ التدريس بكليات الطب.

وفي العام التالي أقمنا دارًا لإقامة المسنات فقط، وتقديم الرعاية الكاملة لهن من علاج، وغذاء، نظير مبلغ شهري مناسب، ومجانًا لغير القادرات.. تحت شروط محددة، فالسن لا يقل عن ستين عامًا.. و يتم بحث الظروف الاجتماعية للمتقدمات؛ فتكون الأولوية لمن ليس لهم أولادٌ أو أقارب يعولونهم أو يعتنون بهم.

قبلت الدار عددًا محدودًا من الطلبات؛ لعدم وجود أماكن كافية لاستيعاب عدد أكبر من السيدات، ولتوفير الخصوصية لكل نزيلة، ومستوى جيد من الخدمة.. وإن اضطررت في مرات قليلة تحت ضغط الظروف الإنسانية القاسية إلى إسكان نزيلتين في حجرةٍ واحدةٍ بموافقة النزيلة الأصلية.. ودهشت وسررت عندما رجتني بعض النزيلات أن أسكن معها سيدة أخرى، لتؤنسها ولتطمئن بوجودها.. سرني أن ألمس روح المودة الصادقة والتعاون والإيثار التي تسود بين النزيلات.. وكأن تجربة الألم والظروف الصعبة التي عانتها كل منهن طهرت نفوسهن وجمعتهن!

أبقيتُ على الحديقة، وكلفت برعايتها حفيدًا لعم خضير الجنايني رحمه الله، اسمه "خضري"؛ لحاجة النزيلات إلى مساحةٍ واسعةٍ من الخضرة والزهور؛ للتريض والجلوس، ولتحسين الحالة النفسية لهن، وللمرضى والعاملين.

غلبت العقل على العاطفة بشأن مزرعة جدي الدكتور فهمي.. أو " أيكة الدواء " كما تطلق عليها جدتي كرمة.. خفتُ أن تتعرض إحدى النزيلات للأذى، بسبب الأشجار الخطيرة والنباتات السامة ، بخاصة شجرتا " الأوباس " و" المنشينيل" الرهيبتان، فبعض النزيلات مصاباتٌ بضعف الانتباه، أو نقص التركيز، أو النسيان.. وقد يقدمن على قطف زهرة خطرة، أو ثمرة سامة على الرغم من اللافتات الإرشادية المنذرة.. أمرت" خضري" الجنايني بقطع بقايا نباتات المزرعة من جذورها، واستئصالها، مع توخي الحذر الشديد عند التعامل معها.. وأحضرت له قفازين مطاطين متينين.. وكمامة.

كان البستاني الشاب يجهل كثيرًا عن أشجار المزرعة لأنها لا تزرع في بلادنا، وكان في غاية الدهشة من تحذيراتي.. ولم يكترث بها، إلى درجة أنه ارتدى القفاز ووضع الكمامة بعد رجاءٍ مني.. اجتث شجرة "المنشينيل".. و كان يريد أن يستخدمها كحطبٍ يستدفئ به في الشتاء ويصنع على جمراته الشاي.. هم بإشعال النار في فرع منها في غفلةٍ مني.. لحقت به.. أصابه الرعب عندما أخبرته ان دخان هذه الشجرة يصيب الإنسان بالعمى، وأطلق ساقيه للريح!

استبدلنا بالأشجار السامة نباتاتِ الزينةِ وشجيراتِ الزهور.. أعدنا ترميم و إصلاح قاعة المحاضرات القديمة، وتزويدها بالمقاعد والطاولات الجديدة، و جعلت من

المكان منتدى اجتماعيًّا و ثقافيًّا.. مزودًا بـ " بوفيه "، لتقديم المشروبات والمأكولات الخفيفة للمقيمين والزائرين.

اخترت لهذا المنتدى اسم " منتدى الكرمة ".. وهو مخصَّصٌ لجلوس النزيلات أو لقاءاتهم بذويهم و زوَّارهم.. راقتني فكرة للآنسة ولاء بدعوة بعض الشخصيات المشهورة من نجوم كرة القدم والفن والمجتمع ، واستضافتهم في المنتدي.. سعيت لتنفيذ الفكرة، ودهشت لما وجدت استجابة سريعة، وحماسة ممن اتصلت بهم من كبار الفنانين والرياضيين والأدباء.

استضاف المنتدى مطربًا شابًا له جمهورٌ عريضٌ، استمتعتِ النزيلاتُ بغنائه وحديثه معهن.. وكان ضيفنا التالي ممثلاً كوميديًّا من جيل الزمن الجميل والفن الراقي.

مع ازدياد المهام، و التوسع في الأنشطة، وثقل الأعباء، صارت الأمور في حاجة إلى المشاركة والمشورة.. رأيت تشكيل مجلسٍ لإدارة مجمع "كرمة الوفاء".. تشترك فيه ممثلاتٌ عن المقيمات، ومن يتطوع من أطباءِ الدار وموظفيه.. واخترتُ المحاسبة جيهان لتكون سكرتيرة للمجمع و مسؤولة عن الحسابات في الوقت نفسه، بعد أن علمت بتركها عملها بإحدى الشركات، واستدعيتُ المحامية بشيرة لتتولى بحث حالات النزيلات، والشؤون القانونية.. وهكذا جئت بصديقتي القديمتين لتعاونني، فسعدتا ورحبتا بأن نعمل معًا.

عينت كذلك شحاتة شقيق بشيرة الكبير سائقًا في المجمع.. وكثيرًا ما أركب معه، وأذكره بحكاية الكرة.

وفي اجتماعٍ لأعضاءِ مجلس الإدارة، قررنا إقامة مكانٍ لكبار السن من الرجال، لأن حاجتهم إلى الرعاية لا تختلف كثيرًا عن حاجة السيدات.. وكان علينا التفكير في المكان المناسب.. كان رأيي التوسع الرأسي.. ولكن الفيلا ستفقد شكلها الجمالي، وقد يعترض مهندسو الحي.. لم يكن امامي إلا الأخذ برأي الأغلبية، والرضوخ لها من أجل المنفعة العامة.. وافقت على مضض أن تهدم الحجرتان المجاورتان للجراج، وتضم أرضهما إلى مساحة صغيرة تقتطع من الحديقة لإنشاء المبنى الجديد.. ويبقى الجراج على حاله لضرورته.

الحمد لله اكتمل بناء دار المسنين للرجال.. وستفتح في غضون أيام قليلةٍ.

التوسعات الجديدة لن تقام ببتر أجزاء أخرى من الأرض الخضراء.. ستكون في الفيلا الخلفية التي كانت تستأجرها مدام أفروديت وأسرتها قبل السفر إلى اليونان.. تطوَّع خالي مكرم بشرائها من ماله الخاص، لتكون دارًا لرعاية الأيتام و أطفال الشوارع، ملحقة بكرمة الوفاء.. وأعطاني توكيلاً منه، ولاأزال أجري المفاوضاتِ مع المالك.

هكذا بدأ المشروع صغيرًا، ثم نما.. ومازال.. بإخلاص العمل لوجه الله تعالى.. ووديعة جدتي، وتبرعات خالي و بعض رجال الأعمال من المهتمين بقضايا المجتمع، والمعونة المقدمة من وزارة الشؤون الاجتماعية، وجهات الخير.

لم أجد اسمًا أطلقه عليه أجملَ وأصدقَ وأحبَّ إلى نفسي من "كرمة الوفاء ".. هو أولاً وفاء مني لجدتي.. صاحبة الحلم والفكرة.. ووفاء أيضًا للمسنات و المسنين الذين أفنوا شبابهم من أجل بلادهم، و أبنائهم، إن كان لهم أبناء، ومن أجلنا ونحن لا ندري.. فقد يكون منهم عاملُ صغير، أو موظف، أسدى إلينا خدمة ذاتَ يومَ بعيدٍ.. ونسيناه!

واستغرق وضع شعار لها كثيرًا من الوقت و التفكير والمشاورة.. استقر رأيي على رسم يصوِّر سيدة عجوز بعكاز تحت شجرةٍ مورقةٍ ظليلةٍ، واتخذته شعارًا مميزا لها، يوضع على كل مايخصها من لافتات ومطبوعات.. كلما وقعت عيني عليه، تذكرت جدتي كرمة وهي جالسة في الحديقة!

جو السَحَر يبعث على الصفاءِ والخشوع.. مضى الوقت، وهاأنذا أسمع أذان الفجر آتيًا من مسجد الدار، الذي حل محل المصلى القديم.. المؤذن هو عم زكريا حارس الدار.. يصحو قبيل الفجر، ويمضي إلى المسجد، يكنسه، وينظفه، ويؤذن للصلاة بصوته الجميل.

ألمح الموبايل على الطاولة يضيءُ ويومض.. كلما جلست على كرسي الذكريات أسْكَتّه، وجعلته في الوضع " صامتًا"، واندمجت مع الماضي، لا يشغلني شيءٌ.. قمت له.. ثلاث مكالمات فائتة من كرمة الصغيرة كالمتوقع.. هي الآن في السنة الثالثة الإعدادية.. تشبه جدتنا كرمة كثيرًا.. تريد أن تكون طبيبة.

كرمة ابنتي تصحو لصلاة الفجر ومراجعة دروسها .. توقظ شقيقها "حسين"،

وهو زميلها في المدرسة نفسها، لكن بالصف الخامس الابتدائي، ليرتديا زيهما، ثم ينتظرا حافلة المدرسة.. تعوَّدت غيابي ، ومبيتي بالمجمع.. تعلمت الاعتماد على نفسها، و متابعة شقيقها الوحيد.. نتواصل معًا عبر الموبايل.. تطمئن عليَّ وأطمئن عليها.

اتصل بها.. تسسألني عاتبة: لم لم أردَّ عليها؟!

أجيبها: كنت ساهرة مع جدتي كرمة.. دائمًا تأخذني من كل شيءٍ حولي.. فأكاد أنسى حتى نفسي!

أنهيتُ المكالمة وقمتُ إلى صلاة الفجر!

في الأوبرا

كل شيءٍ يمضي في طريقه المرسوم له.. بدأ العد التنازلي للاحتفال.. الباقي من الزمن ثمانٍ وأربعون ساعة.. أقوم بجولتي الصباحيةِ في المجمع.. أقصد إلى عمال البياض، الذين فرغوا من الحوائط، ويضعون الآن اللمساتِ الأخيرةِ على واجهة المبنى الجديد المخصص للنزلاءِ من الرجال، أستنهض همتهم للإسراع بتشطيبها، ليكون المبنى جاهزًا للافتتاح في يوم الاحتفال.

أتأمل اللافتة التي ستعلو واجهة هذا المبنى بعد قليل، تحمل اسمه الذي يدل عليه، وشعار كرمة الوفاء: السيدة العجوز بعكازها تحت الشجرةِ المورقةِ الوارفةِ الظلال.. يا لها من صورةٍ تثير أشجاني!

أمشي إلى منتدى الكرمة.. هو من الأماكن المفضلة عندي، وأقضي فيه أسعدَ أوقاتي.. أتوق إلى فنجان قهوة من يد أسمهان عاملة البوفيه.. تروق لي قهوتها.. كم أعجب بهذه الفتاة المكافحة.. حصلت على دبلوم التجارة بمجموع مرتفع، و ستكمل تعليمها في كلية الحاسب الآلى ونظم المعلومات، بمؤازرةٍ مني.

أشرب قهوتي في حديقة المنتدى.. تقبل البطلة ذات الوجه البشوش ولاء جلال فوق كرسيها المتحرك.. هي نفسها اللاعبة الفذة الحاصلة على الميدالية الذهبية في ألعاب القوى، عندما قذفت بالقرص فخالت جدتي كرمة، وهي تشاهدها على شاشة التلفزيون، أن القرص ينطلق ويذوب في قرص الشمس.. لست أنسى أن ولاء وزميلاتها بطلات دورة الألعاب البارالمبية، في السباحة ورفع الأثقال رفعن من الروح المعنوية لجدتي ما عجَّل بشفائها.

هي أصغر النزيلات عمرًا.. تبلغ ستة وأربعين عامًا.. حظيت بموافقة مجلس الإدارة بالإجماع باستثنائها من شرط السن.

كنتُ قد قرأتُ بالصدفة حوارًا لها في إحدى الصحفِ منذ بضعة أشهر.. كانت تشكو من المرض والوحدةِ وقسوةِ الظروفِ.. لم تتزوج.. فقدت والديها، وتعيش من معاش أبيها القليل.. ذهبَ المرضُ بكل مدخراتها من المال لأنها عزيزة النفس، لم تطلب مساعدة أو تستجدِ أحدًا.

ساءني أن تترك بطلة بارالمبية، تحدثتْ إعاقتها، و شرَّفتْ وطنها، حتى وصلت إلى مرحلة الشكوى، والألم النفسي، ومرارة الإحساس بالإهمال والجحود.

سعيتُ إلى معرفة عنوانها عن طريق الصحيفةِ، بمجرد أن انتهيتُ من القراءة.. اتصلت بها، وعرضت عليها أن تشرفنا بالإقامة في دار "كرمة الوفاء "، وزكيتها عند بقية الأعضاء.. فرحبوا بانضمامها إليها.

أدعوها إلى الشاي.. تبتسم.. تقول:

ـ أسعدني خبرٌ أذاعه التلفزيون هذا الصباح.. رئيس الوزراء وافق وصدَّقَ على قرار زيادة مكافآت لاعبي الكرة الطائرة الذين يلعبونها من وضع الجلوس.. وكان وزيرُ الرياضةِ قد قرَّرَ من قبل المساواةَ في المكافآتِ بين الأبطال البارالمبيين من أصحابِ القدراتِ الخاصةِ، الحاصلين على ميداليات، والأبطال الأولمبيين الأصحاء.

أقول:

ـ هذا قرارٌ صائبٌ.. سيحفز ذوي القدرات الخاصة على ممارسةِ الرياضةِ.. ولكن هل توجدُ لهم في الأندية أماكنُ وأجهزة ومدربون؟

تجيب ولاءُ فى أسفٍ:

ـ اللاعبون المعاقون لا يجدون الاهتمام المستحَق في النوادي الرياضية، ومن وسائل الإعلام.. لا يوجد خطط جادة منظمة.. الأمر يخضع للمناسبات، وأحيانًا يتوقف على المجهودِ الشخصي للاعبِ!

أقول:

ـ الاهتمام برياضاتِ ذوي الحالات الخاصة يتزايد في بلادنا، والمجتمع صار على وعي كبيرٍ بها ويشجعها..الوضع يدعو للتفاؤل.

تبتسم:

ـ أنا دومًا متفائلة برغم كل شيءٍ!

أترك ولاء.. أسير في اتجاه المبنى.. السيدتان ناجية وجاكلين هناك، بـ "التريننج سوت" أمام طاولة "البنج بونج ".

هما أقدم نزيلات الدار، لذلك تعمقت بينهما الصداقة وتوطدت بفعل الزمن.. احتاجت السيدة ناجية إلى شهورٍ طويلة من التأهيل النفسي؛ لتخرج من تلك

الفاجعة التي منيت بها.. فقدت أسرتها بالكامل في حادثِ طريق مروع على طريق رأس سدر بسيناء.. كُتبت لها النجاة، ولكن أصابتها "فوبيا " ركوب السيارات.. أشار المعالج النفسي أن خير علاج لها معايشة الشيء الذي ترهبه تدريجًا، وشيئًا فشيئًا تعتاده، وتزول حالة الخوف المرضي لديها.. بذلتُ جهدًا كبيرًا معها، حتى نجحتُ في النهايةِ.. لم أنجح فقط في أخذها بالسيارةِ لزيارة الأماكن الأثرية كالجامع الأزهر، والقلعة، بل و إعادتها إلى قيادةِ السياراتِ بنفسها.

أما السيدة جاكلين، فما أشبه حالها بجدتي كرمة، فقد هاجر ابنها الوحيد إلى الولايات المتحدة عقب تخرجه، ونجح هناك.. أرسل في طلب أمه.. خاضت تجربة السفر.. قالت لي إنها لم تسترح في الغربة، على الرغم من رفاهية الحياة هناك، فآثرت العودة و البقاء في الوطن.

توقفان تقاذف الكرة.. تلوح لي السيدة جاكلين بالمضرب الصغير؛ أن تعالي لتلعبي دورًا.. ألبي الدعوة.. أتناول منها المضرب، وألاعب الجدة ناجية قليلاً.. نتوقف.. تسألني عن موعد إجراء عملية المياه البيضاء بعينيها.. أعدها بالاتصال بجراح العيون.

أتركهما تلعبان.. أرى الحاجة ماجدة تتأهب لركوب ميكروباص الدار.. الذي يحمل شعار واسم كرمة الوفاء.. هي ذاهبة لإجراء جلسة الغسيل الكلوي.. تغسل ثلاث مرات أسبوعيًّا.. تعاقدنا مع مركز خاص به وحدات للغسيل الكلوي، وأفكر بإنشاء مركز لخدمة مرضى الفشل الكلوي يشمل أجهزة الغسيل.

تتحمل الدار تكاليف الأدوية وجلسات الغسيل للحاجة ماجدة، وهذا أقل ما يجب لرد جميلها.. السيدة ماجدنا جارتنا، زوجة الحاج عبد الحميد مُربِّي النحل، لم تنجب أولادًا.. أشارت على الحاج عبد الحميد بالزواج من أخرى؛ لإحساسها بشوقه للذرية.. تزوَّج بشابةٍ، رزقت منه بولدين.. توفي الحاج عبد الحميد، وانكشف الوجه الحقيقي للزوجة الشابة الطامعة.. لم تعطِ الحاجة ماجدة سوى الفتات، وطردتها من البيت، وانفردتْ هي وولداها بكل شيءٍ.

إذا توفر لها متبرع بكليته، تتوافق انسجته مع أنسجتها، فلن أتوانى عن إجراءِ عملية زرع كليةٍ لها على نفقة الدار.

أكثر كبار السن لجأوا إلى دور الرعاية لانعدام البر بالوالدين، و انقطاع صلة الرحم، وبسب الطمع والجشع ونكران الجميل، ولو أطاع الناس الله ورسوله، واتبعوا تعاليم الأديان السماوية، لنقصت أعداد المحتاجين إلى دور الإيواء بقدرٍ كبيرٍ، ولاقتصرت على فئةٍ قليلةٍ ممن لا أهل لهم.

أسرع الخطوَ لألحق بالحاجة ماجدة.. تلك السيدة العظيمة التي مهما فعلت فلن أوفيها حقها.. لقد أنقذت جدتي من عواقب الجلطة؛ بالإسراع بها إلى المستشفى، وبقيت بجوارها مع مدام أفروديت.. وظلت تقوم بمهمة التمريض بإعطائها الحقن، ومتابعة ضغط الدم والسكر، حتى اتممتُ دورة الإسعافات الأولية، فقمت بدورها، دون أن أستغني عن مشورتها، وتشجيعها.

ألثم يدها.. أودعها.. أبتهل إلى الله أن يهوِّن عليها، و يرجعها إلينا سالمة.. أوصي بها الأسطى شحاتة السائق.

كم تلقى هذه السيدة من عناءٍ في أثناءِ جلسة الغسيل!

أصعد إلى مكتبي في الطابق الثالث، في حجرة جدي فهمي نفسها، وعلى مكتبه الأبنوسي عينه.. تدخل الأستاذة بشيرة المحامية..كم تبدو جادة في نظارتها الطبية وملبسها المحتشم الوقور.. تريني عقود الشراء.. سألتقي مالك الفيلا الخلفية لنوقعها في غضون أيام قليلةٍ، ونهيئ المكان لمشروع خيري جديد.

جاءت جيهان.. ناقشت معي ميزانية الحفل.. ما تم صرفه، وما تبقى، وما يلزم.. المصاريف في حدود المعقول وفقًا لما اجتمع رأينا عليه جميعًا.. لا أريده حفلاً باذخا إلى حد الإسرافِ والسفهِ، ولكن حفلاً يجمع بين البساطة والجمال، و بذلك نوفر المال لإنفاقه على تحسين الخدمة في الدار.

كتبت شيكًا بالمبلغ المطلوب، وسلمته لجيهان كي تصرفه من حساب الدار في البنك.

بسطت جيهان جريدة كانت معها.. أشارت إلى خبر في صفحة الفن.. اعترتني دهشة.. قلت تداخلني السعادة:

- في الأوبرا؟! سأحجز تذكرتين لحفلةِ هذا المساءِ!

الاحتفال

اليومُ يومُ الاحتفال.. حرص أفرادُ أسرتي على الحضور؛ زوجي ونجلي حسين وابنتي كرمة الصغيرة.. ليت جدتي كرمة لا تزال على قيد الحياة؛ لتشهدَ معنا العيدَ الخامسَ لمشروعها العظيم! لكنها إن تغب عنا بالجسد فليستْ تغيبُ بالروح.

ميلندا.. مفاجأة الحفل.. أحيت حفلًا أول أمسِ بدار الأوبرا.. اصطحبتُ ابنتي، واستمعنا لعزف الفنانة العالمية ميلندا مينا على المندولين.. طارت بي الأنغام الشجية لعالم الذكريات.. صعدتُ إليها على المسرح عقب نهايةِ العزفِ.. تعانقنا.. تعرفتْ كرمة الصغيرة من الوهلة الأولى، للشبه الكبير بينها وبين جدتي كرمة.. قالت ميلندا إنها تهفو إلى نزهة على شاطئ النيل.. ذهبنا وجلسنا على الكورنيش.. استمعتْ كرمة الصغيرة إلى ذكرياتنا في مصر الجديدة.. أخبرتُ ميلندا بتحوِّل الفيلا إلى مجمع خدمي يشمل عياداتٍ ومستشفى ودارًا للمسنات.. حدثتها عن دار المسنين التي سنفتتحها بعد غدٍ، وتفكيرنا بدار لرعاية الأيتام والأطفال الذين لا أهل لهم ولا مأوى، ويطلق عليهم أطفال الشوارع.

دعوتها للحفل بعد تردُّدٍ.. رحَّبت وقالت إنها ستقدم فقرة من العزفِ على المندولين.

بدأ الاحتفال في الساعة السابعة مساءً ، في حديقة كرمة الوفاء التي ازينت أشجارها باللمبات الملونة.. قام بافتتاح دار المسنين الجديدة أول نزيل سيدخلها، وألقى كلمة بهذه المناسبة، شكرَ فيها القائمين على الدار.. وحكى عن ظروفه الخاصة، التي حفزته على التقدم للدار فور الإعلان عنها في الصحيفة.. أسرع من فوره إلى مقابلة مسئوليها، فلاقى كل ترحيب، وحسن معاملة.

النزيل يُدعَى الأستاذ فؤاد، في الخامسةِ والسبعين من عمرِهِ، ضابط قديم بالجيش.. ميسور الحال.. له أولادٌ وبناتٌ.. يريدُ ألا يكون عبئًا عليهم من ناحية الخدمةِ والرعايةِ.. أعلن تبرعَه للدار بمبلغ كبيرٍ من المال كان يدخره في البنك.

حضرت عازفة المندولين العالمية ميلندا مينا، فكانت مفاجأة للحاضرين، خاصة بشيرة وجيهان.. تعجبنا لاجتماعنا معًا بعد طول افتراقٍ.. وقالت ميلندا إن الفضل يعود إلى جدتي كرمة، فهي صاحبة فكرة مشروعاتِ الخير.. جمعتنا في

عهد الطفولة، و ها هي تجمعنا في الحاضر أيضًا.
وكان حضور ميلندا أحسن دعايةٍ للمجمع الخيري، وإبراز جهودنا أمام المجتمع.. فقد اهتمت وسائل الإعلام بالاحتفال.. وجاءت كاميرا التلفزيون لتسجل مشاهدَ من الحفل، لتذيعه في برنامج " لقطات مضيئة " الذي يهتم بمشاكل كبار السن، و يحتفي بهم.
قدَّمت ميلندا للعزفِ بكلماتٍ مؤثرةٍ.. قالت إن المعزوفاتِ التي ستقدمها هدية منها لذكرى سيدةٍ فاضلةٍ اسمها كرمة رامي.
عزفت ميلندا على المندولين، فأبدعت، وأشجت السامعين.
وفي الختام بدأنا تقليدًا جديداً؛ هو تكريم إحدى نزيلاتِ الدار.. على أن نختار واحدة كل عام.

اجتمعتِ الآراءُ على البطلة ولاء جلال لتكريمها هذا العام، لكي نشعرها بالاهتمام والتقدير، واننا لن ننسى كفاحها وإنجازها الرياضي العالمي.
تحدثتْ من فوق كرسيِّها المتحرِّكِ، والميدالية الذهبية البارالمبية تلمع على صدرها، ومن حولها الكؤوس التي حصلت عليها في البطولاتِ المحليةِ والعربيةِ، وعلى مستوى قارة أفريقيا وسائر قارات العالم.
قالت كلمة قصيرة عبرت فيها عن سعادتها، وقالت إن كلَّ سيدة من سيدات كرمة الوفاء تستحق التكريم.. وأعلنت خبرًا رائعًا: ستقام الألعابُ البارالمبية بداية من دورة اليابان القادمة بالتزامن مع الألعاب الأولمبية، وكانت تقام بعد انتهائها في جميع الدورات السابقة.. وستضافُ الميداليات البارالمبية للدول الحاصلة عليها إلى ميدالياتها الأولمبية.. ما يعني المساواة الكاملة بين الأصحاء، و أصحاب الحالات الخاصة.
و أعلنت رغبتها في أن توضع الكؤوس وشهادات التقدير التي نالتها في دولابٍ خاص في مدخل الدار ليشاهدَها الزوّار.

استراحة قصيرة

منذ بضع ساعاتٍ، انتهى الاحتفال، وانفضَّ الجمعُ، وأطفئتِ الأنوارُ.. مضتْ ميلندا.. كانت كطيفٍ جميل.. ستعودُ إلى أثينا.. ستبلغ سلامي إلى والديها؛ مدام أفروديت، و الأستاذ مينا.. سيأخذها المندولين منا إلى مدنٍ كثيرةٍ حولَ العالمِ.. وعدتني أن تكون معنا كلَّ عامٍ، إن سمحت ظروفها.. وأتمنى أن تواتيها الظروفُ.
أنا الآن في الشرفة.. أجلس على مقعد البلوط الأصيل..أسمع تسبيحة الكروان.. استحضر جدتي كرمة.. أناجيها دامعة العينين.. أقول لها: عساكِ أن تكوني راضية عني.. ولو بعض الرضا.. دعواتكِ يا جدتي كرمة.. أحتاج إليها.. بشدَّةٍ.. فالطريقُ طويلٌ.. طويلٌ!

أسطرُ الآن هذه الكلمات لتكون الخاتمة لأوَّلِ كتابٍ لي.. سأتبَعُهُ بآخرَ بمشيئةِ اللهِ عن جدَّاتِ كرمةِ الوفاءِ.
أستطيع الأن أن أتنفسَ ـ مؤقتا ـ في راحةٍ!